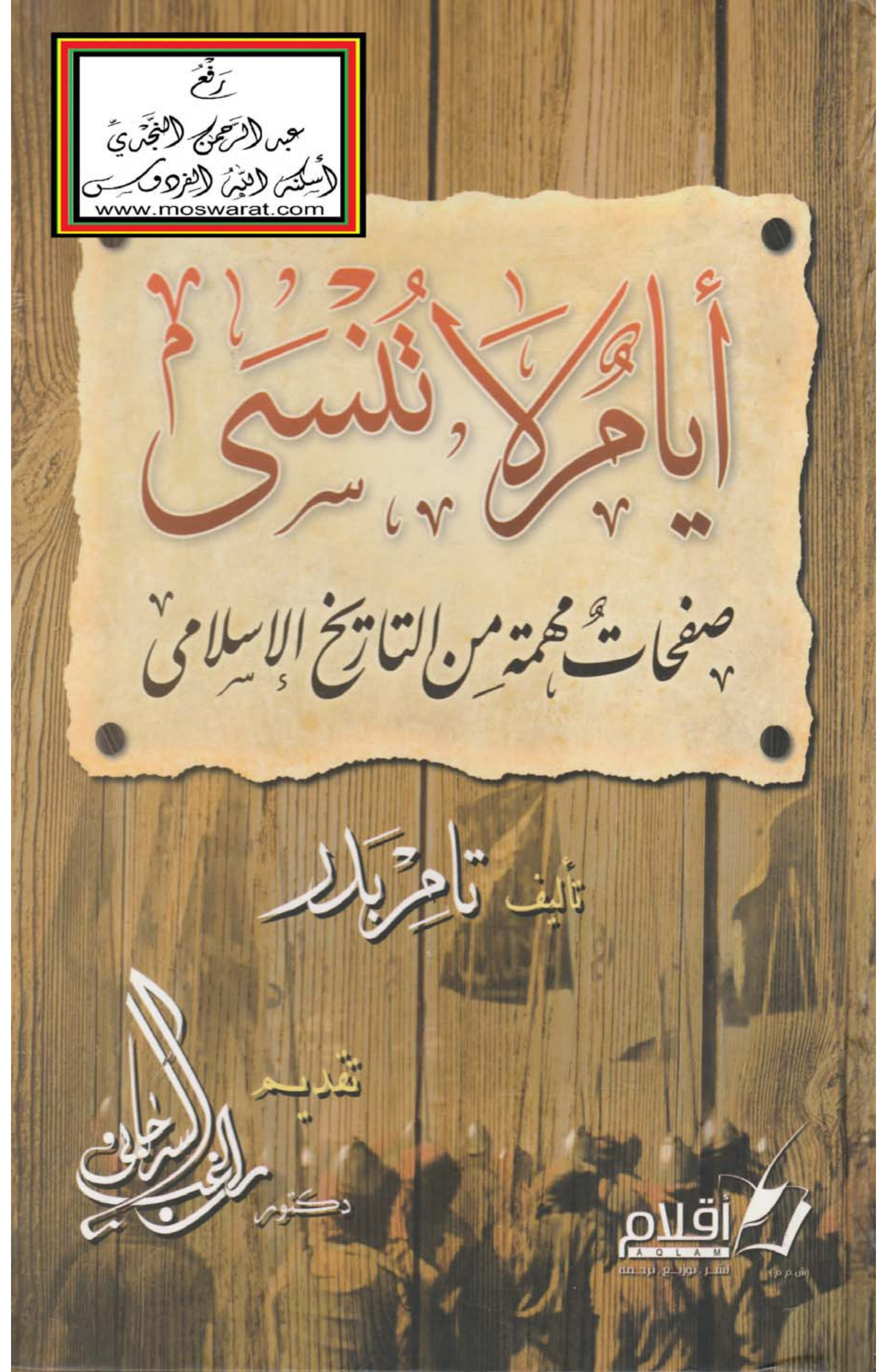


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
أيام لا تنسى
صفحات مهمة من التاريخ الإسلامي
تأليف تامر بدر
تقديم
دكتور راغب السرجاني
أقلام
AQLAM
نشر . توزيع . ترجمة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أيام لا تنسى

صفحات مهمة من التاريخ الإسلامي

تأليف

تامر بدر



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

بدر، تامر

أيام لا تنسى/ تامر بدر

القاهرة: دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١١

٢٥٦ص ، ٢٤ سم

١- التاريخ الإسلامي

أ. العنوان ٩٥٣

رقم الإيداع: ٢٠١١/٢٢٣٨

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧



(ش.م.م) إعلام . نشر . ترجمة

www.aqlamonline.net

٣٢٩ ش بورسعيد - السيدة زينب القاهرة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

إلى الإخوة الكرام في المكتبات والمطابع في مصر وغيرها وفقهم الله..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد..

أسأل الله لي ولكم التوفيق والسداد الدائم.. آمين..

ولما كان كتابي: «**أيام لا تنسى.. صفحات مهمة من التاريخ الإسلامي**» يحتوي على صور وخرائط وتوضيحات، وطباعته بهذه الصورة، وبجودة عالية، يضمن بقاء الفائدة والانتفاع به، بإذن الله..

فإني أُفيدكم بأن كتابي «**أيام لا تنسى.. صفحات مهمة من التاريخ الإسلامي**» حقوق طباعته ونشره لدار(أقلام) فقط، أو مَنْ يُخوِّلونه هم بالطباعة والنشر في مصر أو غيرها، بشرط أن يُباع الكتاب بسعر مخفض؛ وذلك أني تنازلت عن حقوق المؤلف في سبيل بيعه بسعر لا يشقُّ على طلبة العلم ومَنْ يُريدون إهداءه وتوزيعه خيريًّا، وهذه الحقوق حصرية لهم لمدة ثلاث سنوات فقط من تاريخ هذه الورقة.

أسأل الله أن ينفع به، ولا يحرمنا جميعًا الأجر والثواب..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتبه / تامر بدر

القاهرة ٢٦ محرم ١٤٣٢هـ

١ يناير ٢٠١٠م

إهداء

إلى الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم؛ كي تقف هذه الأمة في مكانها الصحيح، وكي تؤدي دورها الصحيح..

إلى الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم؛ كي يحرروا أراضي المسلمين المحتلة..

إلى الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل رفع راية الإسلام في كل مكان..

إلى كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا..

إلى كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله كي يصل الإسلام إلينا..

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته..

إلى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين..

إلى صلاح الدين الذي وَحَّد المسلمين، وقاد الجيوش، ودَرَّب وسَلَّح، وحَرَّر الأقصى من الصليبيين..

إلى كل من يُريد تحرير بيت المقدس من اليهود..

إليهم وحدهم أُهدي هذا الكتاب سائلاً المولى ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقديم

عانى التاريخ الإسلامي كثيرًا من الإهمال على مدار السنوات والقرون، وكانت النتيجة أن عبث كثير من المستشرقين والمستغربين في هذا التاريخ؛ وبالتالي خرج لنا التاريخ بصورة مغايرة كثيرًا عن الحقيقة، والأنكى من ذلك أن الدروس والعبر تاهت وسط هذه التحريفات، فصار التاريخ دراسة أكاديمية لا معنى لها للقرَّاء؛ ومن ثَمَّ عزفوا عن قراءته، وأعرضوا عن دراسته..

وإزاء هذا الوضع السيئ كان لا بد لبعض الغيورين أن ينتفضوا لنجدة هذا التاريخ الطويل؛ بل لنجدة الشباب المسلم الذي فشل في العثور على مصدر مناسب ومأمون يقرأ فيه تاريخ الأمة.. بل لا أبالغ إن قلت: إن العالم أجمع -مسلمًا كان أو غير مسلم- يحتاج إلى هذا التاريخ الإسلامي المجيد، فلم تعرف الدنيا روعة ولا إبهارًا مثل التي وجدناها في تاريخنا العظيم..

والكتاب الذي بين أيدينا نوع من هذه النجدات!

إنه كتاب قيم يجمع في براعة فائقة عددًا ضخمًا من الأيام الفاصلة في تاريخ الأمة الإسلامية، ومع ذلك فإن هذا الجمع الهائل لم يتسبب في ضخامة مماثلة في عدد الصفحات! مما يُنبئ عن إتقان متميز من مؤلفه في انتقاء المفيد من كل معركة، والمهم من كل لقاء.. ولعلَّ هذا من أبرز ما يميز هذا الكتاب عن غيره، حيث تميز المؤلف بقدرة بارعة على الاختصار والتركيز، حتى لتشعر أنك بقراءة أربع أو خمس صفحات عن موقعة هائلة أنك قد ألممت بكل شيء، ولا تحتاج إلى معلومات أخرى، بينما المتخصصون يعرفون أن المؤرِّخ يمكن أن يكتب مجلدات كاملة عن مثل هذه المعارك!

وتميَّز هذا الكتاب كذلك بتجوُّله في خفَّة بين مراحل التاريخ الإسلامي المختلفة،

فهو يبدأ من العهد النبوي، ثم يقفز في سرعة مناسبة بين العهود التاريخية المختلفة؛ كالعهد الراشدي والأموي والعباسي والأيوبي والمملوكي والعثماني، ولا يُغفل التجوال كذلك جغرافيًّا في جنبات العالم المختلفة؛ فيصل إلى الشرق ويتحدث عن معارك الهند، ويغادر الشرق إلى الغرب فيصف معارك الأندلس!

ويُمَيِّز هذا الكتاب كذلك أنه تحدَّث عن معارك كثيرة لا يعرف كثير من المسلمين أي تفصيلات عنها، بل لا أبالغ إن قلت: لا يعرف المسلمون اسمها! ويكفي أن أشير -مثلاً- إلى معارك عين التمر، وفتح الديبل، ومعركة طلاس، وفتح سومنات، ومعركة نيكوبوليس، ومعركة موهاكس، وغير ذلك من معارك اندرس ذكرها، وعلا الغبار على صفحاتها، حتى جاء هذا المؤلف بأمانة وحرص يكشف النقاب عن هذه الأيام الفاصلة.

وفوق كل ما سبق فإن هذا الكتاب القيم يتميز بأمرين انفرد بهما عن كثير من المؤلفات التي ملأت المكتبة الإسلامية، مما يجعله فريدًا في مجاله..

أمَّا الأمر الأول: فهو عدم اقتصاره على انتصارات المسلمين، بل ذكر بحيادية جميلة، ودقَّة بالغة المعارك الكبرى التي هُزم فيها المسلمون! مثل معركة أحد، ومعركة بلاط الشهداء، ومعركة العقاب، وغيرها من الهزائم، وهذا في الواقع ذكاء واضح من المؤلف؛ حيث يُبرز للقارئ أمانته في عرض الأحداث، ويؤكِّد على أن الأيام دول بين الأمم، كما لا يحرم القرَّاء من الاستفادة من الدروس المهمة في هذه المعارك..

والأمر الثاني: هو أن المؤلف لم يقف عند سرد الأحداث كما يفعل كثير من المؤلفين، إنما تعمَّق في الأمور، وبحث عن عوامل النصر، وعن أسباب الهزيمة، فيخرج القارئ للكتاب بحصيلة وافرة من أسباب قيام الأمم أو سقوطها، وتحقق بذلك الهدف من قصِّ القصة؛ كما بيَّن لنا ربنا ﷻ عندما قال: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [يوسف: ١١١].. والحق أن المؤلف صاغ كل ذلك بحرفية عالية متميزة..

وأخيرًا:

فإن هذه الحرفية من المؤلف لم تمنع أسلوبه من أن يكون رقيقًا جميلاً، فجاءت عبارات الكتاب رشيقة، وكلماته بديعة، وطريقة عرضه سلسة ممتعة، مما أضفى على الكتاب بهاءً ورونقًا..

إنني وإن كنت أعلم أن هذه هي المحاولة الأولى للمؤلف في الكتابة العسكرية، إلاَّ إنني على يقين من أنها ليست المحاولة الأخيرة أبدًا، فمعارك التاريخ الإسلامي وتفصيلاتها تحتاج إلى مئات المجلدات، وآلاف الشروح والتحليلات..

جزى الله الأستاذ تامر بدر خير الجزاء عن جهده الوافر، ونصيحتي إليه أن يُجَدِّد النية دومًا مع كل كتاب؛ حتى يكتب الله ﷻ لكتبه الانتشار، ويكتب له الأجر الجزيل والثواب العميم..

وأسأل الله أن يُعزَّ الإسلام والمسلمين

أ. د. راغب السرجاني

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

والحمد لله مُعزُّ مَنْ أطاعه واتَّقاه، ومذلُّ مَنْ خالف أمره وعصاه، قاهر الجبابرة وكاسر الأكاسرة، لا يذلُّ مَنْ والاه ولا يعزُّ مَنْ عاداه، ينصر مَنْ نصره ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، أحمده سبحانه وأشكره حمدًا وشكرًا يملآن أرضه وسماه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه ومصطفاه، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ولكل مَنْ نصره ووالاه.

وبعد..

إن الحرب أمر بُني عليه نظام الكون لا مفرَّ منه، والمتسامح العفوُّ لا بُدَّ أن يجد نفسه يومًا مضطرًّا لحمل راية الحرب وإن لم يرغب في ذلك، بل وإن مكارم الأخلاق تُحتم حتى على غير المسلم أن يقف مقاتلاً، ويرى أن قتل الآخر شرف لا يُدانيه شرف؛ إن كان هذا الآخر قد دنَّس العرض أو سعى في الإساءة للمعتقد أو انتهاك الحرمات، ولن يكون الكفُّ والإعراض من مكارم الأخلاق حينئذٍ.

وإذا كانت حروب النبيين السابقين قد اختفت في ظلمات الحقب وطيات التاريخ؛ فإن حروب سيدنا محمد ﷺ مسجلة في سجل الخلود، ثابتة هادية مرشدة، معلنة أنها الحرب الفاضلة حقًّا وصدقًا، فلم يكن الرسول ﷺ يُقاتل الشعوب، بل كان يُقاتل فقط المتكبرين المتغطرسين، الذين يقودون القوى إلى الاعتداء، والذين يصدُّون الدعوة

إلى الله ﷻ؛ ولذلك لم يكن النبي الكريم يُبيح قتل أحد لا يُقاتل، وليس من شأنه أن يُقاتل وليس له رأي في الحروب؛ فينهى النبي ﷺ عن قتل النساء والعمال والذرية والشيوخ، الذين لا رأي لهم في الحروب.

إن الحروب الإسلامية وما اشتملت عليه من قواعد وأحكام تمنع إتلاف الزرع والشجر وتخريب العمران؛ ليعلم الناس أنها شريعة تستمدُّ نظامها من السماء، لا من قوانين الغابة في الأرض، ولا من تحكُّم القوي في الضعيف، بل هي في جُلِّ أحوالها لنُصرة الضعفاء، وحمايتهم من الأقوياء؛ كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: ٥]. ولم يعرف التاريخ جيوشًا رفيقة بالأسرى كجيوش المسلمين الذين اتبعوا أوامر دينهم؛ ولذا حرص عليه الصلاة والسلام على الرفق بالأسرى فقال: «**اسْتَوْصُوا بِالأُسَارَى خَيْرًا**»[1].

وحين ينظر المرء نظرةً لواقعنا، ويقارنه بماضينا يتحسر، يتحسر يوم يرى تلك الأمة وقد كانت قائدة، وإذا بها قد أصبحت تابعة.

والأمة اليوم بحاجة ماسَّة إلى أن تعود إلى المنهج النبوي والسيرة النبوية؛ لأخذ الدروس والعبر النيرات المباركات، وتتعلم منها الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسمو الأخلاق، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله.

وإذا تجاوزنا ما قَدَّمه المسلمون من إسهامات، وأفكار وخطط وأسلحة مبتكرة وأدوات حرب، ووقفنا أمام أضخم وأعظم إنجاز حربي قدَّمه المسلمون للعالم ولدينهم، حتى وإنْ ظَلَّ أعداء الإسلام يعتبرونه سقطة تاريخية من وراء حقد دفين، إنها الفتوحات الإسلامية للبلدان، فكم حرَّر الإسلام من شعوب عاشت تحت نير طغيان

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٨٨٢٩)، وفي الصغير (٤٠٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن. مجمع الزوائد ٦/ ١١٥.

حكامها، وقهرهم وتحكمهم!! ويكفي ما كان يُبديه الإسلام في فتوحاته من معاملة طيبة لأهل الكتاب؛ ليتعرف العالم على السبب الذي يجعلنا نُسَمِّي هذه الفتوحات إنجازات إنسانية قبل أن تكون إنجازات حربية؛ لقد استطاع المسلمون نشر دينهم بالفتوحات بأقل عدد من القتلى على الجانبين، ولو تخيلت شعوبًا مثل: مصر، وليبيا، والمغرب، وغيرها من دول شمال إفريقية أنفسها بدون فتح إسلامي لصار مصيرهم في أيدي الاستعماريين، ومبدِّدي الثروات، وغاصبي الأرض، الذين ما كانوا يُمارسون ضدَّ شعوبهم سوى العنف والقهر والعمل بالسخرة إلى أن جاء الإسلام، ورحبت به الشعوب من أجل الإنقاذ، فحماهم الإسلام وقدَّم مبادئه التي لا يختلف اثنان على موضوعيتها وسماحتها.

يجب على الشعوب الإسلامية أن تدرس وتتعرَّف على هذا التاريخ العظيم لأمتنا الإسلامية؛ كي تستعيد مجدها الغائب، وتعرف لماذا انتصرنا وفتحنا البلدان وخشي منا الأعداء، ولماذا انهزمنا واسْتُعمرنا وتجرَّأ علينا الأعداء؛ لذلك فقد حاولتُ قدر استطاعتي أن أُبرز في هذا الكتاب أهم المعارك العربية الإسلامية التي غيَّرت الخريطة السياسية لهذه الأمة عبر العصور.

فأرجو أن يكون ما كتبته نموذجًا لما أصبو إليه وما يتطلع إليه الدارسون في دراسة أحداث تاريخنا العسكري.

ولست بمستغنٍ عن أي ملاحظة تسدُّ نقصًا هو من طبيعة عمل البشر، والشكر أُقَدِّمه سلفًا لكل مَنْ ساهم بملاحظة مفيدة، أو لم يبخل عليَّ بدعوة بظهر الغيب صادقة، أصلح الله أحوال المسلمين ووقاهم الشرور والفتن وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ.

وأخيرًا:

أرجو من الله تعالى أن يكون عملي عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما

يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

تامر بدر

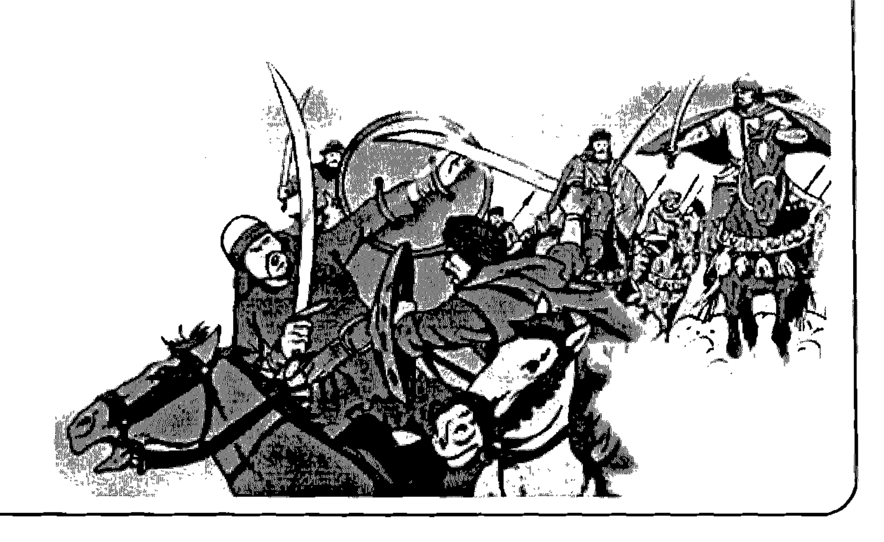
* * *


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الفصل الأول

أيام لا تنسى في العهد النبوي الشريف



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معركة بدر

التاريخ	٢ هـ/ ٦٢٤ م	
المكان	آبار بدر، ١٢٠ كم جنوب غرب المدينة المنورة	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	المسلمون	قريش
القادة	النبي ﷺ	عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي
القوى والحشود	١٧٠ من الخزرج +٧١ من الأوس + ٧٣ من المهاجرين بإجمالي ٣١٤ مقاتل	٩٠٠ من المشاة + ١٠٠ من الفرسان بإجمالي ١٠٠٠ مقاتل
القتلى	١٤ شهيدًا	٧٠ قتيلاً
أسير	-	٧٠

غزوة بدر الكبرى هي معركة وقعت في (١٧ رمضان ٢هـ= ١٣ مارس ٦٢٤م) بين المسلمين بقيادة النبي ﷺ وبين قريش بقيادة عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي المعروف بأبي جهل عند آبار بدر في جنوب المدينة، وانتهت بانتصار المسلمين ومقتل سيد قريش عمرو بن هشام بن المغيرة.

أسباب المعركة

أطاع المسلمون أمر الله، وهاجروا من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعد أن اشتدَّ الأذى والتعذيب عليهم، وتركوا ممتلكاتهم وأموالهم، وما كان من كفار قريش إلاَّ أن استولوا على هذه الأموال وذهبوا إلى الشام ليتاجروا بها، ثم عادوا إلى مكة في قافلة محملة بالكثير من الأموال والأحمال والجمال[١].

(١) انظر: ابن هشام ٣/ ١٥٢.

الخروج إلى القافلة

وصلت أخبار هذه القافلة إلى النبي ﷺ في المدينة المنورة، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة المشرفة، فخرج النبي ﷺ على رأس جيش من الصحابة الأبطال، وكان عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، والأعلام والبيارق حولهم ترفرف وتعلو.

لكن خبر خروج المسلمين للقتال بلغ القافلة التي كان على رأسها أبو سفيان بن حرب وهو أحد رءوس الكفر في ذلك الوقت، ولم يكن معه حراسة كافية لتمنع عنه النبي ﷺ وصحابته فبعث برجل إلى مكة يستنجد بأهلها.

ووصل الرجل إلى مكة صارخًا طالبًا النجدة، فأسرع كفار قريش بتجميع قواهم وجندهم وسلاحهم ومضوا إلى محاربة النبي ﷺ.

في هذه الأثناء غَيَّر أبو سفيان مسيرة القافلة بين الشام ومكة، وابتعد عن الطريق المعهود إلى ناحية البحر[1]، ولم يعلم المسلمون أن كفار قريش خرجوا لمساعدة القافلة، حتى وصلوا إلى ما قبل «بدر» وهي اسم ناحية، فنزلوا هناك وأرسلوا ثلاثة أشخاص للاستكشاف فعادوا وقد قبضوا على غلامين خرجا لجلب الماء لمعسكر كفار قريش، فعلم عندها النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته بخروج قريش لمقاتلتهم وأن عددهم حوالي ألف مقاتل.

استشار النبي الأعظم صحابته، فقام كبارهم وتكلَّموا فأحسنوا وأجادوا؛ وقال المهاجرون خيرًا والأنصار خيرًا، وكان منهم سيدنا سعد بن معاذ الذي أخبر النبيَّ ﷺ أن الأنصار لن يخذلوه أبدًا، ولو أمرهم بخوض البحر لخاضوه معه وختم بقوله: «فسر بنا على بركة الله».

التحرك للمعركة

فارتحل بهم النبي ﷺ حتى وصل قريبًا من وادي بدر، فبلغه أن أبا سفيان قد نجا بالتجارة وأن قريشًا وراء الوادي؛ لأن أبا جهل أشار عليهم بعد أن علموا بنجاة العير ألاَّ يرجعوا حتى يصلوا بدرًا فينحروا ويطعموا الطعام ويسقوا الخمور فتسمع بهم العرب فتهابهم أبدًا.

---

(١) ابن كثير: السيرة ٢/ ٣٨٠.

فسار جيش المشركين حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي (أي الشاطئ البعيد للوادي)، وسار رسول الله ﷺ بأصحابه حتى نزلوا بالعدوة الدنيا من الوادي، ولم يكن بها ماء، فأرسل الله تعالى الغيث حتى سال الوادي؛ فشرب المسلمون وملئوا أسقيتهم، وصار التراب تحت أقدام النبي ﷺ والصحابة جامدًا يسهل المسير عليه، وأما الكفار فقد صار الرمال من تحتهم وحلاً مزعجًا تغوص فيه أقدامهم وأقدام بعيرهم؛ مما أعاقهم وأخَّرهم، وتقدَّم النبي ﷺ بجيشه حتى نزل بأقرب ماء من القوم، وأمر ببناء حوض يُمْلأ ماء لجيشه؛ كما أمر بأن يغوَّر ما وراءه من الآبار؛ حتى ينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين، وبُنِيَ للنبي ﷺ عريشًا فوق تلٍّ مشرف على ميدان القتال.

المعركة

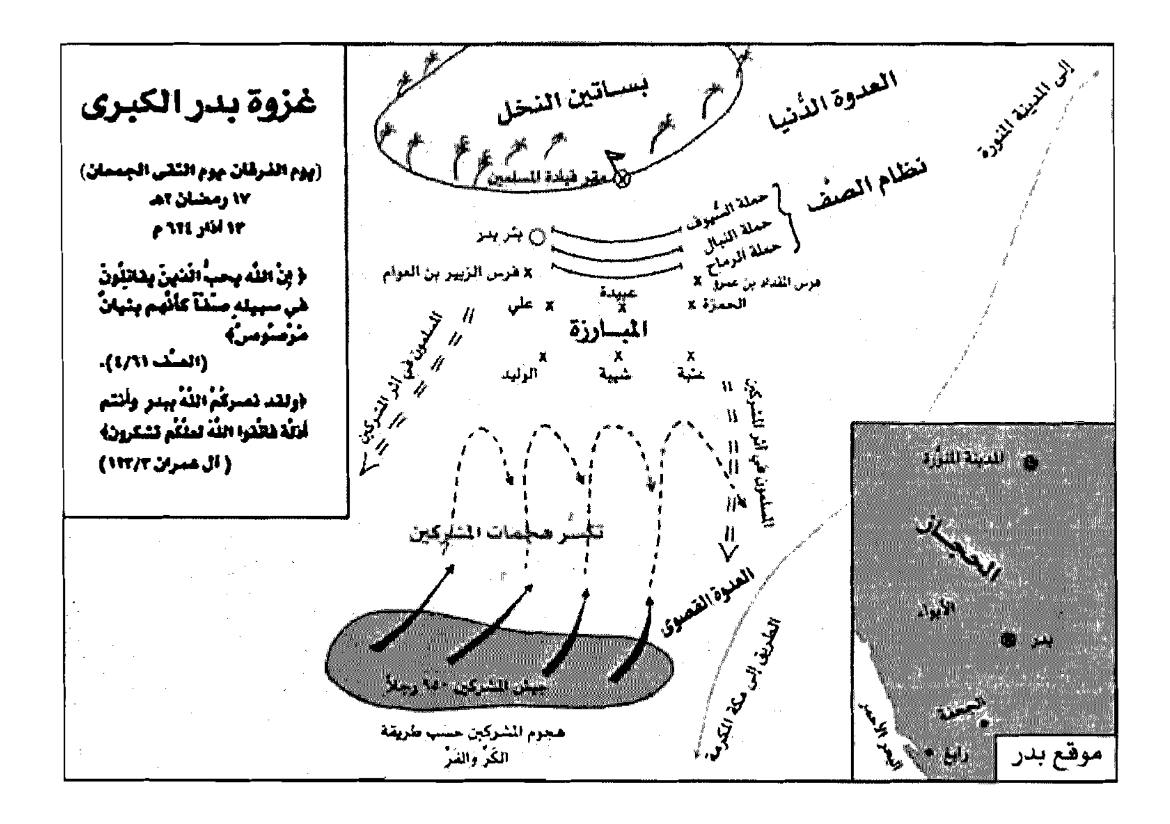
ما أن تراءى الجيشان -وكان ذلك في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة- حتى قام النبي ﷺ بتعديل صفوف جيشه؛ حتى صاروا كأنهم بنيان مرصوص، ونظر لقريش فقال: «**اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بَخُيَلَائِهَا وَفَخرِهَا تُحَادّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ فَأَحِنْهُمُ[(١)] الْغَدَاةَ**»[(٢)].

ثم برز ثلاثة من صفوف المشركين؛ وهم: عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شيبة، وطلبوا مَنْ يخرج إليهم، فبرز لهم ثلاثة من الأنصار، فقال المشركون: إنما نطلب أكفاءنا من بني عَمِّنا (أي: القرشيين)، فبرز لهم حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، فكان حمزة بإزاء شيبة وكان عبيدة بإزاء عتبة وكان عليٌّ بإزاء الوليد؛ فأما حمزة وعليٌّ فقد أجهز كل منهما على مبارزه، وأما عبيدة فقد ضرب صاحبه ضربة لم تمته، وضربه صاحبه مثلها، فجاء عليٌّ وحمزة فأجهزا على مبارز عبيدة، وحملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين، وقد مات من آثار جراحه ﷺ.

---

(١) أحنهم؛ أي: أهلكهم. ابن منظور: لسان العرب، مادة حين ١٣/ ١٣٣.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٦٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤٠٤.



وتقابل الجيشان، وكانت خطة المسلمين على ما أشار عليهم رسول الله ﷺ؛ أن لا يبدءوا القتال حتى يحيط بهم الكفار، عندها يظهر الرماة المختبئون على التلال المحيطة بمكان المعركة، ويرمون ظهور الكفار برماحهم، وهكذا كان.

واقتتل الناس قتالاً شديدًا وتضاربت السيوف ولمعت الرماح، وتطاير الغبار، وعلت التكبيرات الصادحة، وقد أحاط المسلمون بتلال مطلَّة على بركة ماء كبيرة في بدر، وجاءها الكفار ليشربوا منها، فصار المسلمون يصطادونهم الواحد تلو الآخر.

وكان المدد الكبير؛ فقد أمدَّ الله تعالى المسلمين بملائكة النصر، فلم تكن إلاَّ ساعة حتى انهزم المشركون وولوا الأدبار، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتلوا منهم سبعين رجلاً وأسروا سبعين، ومن بين القتلى كثير من صناديدهم.

بعد المعركة

ولما انتهت الموقعة أمر عليه الصلاة والسلام بدفن الشهداء من المسلمين، ولم يستشهد من المسلمين سوى أربعة عشر رجلاً ﷺ.

وبعد أن انتهى القتال في بدر ودُفن الشهداء والقتلى؛ أمر رسول الله ﷺ بجمع الغنائم فجُمِعت، وأرسل مَنْ يُبَشِّر أهل المدينة بالنصر، ثم عاد عليه الصلاة والسلام بالغنائم والأسرى إلى المدينة، فقسَّم الغنائم بين المجاهدين، وحفظ لورثة الشهداء أسهمهم، وأما الأسرى فرأى بعد أن استشار أصحابه فيهم أن يستبقيهم ويقبل الفداء من قريش عمَّن تُريد فداءه، فبعثت قريش بالمال لفداء أسراهم، فكان فداء الرجل من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم بحسب منزلته فيهم، ومَنْ لم يكن معه فداء وهو يُحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المسلمين يُعَلِّمهم؛ فكان ذلك فداءه.

ومن قتلى قريش: أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة، والجرَّاح والد أبي عبيدة، قتله ابنه أبو عبيدة بعد أن ابتعد عنه، وأما شهداء بدر الأربعة عشر فمنهم ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار[1].

وهذه الغزوة الكبرى -التي انتصر فيها المسلمون ذلك الانتصار الباهر، مع قلة عَددهم وعُدتهم، وكثرة عدد العدوِّ وعُدده- من الأدلة الكبرى على عناية الله تعالى بالمسلمين صادقي العزيمة، الممتلئة قلوبهم طمأنينة بالله تعالى وثقة بما وعدهم على لسان رسوله ﷺ من الفوز والنصر.

ولقد دخل بسببها الرعب في قلوب كافة العرب؛ فكانت للمسلمين عزًّا وهيبة وقوَّة، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) ابن هشام ١/ ٧٠٧، معرفة الصحابة ١٦/ ٢٦٥، زاد المعاد ٣/ ١٦٠.

معركة أحد

التاريخ	٣هـ/ ٦٢٥ م	
المكان	أحد – المدينة المنورة	
النتيجة	انتصار عسكري لأهل مكة	
المتحاربون	المسلمون	قريش وبعض من تهامة وكنانة
القادة	النبي ﷺ	أبو سفيان بن حرب
القوى والحشود	٧٠٠	٣٠٠٠
الخسائر	٧٥ شهيدًا	٢٢ قتيلاً

غزوة أحد وقعت في يوم السبت السابع من شوال في السنة الثالثة للهجرة والتي تصادف ٢٣ مارس ٦٢٥م، بين المسلمين في المدينة بقيادة النبي ﷺ، وبين أهل مكة وأحابيشها ومَنْ أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة.

تمكَّن جيش أبي سفيان من تحقيق نصر عسكري بواسطة هجمة مرتدة سريعة بعد نصر أولي مؤقَّت للمسلمين، الذين انشغل رماتهم بجمع الغنائم، وتركوا مواقعهم الدفاعية التي تمَّ التخطيط لها قبل المعركة.

قبل المعركة

شعرت قريش بمرارة الهزيمة التي لقيتها في حربها مع المسلمين في بدر، وأرادت أن تثأر لهزيمتها؛ حيث استعدَّت لملاقاة المسلمين مرَّة أخرى ليوم تمحو عنها غبار الهزيمة.

ذهب صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن ربيعة إلى أبي سفيان يطلبون منه مال القافلة؛ ليتمكَّنوا من تجهيز الجيش، ولقد كان ربح القافلة ما يقارب الخمسين ألف دينار، فوافق أبو سفيان على قتال المسلمين، وراحوا يبعثون المحرِّضين إلى القبائل لتحريض الرجال. وبعد سنة من هزيمة بدر استطاعت مكة أن تجمع ٣٠٠٠ مقاتل من قريش والحلفاء

والأحابيش، ووصل الجيش إلى جبل أحد في مكان يقال له عينين[١]، فعسكر هناك يوم الجمعة ٦ شوال سنة ٣هـ، ولما بلغت الأنباء المسلمين فرح بعضهم، وخاصة مَنْ لم يخرج منهم إلى معركة بدر ولم يُصب مغنمًا، وقال بعض المسلمين الذين فاتتهم بدر: «يا رسول الله؛ اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّا جَبُنَّا عنهم وضعفنا». وكان بعض المسلمين ومنهم المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول يرغبون بالبقاء بالمدينة والدفاع عنها، وكان هذا الرأي مطابقًا لرأي الرسول ﷺ، الذي فضَّل ألاَّ يخرجوا من المدينة؛ بل يتحصَّنُوا بها؛ فقد رأى رسول الله ﷺ في منامه أن في سيفه ثلمة، وأن بقرًا له تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة، فتأولها أن نفرًا من أصحابه يُقتلون، وأن رجلاً من أهل بيته يُصاب، وأن الدرع الحصينة المدينة[٢]، فأشار رسول الله ﷺ على أصحابه أن لا يخرجوا إليهم، وأن يتحصَّنوا بالمدينة، فإن قربوا منها قاتلوهم على أفواه الأزقَّة، ووافق رسولَ الله ﷺ على هذا الرأي عَبْدُ الله بن أبي ابن سلول، وأبى أكثر الأنصار إلا الخروج إليهم؛ ليُكرم الله مَنْ شاء منهم بالشهادة، فلما رأى النبي ﷺ عزيمتهم دخل بيته، فلبس لأْمَتَهُ وخرج، وذلك يوم الجمعة، وندم قوم من الذين ألحُّوا في الخروج، وقالوا: «يا رسول الله؛ إن شئت فارجع». فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**»[٣]. فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه، واستعمل ابنَ أم مكتوم على الصلاة لمن بقي بالمدينة من المسلمين.

ولكن عبد الله بن أبي ابن سلول -وهو سيد الخزرج ورئيس من أسماهم المسلمون بالمنافقين- قرَّر أن يعود بأتباعه إلى المدينة، قائلاً: «ما ندري علام نقتل أنفسنا؟» وكانوا واستنادًا إلى سيرة الحلبي ٣٠٠ مقاتل.

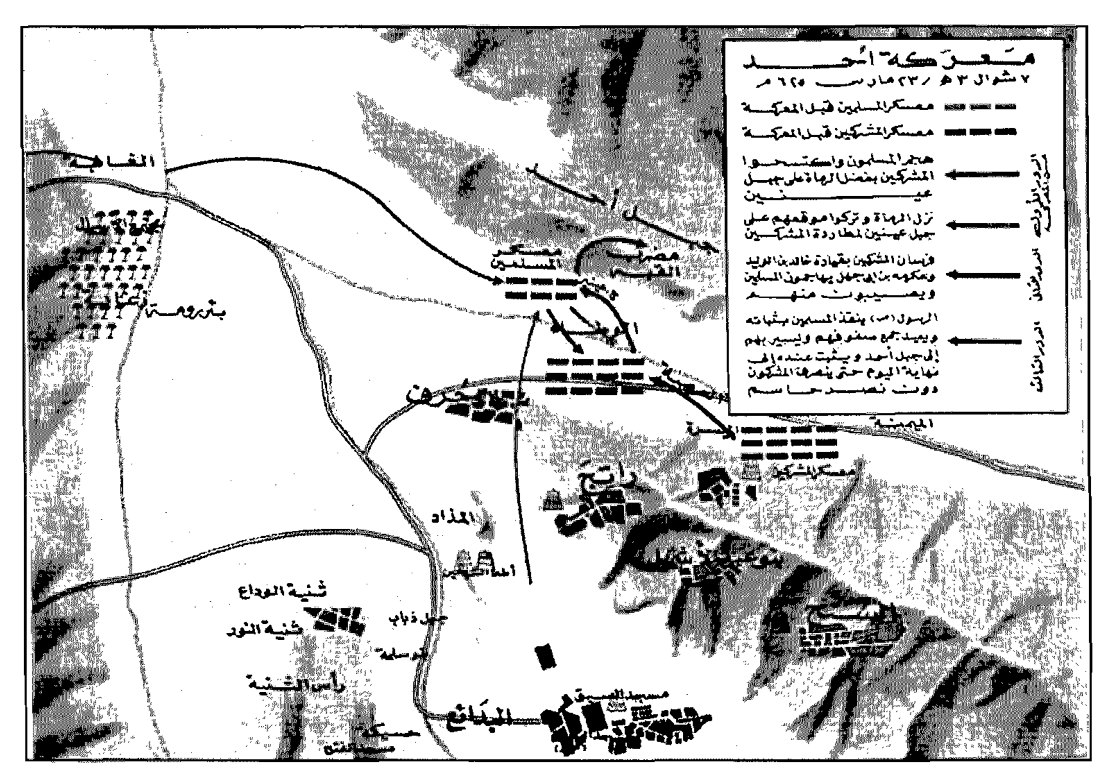
أدرك المسلمون الشعب من جبل أحد، فعسكر الجيش مستقبلاً المدينة وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد، واختار الرسول فصيلة من الرماة المهرة، قوامها خمسون مقاتلاً، وجعل

(١) عينين: هضبة جبل أحد، وقيل: عينين جبل من جبال أحد بينهما واد. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ١٧٤.

(٢) انظر الحديث بروايات مختلفة عند النسائي (٧٦٤٧)، وأحمد (٢٤٤٥) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. والدارمي: (٢١٥٩) وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم (٢٥٨٨)، والبيهقي: السنن الكبرى (١٣٠٦١).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٤٨٢٩)، وقال شعيب الأرناءوط: صحيح لغيره وهذا إسناد على شرط مسلم. وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٦/ ١٥٢.

قائدهم عبد الله بن جبير بن النعمان، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي مناة، وقال لهم الرسول ﷺ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»[1]. وأمر عبدَ الله بن جبير بأن ينضح المشركين بالنبل؛ لئلاً يأتوا المسلمين من ورائهم.



وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة، وقيل: إن المشركين كانوا في ثلاثة آلاف؛ فيهم مائتا فارس. وقيل: كان في المسلمين يومئذٍ خمسون فارسًا، وكان رماة المسلمين خمسين رجلاً. ودفع النبي ﷺ اللواء إلى مصعب بن عمير أحد بني عَبْد الدار. وجعلت قريش على ميمنتهم في الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم في الخيل عكرمة بن أبي جهل.

وقائع المعركة

وبدأت المعركة وحقق المسلمون النصر في البداية، وظنُّوا أن المعركة قد انتهت فانشغلوا

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، (٢٨٧٤)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والنسائي (١١٠٧٩)، وأحمد (١٨٦١٦).

بجمع الغنائم التي خلفها المشركون المنهزمون، وفي الوقت نفسه خالف الرماة الذين فوق الجبل أمر النبي ﷺ؛ فتركوا مواقعهم ونزلوا؛ ليكون لهم نصيب في جمع الغنائم، وقال بعضهم: «ما لنا في الوقوف حاجة». ونسوا وصية الرسول ﷺ لهم، فذَكَّرهم قائدهم بها، فلم يكترثوا بمقولته، وسارعوا إلى جمع الغنائم، لاحظ خالد بن الوليد نزول الرماة، فانطلق مع بعض المشركين والتفوا حول الجبل، وفاجئوا المسلمين من الخلف، ففزع المسلمون وهرعوا مسرعين هاربين، وارتفعت راية المشركين، فلما رآها جيش المشركين عاودوا هجومهم، ولقد رمى أحد المشركين حجرًا نحو الرسول ﷺ فكُسرت رباعيته ﷺ، كما أنه وقع في حفرة كان أبو عامر الراهب قد حفرها ثم غطاها بالقش والتراب، فشج رأس النبي ﷺ، وأخذ يمسح الدم قائلاً: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ**»[١].

بعد المعركة

انتهت المعركة بأخذ قريش ثأرها فقد قتلوا ٧٠ مسلمًا بسبعين مقاتلاً من مكة يوم معركة بدر، وأسروا ٧٠ مسلمًا، وهو عدد مطابق لأسرى مكة يوم بدر، وفي سورة آل عمران إشارة إلى هذا حيث تنص الآية (١٦٥): ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، وكانت خسائر قريش حوالي ٢٣ مقاتلاً.

وبعد ٣ أيام من هزيمة أُحُد وبالتحديد في ليلة ١٠ شوال خرجت قوة من المسلمين وعلى رأسهم النبي ﷺ في غزوة حمراء الأسد؛ حتى يُواجهوا جيش أبو سفيان العائد إلى مكة، ويرى المؤرخون في هذه الحركة معاني عميقة حاول النبي ﷺ إيصالها؛ ومنها:

١- محاولة لعلاج الجانب النفسي من الجيش المنهار؛ حيث طلب النبي ﷺ وبالتحديد من المسلمين الذين قاتلوا في أحد فقط أن يخرجوا معه، وكان معظم مَنْ خرج وعلى رأسهم الرسول جرحى، فكان الرسول ﷺ مجروحًا في الوجه والشفة السفلى والركبتين.

٢-إرسال إشارة إلى مكة مفاده أن هزيمة أحد لم تُوقع الوهن في صفوف المسلمين.

٣- إرسال إشارة إلى الحركات المعارضة داخل يثرب أن القيادة المركزية ما زالت

---

(١) رواه النسائي في سننه الكبرى (١١٠٧٧)، وابن ماجه (٤٠٢٧)، وأحمد (١٢٨٥٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

متحكمة في زمام الأمور.

أسباب الهزيمة

١- مخالفة بعض المسلمين أوامر قائدهم في المعركة أثَّرت على الجيش كله؛ كما حدث مع الرماة عندما تركوا مواقعهم دون إذن النبي ﷺ قائد الجيش.

٢- عدم ترسُّخ مبادئ الأمة الإسلامية الواحدة في مجتمع يثرب؛ حيث إن بعض المسلمين خرجوا إلى أحد لأخذ ثأر قديم من مسلم آخر، ويذكر السهيلي الحارث بن سويد بن الصامت، الذي كان يُريد الثأر من المجذر بن زياد الذي قتل أباه في حرب الأوس والخزرج[1]، ولم يقتصر الأمر على الأنصار؛ بل إن مجموعة من المهاجرين استسلموا بعد سماعهم بصرخة مقتل الرسول ﷺ.

٣- من مصلحة الإسلام والدولة الإسلامية الأولى أن تصاب برجَّات عنيفة تعزل خَبَثها عنها، وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التمحيص في أحد. ﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ**﴾ [آل عمران: ١٧٩]. فمعركة أحد ميَّزت المنافقين الموجودون بالمدينة عن المؤمنين؛ فقد سقط ما كان يتمتع به عبد الله بن أبي ابن سلول من سيادة، فعندما حاول أن ينصح أتباعه في صلاة الجمعة بطاعة النبي ﷺ أخذ المسلمون بثوبه، وقالوا له: «اجلس عدو الله، لست لذلك بأهل».

***

(١) السهيلي: الروض الأنف ٣/ ٥٢، ٤/ ٢٠٩، ٦/ ١٣.

معركة الخندق

التاريخ	٥ هـ/ ٦٢٧ م	
المكان	المدينة المنورة	
النتيجة	فك الحصار عن المدينة وانسحاب الأحزاب	
المتحاربون	المسلمون	قريش وحلفاؤهم من كنانة وسليم وقبائل غطفان وأهل تهامة وكان بنو النضير ممن ألَّب هذه الجموع.
القادة	رسول الله ﷺ على المهاجرين والأنصار	أبو سفيان بن حرب القرشي على كنانة عيينة بن حصن الفزاري على فزارة الحارث بن عوف المري على مرة مسعر بن رخيلة الأشجعي على أشجع
القوى والحشود	٣ آلاف مقاتل	١٠ آلاف مقاتل
الخسائر	٤ شهداء	قتيلان

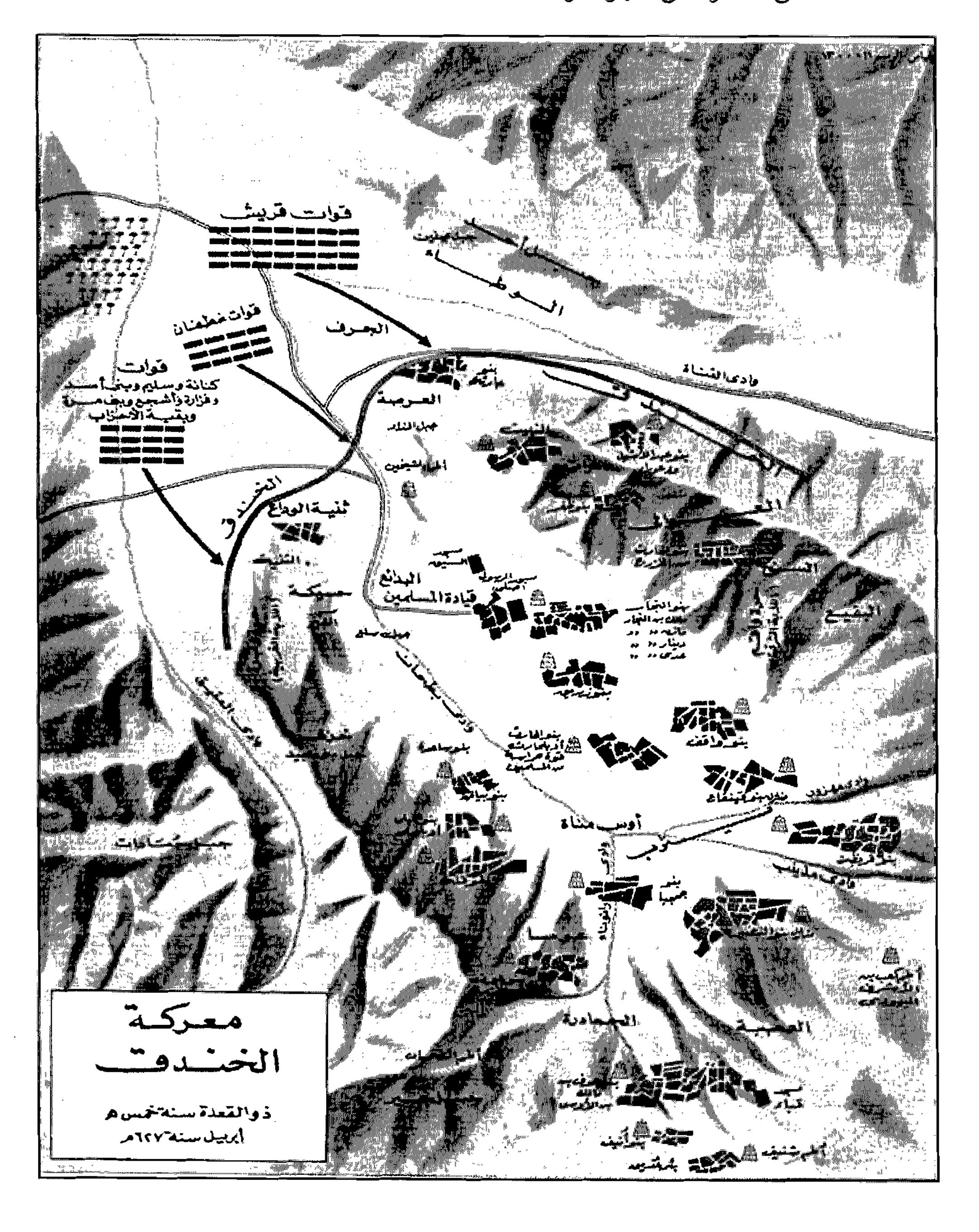
غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق هي معركة وقعت في العام الخامس للهجرة بين المسلمين وبين قريش وأنصارها من غطفان وكنانة، انتهت بنصر المسلمين وفك الحصار عن المدينة وانسحاب الأحزاب.

الأسباب

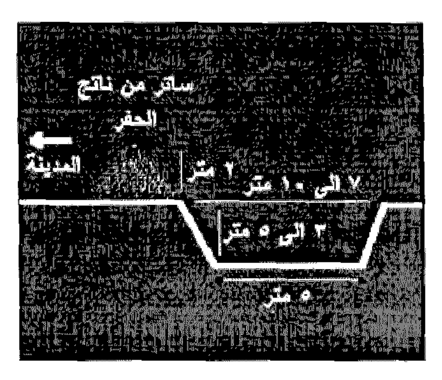
بعد أن أجلى الرسول ﷺ بني النضير وهم قسم من يهود المدينة وساروا إلى خيبر، ذهب نفر من اليهود إلى مكة؛ منهم: كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وحيي بن أخطب النضريون، وهوذة بن قيس، وأبو عمار من بني وائل، وهم كلهم يهود، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب وألَّبوا وجمَّعوا، خرجوا في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل فأتوا مكة، فدعوا قريشًا إلى حرب رسول الله ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم بعون مَنِ انتُدِبَ إلى ذلك، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ذلك،

فأجابوهم، فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري على فزارة، والحارث بن عوف المري على بني مرة، ومسعود بن رخيلة على أشجع.

وهكذا انطلق جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل يقودهم أبو سفيان بن حرب، وذلك في السنة الخامسة من الهجرة من شهر شوال.



حفر الخندق



لما علم الرسول الكريم ﷺ بالأمر، استشار أصحابه وقادته في الحرب، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق في مشارف المدينة، فاستحسن الرسول والصحابة رأيه، وعملوا به، كما أن يهود بني قريظة مدُّوا لهم يد المساعدة من معاول ومكاتل بموجب العهد المكتوب بين الطرفين.

كان الرسول ﷺ وأصحابه يتفقدون سير العمل، فوجدوا صخرة كبيرة كانت عائقًا أمام سلمان الفارسي؛ حيث كسرت المعاول الحديدية، فتقدَّم الرسول الكريم من الصخرة، وقال: «بِاسْمِ الله». فضربها فتصدَّعت وبرقت منها برقة مضيئة فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، فُتِحَ قَيْصَرُ، وَالله إِنِّي لأَرَى الْقُصُورَ الحُمْرَ**». ثم ضرب الثانية فقطع منها الثلث الثاني، وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، فُتِحَ كِسْرَى، وَالله إِنِّي لأَرَى الْقُصُورَ الْبِيضَ**». ثم ضرب الثالثة فقطع الثلث الباقي، وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، فُتِحَ الْيَمَنُ، وَالله إِنِّي لأَرَى بَابَ صَنْعَاءَ**». وقد نصر الله عبده، وصدق وعده، والحمد لله رب العالمين، فلما فرغ رسول الله ﷺ أقبلت قريش في نحو عشرة آلاف بمَنْ معهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان بمَنْ معها من أهل نجد، حتى نزلوا إلى جانب أُحُد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى نزلوا بظهر سلع في ثلاثة آلاف، وضربوا عسكرهم، والخندق بينهم وبين المشركين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

نقض العهد من بني قريظة

لم يجد المشركون سبيلاً للدخول إلى المدينة، وبقوا ينتظرون أيامًا وليالى يقابلون المسلمين من غير تحرُّك.

خرج عدو الله حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد القرظي، وكان صاحب عقد بني قريظة ورئيسهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ وعاقده وعاهده، إلا أن حيي بن أخطب أقنعه بفسخ الاتفاقية بين بني قريظة والمسلمين.

فلما انتهى خبر كعب وحيي إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، بعث سعدَ بن عبادة وهو سيد الخزرج، وسيد الأوس سعد بن معاذ، وبعث معهما عبدَ الله بن رواحة، وخوَّات بن جبير،

وقال لهم رسول الله ﷺ: «انْطَلِقُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنْ كَانَ مَا قِيلَ لَنَا حَقًّا، فَالْحَنُوا لَنَا لَحْنًا نَعْرِفُهُ، وَلا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا، فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ». فانطلقوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: «لا عهد له عندنا». فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكانت فيه حدَّة، فقال له سعد بن عبادة: «دع عنك مشاتمتهم، فالذي بيننا وبينهم أكبر من المشاتمة». ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله ﷺ في جماعة المسلمين، فقالا: «عضل والقارة». يقصدان بغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيبٍ وأصحابِه، فقال رسول الله ﷺ: «أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ». وعظم عند ذلك البلاء، واشتدَّ الخوف، وأتى المسلمين عدُوُّهُمْ من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظنُّوا بالله الظنون، وهكذا أُحيط المسلمون بالمشركين من كل حدب وصوب، إلا أن الرسول ﷺ وأصحابه لم ييأسوا من روح الله؛ لأنهم كانوا على يقين بأن عين الله ترعاهم.

موقف المنافقين

وأظهر المنافقون كثيرًا مما كانوا يُسِرُّون؛ فمنهم مَنْ قال: إن بيوتنا عورة فلننصرف إليها، فإنا نخاف عليها. ومنهم مَنْ قال: يَعِدُنا محمد أن نفتح كنز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

المناوشات

وأقام رسول الله ﷺ، وأقام المشركون بضعًا وعشرين ليلة قريبًا من شهر لم يكن بينهم حرب إلاَّ الرمي بالنبل والحصا، إلاَّ أن فوارس من قريش -منهم: عمرو بن عَبْد ود العامري من بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب الفهري، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم- أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: «إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها». ثم اختاروا مكانًا ضيقًا من الخندق، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، وصاروا بين الخندق وبين سلع، وخرج علي بن أبي طالب ﷺ في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها، وأقبلت الفرسان نحوهم، وكان عمرو بن عَبْد ود قد أثبتته الجراح يوم بدر فلم يشهد أُحُدًا، وأراد يوم الخندق أن يرى مكانه، فلما وقف هو وخيله نادى: هل من مبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب ﷺ، وقال له: يا عمرو؛ إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدْعَى إلى إحدى خلتين إلا أخذت إحداهما؟ قال: نعم. فقال: إني أدعوك لله ﷻ والإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. قال: وأدعوك إلى البراز. قال: يا

ابن أخي؛ والله! ما أحبُّ أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك. فقال له علي: أنا والله أحبُّ أن أقتلك. فحمي عمرو بن عَبْد ود العامري، ونزل عن فرسه، وسار نحو علي فتنازلا، وتجاولا، وثار الغبار بينهما حتى حال دونهما، فما انجلى الغبار حتى رُؤي عليٌّ على صدر عمرو يقطع رأسه، فلما رأى أصحابه أنه قد قتله عليٌّ، اقتحموا بخيلهم الثغرة منهزمين هاربين، وقال علي ﷺ في ذلك:

نَصَرَ الحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ ... وَنَصَرْتُ دِيـــنَ مُحَمَّـــدٍ بِضِرَابِ

لا تَحْسَـــبُنَّ اللهَ خَـــاذِلَ دِينِـــهِ ... وَنَبِيِّـــهِ يَـــا مَـــعْشَرَ الأَحْـــزَابِ

نَازَلْتُـــهُ وَتَرَكْتُـــهُ مُتَجَـــدِّلاً[١] ... كَالجِذْعِ بَـيْنَ دَكَـادِكٍ[٢] وَرَوَابِي[٣]

ورُمي يومئذٍ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل.

الوقيعة

أتى رسولَ الله ﷺ نعيمُ بن مسعود بن عامر الأشجعي، فقال: يا رسول الله؛ إني قد أسلمتُ، ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بها شئت. فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ غَطَفَانَ، فَلَوْ خَرَجْتَ فَخَذَّلْتَ عَنَّا، كَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ بَقَائِكَ؛ فَاخْرُجْ فَإِنَّ الحَرْبَ خُدْعَةٌ**»[٤]. ونجح نعيم بن مسعود -دون أن يعلم الأحزاب بإسلامه- في التفريق بين الأحزاب وبين يهود بني قريظة، وزرع الشكوك في قلوبهما، ثم أرسل الله ريحًا شديدة قلعت خيام المشركين وكفأت قدورهم، وانقلب الموقف كله بفضل الله تعالى.

النصر

أدرك أبو سفيان بن حرب قائد الأحزاب أنه لا فائدة من البقاء، فأمر الأحزاب بالرحيل، والعودة من حيث جاءوا، وبعد رحيل الأحزاب قال النبي ﷺ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ**

---

(١) متجدِّلاً؛ أي: صريعًا مُلقىً على الأرض قَتيلاً. ابن منظور: لسان العرب، مادة (جدل) ١١/ ١٠٣.

(٢) دكادك؛ جمع الدكداك والدكدك: وهو أرض فيها غلظ ورمل ذو تراب متلبد. ابن منظور: لسان العرب، مادة (دكك) ١٠/ ٤٢٤، المعجم الوسيط ١/ ٢٩١.

(٣) الروابي جمع رابية: وهي كلُّ ما ارتفع من الأرض، أو ما أشرف من الرمل مثل الدَّكْداكة، غير أنها أشدُّ منها إِشْرافًا، وهي أسهل منها. ابن منظور: لسان العرب، مادة (ربا) ١٤/ ٣٠٤.

(٤) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٨٦.

يَغْزُونَنَا»[١]. أي أن «قريشًا» لن تستطيع مهاجمة «المدينة» مرَّة أخرى.

بعد انتهاء غزوة الخندق تقدَّم النبي ﷺ وحاصر بجيشه يهود بني قريظة لخيانتهم للعهد واتفاقهم مع المشركين، وبعد أكثر من عشرين يومًا طلبوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، وكان حليفهم، فحكم بقتل الرجال جزاء غدرهم وخيانتهم، وحين قضى «سعد» بهذا الحكم قال له الرسول ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الله»[٢]. أمر النبي ﷺ بتنفيذ الحكم، واستثنى من ذلك مَنِ اختار الدخول في الإسلام، وهكذا، لم تكن غزوة الأحزاب هذه معركة ميدانية وساحة حرب فعلية؛ بل كانت معركة أعصاب وامتحان نفوس واختبار قلوب؛ لذلك أخفق المنافقون ونجح المؤمنون في هذا الابتلاء.

* * *

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، (٣٨٨٤)، وأحمد (١٨٣٣٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٦٤٩٩).

(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، (٢٨٧٨)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل، (١٧٦٨).

فتح مكة

فتح مكة هو حدث تاريخي تمَّ فيه فتح مدينة مكة على يد النبي ﷺ في (٢٠ رمضان ٨هـ/ ٦٣٠م)، وذلك بعد أن هاجر منها، وقد كانت هجرته للمدينة نواة لتأسيس دولته والعمل على العودة لمكة مجدَّدًا.

أسباب الفتح

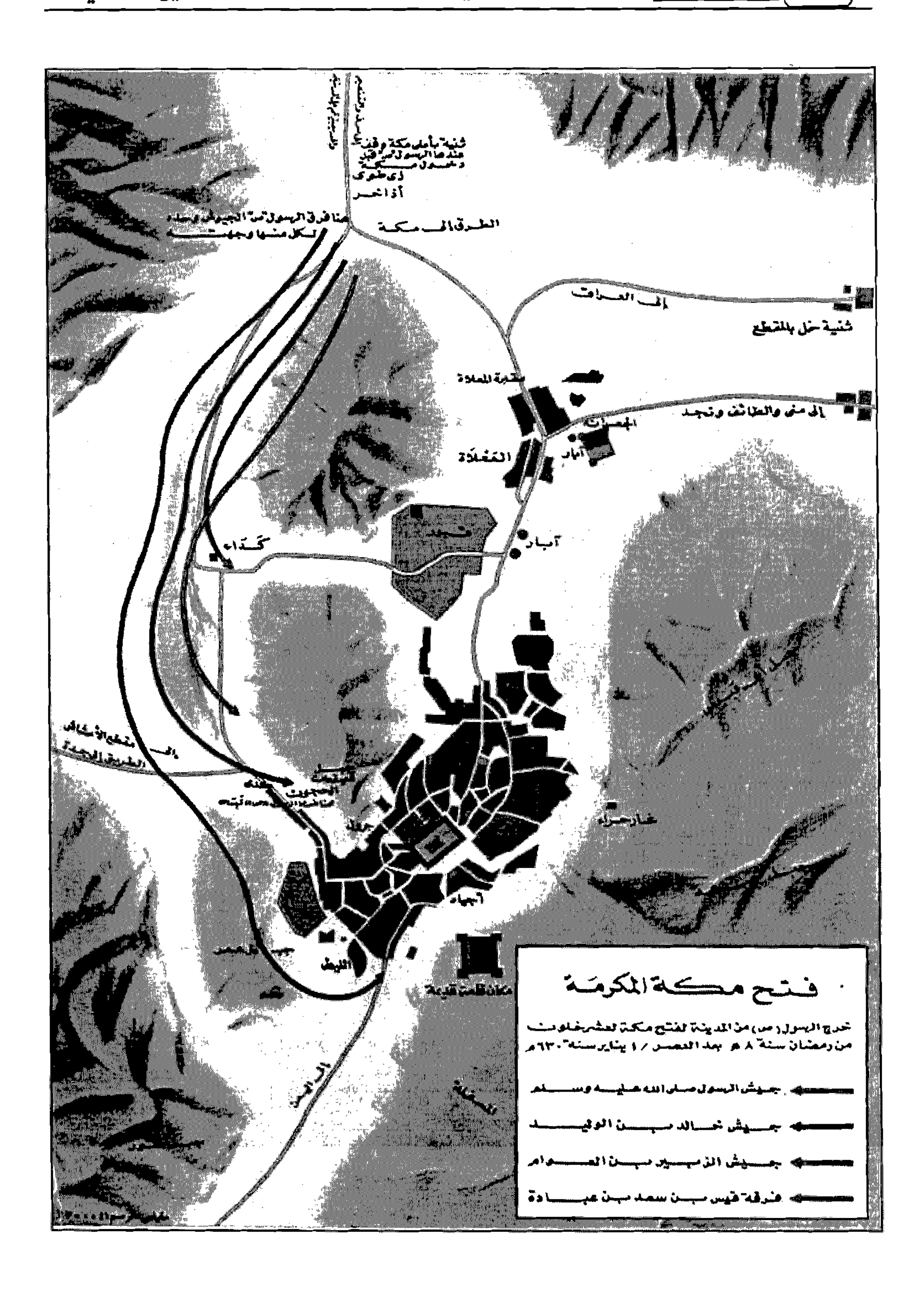
لما كان من بنود صلح الحديبية أن مَنْ أراد الدخول في حلف المسلمين دخل، ومَنْ أراد الدخول في حلف قريش دخل، دخلت قبيلة خزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وقد كانت بين القبيلتين حروب وثأر قديم، فأراد بنو بكر أن يُصيبوا من خزاعة الثأر القديم، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح والرجال، فأغاروا عليها ليلاً، وقتلوا منهم نحو عشرين رجلاً، ودخلت خزاعة الحرم للنجاة بنفسها، ولكن بني بكرٍ لاحقوهم وقتلوا منهم في الحرم، فأسرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، وأخبر النبي ﷺ بغدر قريش وحلفائها.

وأرادت قريش تفادي الأمر، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة لتجديد الصلح مع المسلمين، ولكن دون جدوى؛ حيث أمر رسول الله المسلمين بالاستعداد، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، كما أمر بكتم الأمر عن قريش من أجل مباغتتها في دارها.

الاستعداد

قام الرسول ﷺ بتجهيز الجيش للخروج إلى مكة فحضرت جموع كبيرة من قبائل جهينة وبني غفار ومزينة وأسد وقيس وبني سليم والأنصار والمهاجرين، وقد دعا الرسول ﷺ الله قائلاً: « **اللَّهُمَّ خُذِ الْعُيُونَ وَالأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى نَبْغَتَهَا فِي بِلادِهَا**»[1].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٥/ ٥٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٣٥.


فتح مكة المكرمة
خرج الرسول (ص) من المدينة لفتح مكة لعشر خلون من رمضان سنة ٨ هـ بعد العصر / ١ يناير سنة ٦٣٠م
جيش الرسول صلى الله عليه وسلم
جيش خالد بن الوليد
جيش الزبير بن العوام
فرقة قيس بن سعد بن عبادة
ذي طوى
أذاخر
الطرق الى مكة
إلى العراق
مقبرة المعلاة
إلى منى والطائف ونجد
المعلاة
آبار
كداء
غار حراء
أجياد

وقام حاطب بن أبي بلتعة بكتابة كتاب بعث به إلى قريشٍ مع امرأة؛ يُخبرهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ، وأمرها أن تُخفي الخطاب في ضفائر شعرها؛ حتى لا يراها أحدٌ، فإذا الوحي ينزل على رسول الله ﷺ بما صنع حاطب، فبعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ليلحقا بالمرأة، وتمَّ القبض عليها قبل أن تبلغ مكة، وعثرا على الرسالة في ضفائر شعرها.

فلما عاتب النبي ﷺ حاطبًا اعتذر أنه لم يفعل ذلك ارتدادًا عن دينه، ولكنه خاف -إن فشل رسول الله ﷺ- على أهله الذين يعيشون في مكة.

فقال عمر: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق». فقال رسول الله ﷺ: **«إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**(١). وكان حاطب ممن حارب مع رسول الله في غزوة بدر، فعفا عنه.

مغادرة الجيش المدينة

في رمضان من السنة الثامنة للهجرة غادر الجيش الإسلامي المدينة إلى مكة، في عشرة آلاف من الصحابة بقيادة النبي ﷺ، بعد أن استخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وصلوا مر الظهران قريبًا من مكة، فنصبوا خيامهم، وأشعلوا عشرة آلاف شعلة نار، فأضاءت الوادي، ولما كان بالجحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، وركب العباس بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، يبحث عن أحد يُبَلِّغ قريشًا؛ لكي تطلب الأمان من رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكة، وهناك تقابل العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان، فأخذه العباس بن عبد المطلب إلى الرسول ﷺ، وبعد حوارٍ طويلٍ دخل أبو سفيان في الإسلام. وقال العباس: «إن أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئًا». فقال الرسول ﷺ: **«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»**(٢).

الفتح

أراد النبي ﷺ أن يُرِي أبا سفيان قوة المسلمين؛ حتى لا تُحَدِّثه نفسه بقتال المسلمين،

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، (٤٠٢٥).

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، (١٧٨٠)، وأبو داود (٣٠٢١)، والنسائي (١١٢٩٨)، وأحمد (٧٩٠٩).

فحبسه عند مضيق الجبل، ومرَّت القبائل على راياتها، ثم مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فقال أبو سفيان: «ما لأحدٍ بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة».

ثم رجع أبو سفيان مسرعًا إلى مكة، ونادى بأعلى صوته: «يا معشر قريش؛ هذا محمدٌ قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمَنْ دخل داري فهو آمن، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن». فهرع الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وأغلقوا الأبواب عليهم وهم ينظرون من شقوقها وثقوبها إلى جيش المسلمين، وقد دخل مرفوع الجباه، ودخل جيش المسلمين مكة في صباح يوم الجمعة الموافق عشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

دخل الجيش الإسلامي كل حسب موضعه ومهامه، وانهزم مَنْ أراد المقاومة من قريش، ودخل رسول الله ﷺ مكة من أعلاها وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، واستسلمت مكة، وأخذ المسلمون يهتفون في جنبات مكة، وأصواتهم تشق عناء السماء: الله أكبر.. الله أكبر. وتوجَّه رسول الله ﷺ إلى الحرم، وطاف بالكعبة، وأمر بتحطيم الأصنام المصفوفة حولها، وكان عددها ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها ويقول: ﴿**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١].

ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففُتحت وصَلَّى بها، ثم خرج وقريش صفوفًا ينتظرون ما يصنع، فقال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟**». قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ:** ﴿**لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾ [يوسف: ٩٢] **اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[1]. وأعاد المفتاح لعثمان بن طلحة، ثم أمر بلالاً أن يصعد الكعبة فيؤذن، فما أجمل العفو عند المقدرة! وما أحلى التسامح والبعد عن الانتقام! ولننظر ما فعل الغالبون بالمغلوبين في الحربين العالميتين في قرننا هذا، قرن الحضارة كما يقولون، لنعلم الفارق ما بين الإسلام والكفر.

بعد الفتح

في اليوم الثاني للفتح قام رسول الله ﷺ، وألقى خطبته المشهورة؛ وفيها: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ**

(١) البيهقي: السنن الكبرى (١٨٧٣٩)، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٥٦، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٧٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٧٠، وابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨.

مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحْلِلْ لِي قَطُّ إِلَّا سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ، لَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَلَا تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ»[1].

بايع الناس رسول الله، فجاءه الناس الصغار والكبار، والرجال والنساء، فبايعوه على الإيمان، وشهادة أن لا إله إلا الله، ولما فرغ النبي ﷺ من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا، وعمر بن الخطاب قاعد أسفل منه، فبايعهن عنه، وبايعهن على أن لا يُشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه في معروف.

وهكذا ارتفعت راية الإسلام في مكة وما حولها، وراح الناس ينعمون بتوحيد الله.

* * *

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب من شهد الفتح، (٤٠٥٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، (١٣٥٣).

معركة حُنين

التاريخ	٨هـ/ ٦٣٠ م	
المكان	وادي حنين، بجوار الطائف في الجنوب -الغربي لشبه الجزيرة العربية	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	المسلمون	قبيلتي هوازن وثقيف العربيتان
القادة	النبي ﷺ	مالك بن عوف
القوى والحشود	٢٠ ألف	غير معروف
الخسائر	جماعة من المسلمين	٧٠ رجلاً

غزوة حُنين وقعة قامت بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف العربيتين (اللتان ما زالتا تقيمان في الطائف وأجزاء من مكة) في وادي حُنين بين مكة والطائف، حيث انتصر المسلمون عليهم.

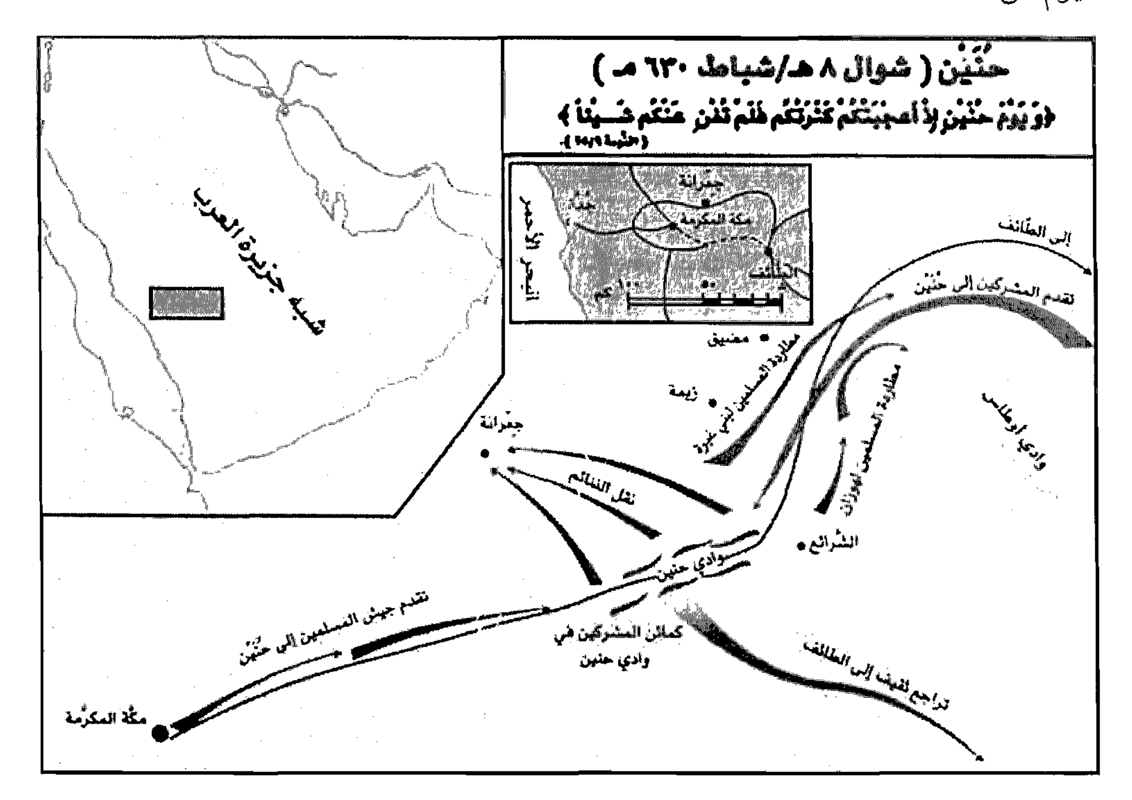
أسباب الغزوة

كان لفتح مكة في رمضان سنة (٨هـ) وبهذه الصورة القوية والمباغتة أثر بالغ في تحريك ضغائن القبائل العربية المنافسة لمضر عمومًا وقريش خصوصًا، وكانت بطون قيس عيلان بالأخص في حالة عداء تقليدية وقديمة مع بطون مضر؛ لذلك لما فتح المسلمون مكة، اجتمعت قبائل هوازن وثقيف وبني هلال، وقررت محاربة المسلمين مدفوعة بعداوة الإسلام وعداوة القبلية والعصبية.

قرّر القائد العام لتحالف مشركي هوازن وثقيف مالك بن عوف أن يسوق مع الجيش الأموال والعيال والنساء؛ ليزيد ذلك من حماس المشركين في القتال، ويجعلهم يقاتلون حتى الموت، إن لم يكن للنصر فللدفاع عن الحرمات، وسار جيش التحالف الشركي حتى وصل إلى وادي أوطاس، وهو على مسيرة يوم من مكة تقريبًا، ولم يعجب هذا الرأي أحد قادة الجيش ذوي الخبرة، وهو دريد بن الصمة، ولكن مالك بن عوف أصرَّ عليه، وهدَّد بالانتحار

إذا لم يطيعوه، فأطاعوه على سفاهة رأيه، ولُقِّب من بعدها بالأحمق المطاع.

وصلت أخبار هذا الجيش للرسول ﷺ، فاستعد بجيش كبير يضم كثيرًا ممن أسلم بعد فتح مكة الذين لم يدخل الإسلام في قلوبهم بصورة كاملة، إضافة إلى الجيش الذي فتح مكة، وكان الجيش كبيرًا بصورة أعجبت كثيرًا من المسلمين، وأدخلت فيهم الثقة الكاملة لحد الغرور من النصر الكاسح على المشركين، وانزعج الرسول ﷺ من مقولة بعضهم: «لن نغلب اليوم من قلة».



المعركة

قام مالك بن عوف بوضع جيشه على شكل كمائن في مداخل ومضايق وشعب وادي حنين، ويقع في منطقه جبلية وعرة بين مكة والطائف، وقد سبق المسلمين لهذا الوادي، ووضع خطته على مفاجأة المسلمين بالسهام القاتلة، وفي يوم (١٠ شوال سنة ٨هـ) وقبل الفجر، والظلام يخيم على وادي حنين السحيق دخل المسلمون وادي حنين، وهم لا يدرون بوجود كمائن للعدو، وفجأة انهالت السهام عليهم من كل مكان، والعدو يهجم عليهم هجمة

رجل واحد، فأُصيب المسلمون بالدهشة المربكة، وتراجعوا دون نظام، فركبوا بعضهم بعضًا من شدة الصدمة، وصاح بعض حديثي العهد بالإسلام مثل أبي سفيان بن حرب وكلدة بن الجنيد بما في صدورهم، وعندها قام الرسول ﷺ بعمل جريء؛ إذ عَرَّض نفسه ﷺ لمخاطرة كبيرة، إذ انحاز إلى جهة اليمين، ثم نادى على المسلمين وقال: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»[1]. وأمر الرسول ﷺ العباس أن ينادي في الناس، فقال: يا معشر الأنصار، ويا معشر المهاجرين، يا أصحاب الشجرة. فحرَّكت هذه الكلمات مشاعر الإيمان والشجاعة في نفوس المسلمين، فأجابوه: لبيك يا رسول الله لبيك.

وانتظم الجيش مرَّةً أخرى، واشتد القتال، وأشرف الرسول ﷺ على المعركة، وما هي إلاَّ ساعة حتى انهزم المشركون، وولَّوا الأدبار تاركين النساء والأموال والأولاد، وفرُّوا إلى عدَّة أماكن مختلفة، فطائفة إلى أوطاس وأخرى إلى نخلة، ومعظم الفارين هربوا إلى حصون الطائف، فأرسل الرسول ﷺ عدة فرق لمطاردة الفارين، وذلك من أجل منعهم من التجمع ومعاودة الهجوم على المسلمين، وبلغ عدد الأسرى من الكفار في ذلك اليوم ستة آلاف أسير.

حصار الطائف

استطاعت فرق المطاردة القضاء على الفارين، وبعدها اتجه الرسول ﷺ والمسلمون مباشرة إلى الطائف، حيث منازل وحصون ثقيف، وقد لجأ إليها مالك بن عوف ومعظم الفارين، وضربوا على الطائف حصارًا شديدًا، وقعت خلاله مناوشات حامية بين المدافعين عن الحصن والمسلمين، حدثت خلالها إصابات كثيرة للمسلمين جعلتهم يُغَيِّرون مكان معسكرهم، حاول الرسول ﷺ الضغط على المحاصرين بقطع حدائق أعنابهم، فسألوه أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم، ثم أعلن أن مَنْ خرج من عبيد ثقيف للمسلمين فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلاً، ثم حاول الهجوم بشدَّة، ولكن أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة، وبعد المشاورة قرَّر الرسول ﷺ الرجوع ورفع الحصار عن الطائف.

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، (٢٧٠٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، (١٧٧٦).

توزيع الغنائم

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف، مكث بالجعرانة، وهو المكان الذي تم تجميع غنائم حنين فيه، وكانت كبيرة وضخمة بالمقارنة بغنائم المعارك السابقة، فقام الرسول ﷺ بتوزيعها على رؤساء القبائل وأشراف مكة والمؤلفة قلوبهم، وأفاض في العطاء، حتى ازدحم عليه الأعراب والناس طمعًا في المال، ولم يُعْطِ النبي ﷺ للأنصار من هذه الغنيمة الضخمة شيئًا، فوجد الأنصار في أنفسهم من هذا الأمر، وتكلموا فيه، حتى كثرت فيهم القالة، فجمعهم النبي ﷺ ووعظهم موعظة بليغة مؤثِّرة أزالت من نفوسهم أي أثر للحزن ووجد النفوس، وقال: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؛ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟**». قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأَفْضَلُ.

ثم قال : «**أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنُّ والفضل. قال: «**أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ.**

أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ».

فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُم، وقالوا: «رضينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قَسْمًا وحظًا»[1]. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرَّقوا.

دروس وعبر

وكانت حنين درسًا استفاد منه المسلمون؛ فتعَلَّموا أن النصر ليس بكثرة العدد والعدة، وأن الاعتزاز بذلك ليس من أخلاق المسلمين، ومرَّت الأيام فإذا بوفد من هوازن يأتي إلى

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١١٧٤٨) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

الرسول ﷺ يُعلن ولاءه للإسلام، وجاء وفد من ثقيف -أيضًا- يعلن إسلامه، وأصبح الذين اقتتلوا بالأمس إخوانًا في دين الله، وأنزل الله ﷻ في أحداث غزوة حنين وما جرى فيها للمسلمين من إعجاب بالنفس آيات من الذكر الحكيم في سورة التوبة، ليتأسى المسلمون بهذه الحادثة العظيمة وما فيها من دروس وعبر، فقد قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۞ ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

* * *

معركة مؤتة

التاريخ	٨هـ/ ٦٢٩ م	
المكان	مؤتة - جنوب غرب الأردن	
النتيجة	انسحاب المسلمين بعد إيقاع خسائر في صفوف الروم	
المتحاربون	المسلمون	الروم، ونصارى من العرب من أنصار الروم
القادة	زيد بن حارثة، جعفر بن أبي طالب، عبد الله بن رواحة، خالد بن الوليد	هرقل
القوى والحشود	٣ آلاف مقاتل	٢٠٠ ألف مقاتل
الخسائر	١٣ شهيدًا	الآلاف من القتلى

جرت الغزوة في جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة الموافق أغسطس ٦٢٩م؛ بسبب قتل الحارث بن عمير الأزدي رسول النبي ﷺ إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو بن جبلة الغساني والي البلقاء، الواقع تحت الحماية الرومانية؛ إذ أوثقه رباطًا، فقدَّمه فضرب عنقه.

سبب الغزوة

اتَّسمت العلاقات بين المسلمين والروم بالتوتُّر، فقد دأبت الروم ومَنْ والاها من العرب على مضايقة المسلمين واستفزازهم بكل الطرق، وكان من أظهرها المحاولات المتكرِّرَة للتعرُّض لتجارة المسلمين القادمة من الشام، والقيام بالسلب والنهب للقوافل التي تمرُّ بطريقهم، بالإضافة إلى ما مارسوه من ضغوطاتٍ ومضايقاتٍ طالت كل مسلم وقع تحت أيديهم.

وبلغ الأذى ذروته حين بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي رسولاً إلى ملك بصرى في أرض الشام يدعوه إلى الإسلام، فما كان من ملك بصرى شرحبيل بن عمرو الغساني إلا أن قتل رسول النبي ﷺ، فاشتدَّ ذلك على النبي ﷺ؛ إذ كان هذا هو أول رسولٍ

له يُقتل على خلاف ما جرت العادة من إكرام الرسل وعدم التعرُّض هم، وأمر بتجهيز جيش من ثلاثة آلاف مقاتل ولم يجتمع هذا العدد من المقاتلين المسلمين من قبل إلا في غزوة الأحزاب.

وصية رسول الله لأمراء الجيش

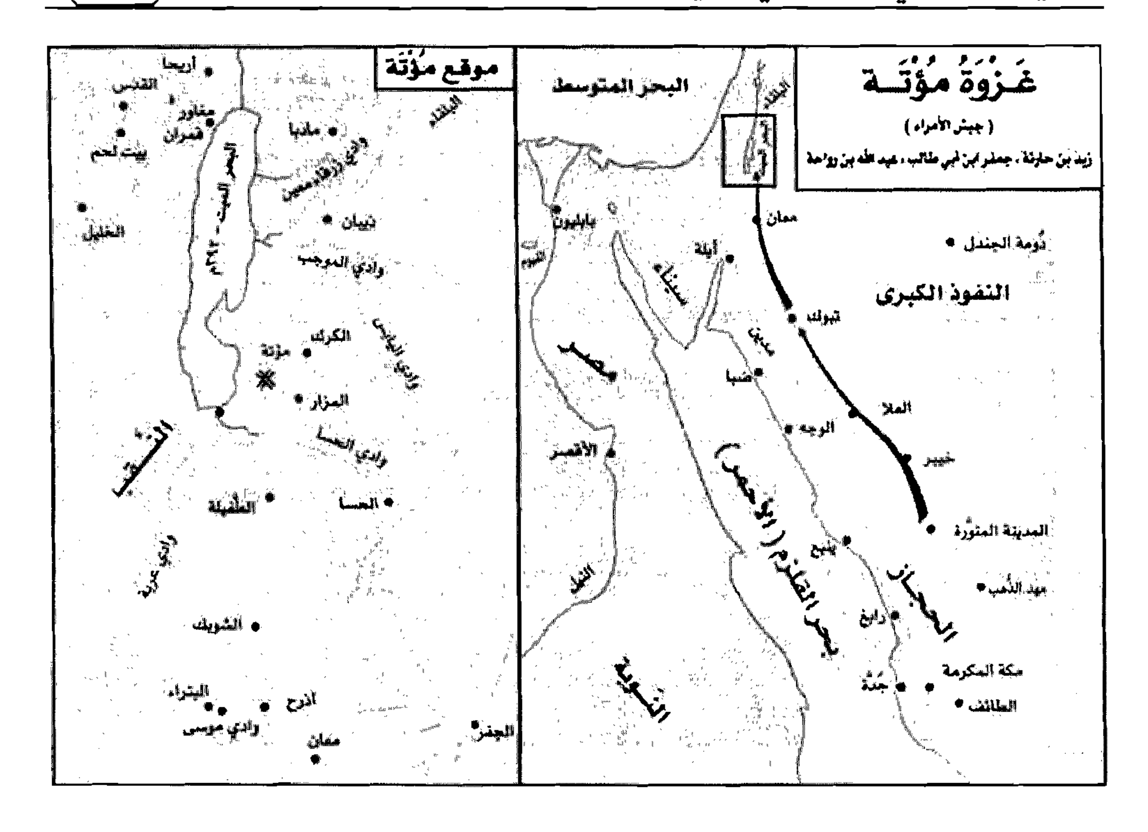
أمَّر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: «**إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ**»[1]. وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم؛ وكان إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم يقول: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَ لاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»[2]. وقد خرجت نساء المسلمين لتوديع أزواجهن وهن يقلن: «ردكم الله إلينا صابرين». فرد عبد الله بن رواحه وقال: «أما أنا فلا ردني الله».

ووصل الجيش إلى مكان يُدْعَى «معان» في أرض الشام، فبلغهم أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليه مائة ألف أخرى من القبائل العربية الموالية له من لخم وجذام وبهراء وغيرهم، فاجتمع لهرقل مائتي ألف مقاتل.

فأقام المسلمون ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: «نكتب إلى رسول الله فنخبره، فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره». فشجعهم عبد الله بن رواحة، وقال: «**والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بقوة ولا كثرة وما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطَلِقُوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظفر وإما شهادة**». فقال الناس: «صدق والله ابن رواحة». فمضوا حتى إذا قاربوا البلقاء -وهي منطقة بالشام- لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية يقال لها: مشارف. فدنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة. وتُسَمَّى اليوم بالكرك، فالتقى الناس عندها، فتجهَّز المسلمون وجعلوا على ميمنة الجيش قطبة بن قتادة رجل من بني عذرة، وعلى الميسرة عباية بن مالك رجل من الأنصار.

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، (٤٠١٣)، والنسائي (٨٢٤٩)، وأحمد (٢٢٦٠٤).
(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو وغيرها، (١٧٣١).



المعركة

اصطف المسلمون في مؤتة وقد اقتربت ساعة الصفر لأشرس موقعة في تاريخ السيرة النبوية، حيث أمواج بشرية هائلة من الرومان ونصارى العرب تنساب إلى أرض مؤتة، ورجال كالجبال من المسلمين يقفون ثابتين في وجه أقوى قوة في العالم آنذاك، وها هي قد ارتفعت صيحات التكبير من المسلمين، وحمل الراية زيد بن حارثة ﷺ، وأعطى إشارة البدء لأصحابه، وقد اندفع كالسهم صوب الجيوش الرومانية، وكان قتالاً لم يشهد المسلمون مثله قبل ذلك؛ ارتفع الغبار في أرض المعركة في ثوانٍ معدودات، وما عاد أحد يسمع إلا أصوات السيوف أو صرخات الألم، ولا يتخلل ذلك من الأصوات إلا صيحات تكبير المسلمين، أو بعض الأبيات الشعرية الحماسية التي تدفع المسلمين دفعًا إلى بذل الروح والدماء في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وقد سالت الدماء غزيرة في أرض مؤتة، وتناثرت الأشلاء في كل مكان، ورأى الجميع الموت مرارًا ومرارًا؛ كانت ملحمة بكل المقاييس، سقط على إثرها أول شهيد للمسلمين، وهو البطل الإسلامي العظيم والقائد المجاهد زيد بن حارثة ﷺ، مقبلاً غير مدبر، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب بيمينه، وأخذ ينشد:

يـا حبـذا الجنـة واقترابهـا　　طيبـة وبـارد شرابهـا

والروم روم قد دنا عذابها　　كـافرة بعيـدة أنسـابها

على إن لاقيتها ضرابها

وحمل جعفر اللواء بيمينه فقُطعت، ثم حمله بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى ضربه رجلٌ من الروم فاستشهد، فسمي بذي الجناحين؛ حيث أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة ﷺ، ثم تقدَّم بها على فرسه فجعل يستنزل نفسه، ويقول:

أَقْسَـمْتُ يَـا نَفْـسُ لَتَنزِلِنَّـه　　طَائِعَـةً أَوْ لا لَتُكرَهِنَّـه

إِنْ أَجلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّةْ　　مَـا لِي أَرَاكِ تَكْـرَهِينَ الجَنَّـةْ

قَـدْ طَالَمَـا قَـدْ كُنْـتِ مُطْمَئِنَّـةْ　　هَـلْ أَنْـتِ إِلَّا نُطْفَـةٌ فِي شَـنَّةْ

ثم تقدَّم ﷺ فقاتل حتى قُتل، ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم، فقال: يا معشر المسلمين؛ اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. فقال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

خطة خالد بن الوليد

وبعد أن تسلَّم الإمرة خالد انتهج خطة جديدة في مواجهة العدو فلم يكن من عادة الجيوش في ذلك الوقت أن تقاتل ليلاً، فكان أن تحاجز الفريقان، واستراح الرومان ليلتهم هذه، لكن المسلمين لم يركنوا إلى الراحة، وإنما كانوا في حركة دائبة؛ فقد بدأ خالد بن الوليد في تنفيذ خُطَّة عبقرية بارعة للوصول بجيشه إلى برِّ الأمان، وكان هدفها إشعار الرومان بأن هناك مددًا كبيرًا قد جاء للمسلمين؛ وذلك حتى يتسلل الإحباط إلى داخل جنود الرومان والعرب المتحالفين معهم، فهم أمْس كانوا يتقاتلون مع ثلاثة آلاف وقد رأوا منهم ما رأوا، فكيف إذا جاءهم مدد؟!

ولتنفيذ هذه الخطة قام خالد بن الوليد ﷺ بالخطوات التالية:

١ - جعل الخيل طوال الليل تجري في أرض المعركة لتُثيرَ الغبار الكثيف؛ فيُخيَّل للرومان

أن هناك مددًا قد جاء للمسلمين.

٢- غَيَّر من ترتيب الجيش، فجعل الميمنة ميسرة والميسرة ميمنة، وجعل المقدمة مؤخرة والمؤخرة مقدمة، وحين رأى الرومان هذه الأمور في الصباح، ورأوا الرايات والوجوه والهيئة قد تغيَّرت، أيقنوا أن هناك مددًا قد جاء للمسلمين، فهبطت معنوياتهم تمامًا.

٣- جعل في خلف الجيش وعلى مسافة بعيدة منه مجموعةً من الجنود المسلمين فوق أحد التلال، منتشرين على مساحة عريضة، ليس لهم من شغل إلا إثارة الغبار لإشعار الرومان بالمدد المستمر الذي يأتي للمسلمين.

٤- بدأ خالد بن الوليد في اليوم التالى للمعركة بالتراجع التدريجي بجيشه إلى عمق الصحراء، هذا ما شعر معه الرومان بأن خالدًا يستدرجهم إلى كمين في الصحراء، فتردَّدُوا في متابعته، وقد وقفوا على أرض مؤتة يشاهدون انسحاب خالد، دون أن يجرءوا على مهاجمته أو متابعته.

ونجحت خطة خالد بن الوليد، فلما أطل الصباح، أنكرت الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم، فظنوا أن المسلمين قد جاءهم مدد، فخافوا وانكشفوا، وما زال خالد يحاورهم ويداورهم، والمسلمون يقاتلونهم أثناء انسحابهم بضعة أيامٍ حتى خاف الروم أن يكون ذلك استدراجًا لهم إلى الصحراء، فتوقف القتال.

وهكذا تبدلَّت هزيمة جيش المسلمين إلى نصرٍ، وأي نصرٍ أكبر من صمود جيشٍ يبلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتلٍ أمام جيشٍ عدده مائتا ألف مقاتلٍ، وإنه لشيءٌ نادرٌ أن يقف جنديٌ واحدٌ أمام سبعين من الجنود المحملين بالسلاح، ولكن قوة الإيمان هي التي جعلت المسلمين يصمدون أمام جيش العدو. وتراجع الجيش الإسلامي بكامله إلى عمق الصحراء، ثم بدأ الجيش رحلة العودة إلى المدينة المنورة سالمًا.

استقبال النبي وأهل المدينة الجيش

لما اقترب الجيش من المدينة تلقَّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: «**خُذُوا الصِّبْيَانَ فَاحْمِلُوهُمْ، وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ**». فأُتِيَ بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه، وكان الناس يحثون على الجيش التراب

ويقولون: يا فُرَّار؛ فررتم في سبيل الله. فيقول رسول الله ﷺ: «لَيْسُوا بِالْفُرَّارِ وَلَكِنَّهُمُ الْكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى»(١).

دروس وعبر

هذه هي غزوة مؤتة تكاد تتفجر عظة وعبرة، فما أن يقرأ القارئ هذه الأحداث إلا ويجد الإعجاب قد عقد لسانه؛ فأي بشر هؤلاء؟! يقفون بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل أمام جيش هائل قوامه مائتي ألف مقاتل، إنَّ تصوُّرًا سريعًا للقوتين لَيُعطي نتائج حاسمة بانتصار الجيش الكبير على الجيش المقابل، ومع ذلك يتقدم المسلمون على قلة عددهم، وضعف عُدَّتهم ليضربوا أعظم صور التضحية والفداء؛ بل ولينتصروا على ذلك العدو، في أعظم مهزلة يتعرَّض لها جيش الإمبراطورية الرومانية، إن غزوة مؤتة بكل المقاييس العسكرية معجزة من المعجزات، وكرامة من الكرامات، لقد وضعت معركة مؤتة القاعدة العسكرية الإسلامية في مواجهة العدو، فنحن لا نُقاتل بعدد ولا عُدَّة؛ ولكن نقاتل بهذا الدين، فإذا كان قتالنا نصرة لدين الله، وقمنا ما استطعنا بما أوجبه الله علينا من الأخذ بالأسباب الظاهرة، كان النصر حليفنا بإذن الله.

❊ ❊ ❊

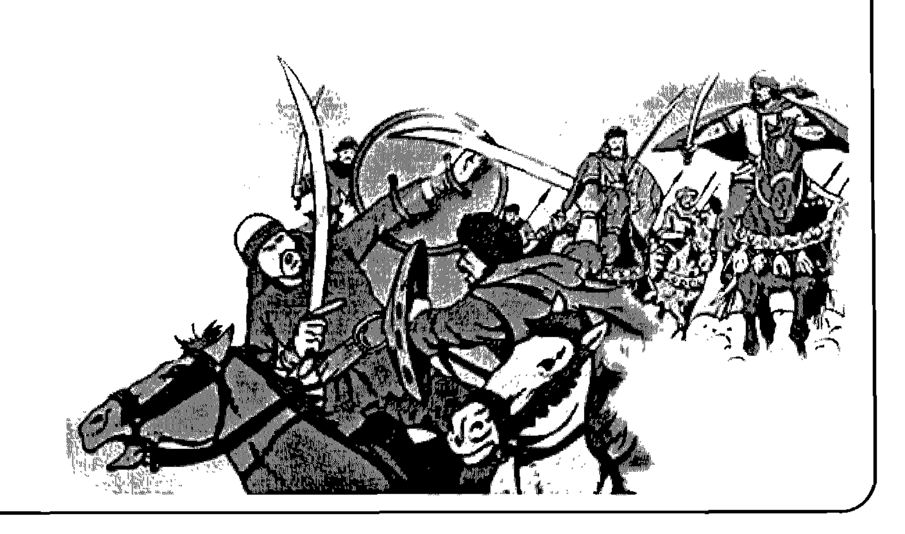
(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٨٢، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٤٧٩.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الفصل الثاني

أيام لا تنسى في عهد الخلفاء الراشدين





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معركة ذات السلاسل

التاريخ	١٢هـ/ ٦٣٣ م	
المكان	الكويت	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية الساسانية الفارسية (زرادشتيون)
القادة	خالد بن الوليد	هرمز
القوى والحشود	١٨ ألف مقاتل	٨٠ ألف مقاتل
الخسائر	ألف شهيد	٣٠ ألف قتيل

معركة ذات السلاسل هي معركة وقعت في سنة (١٢هـ/ ٦٣٦م) بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد، وبين الفرس بقيادة هرمز، انتهت بانتصار المسلمين.

قبل المعركة

كانت أول مدينة قصدها خالد بن الوليد في فتحه للعراق هي مدينة الأبلة، وكانت ذات أهمية إستراتيجية كبيرة؛ حيث إنها ميناء الفرس الوحيد على الخليج العربي، ومنها تأتى كل الإمدادات للحاميات الفارسية المنتشرة بالعراق، وكانت هذه المدينة تحت قيادة أمير فارسي كبير الرتبة اسمه هرمز، وقد اشتق من اسمه اسم المضيق القائم حاليًا عند الخليج العربي، وكان رجلاً شريرًا متكبرًا، شديد البغض للإسلام والمسلمين، وللجنس العربي بأسره، وكان العرب بالعراق يكرهونه بشدَّة، ويضربون به الأمثال فيقولون: «أكفر من هرمز، أخبث من هرمز». فلما وصل خالد بالجيوش الإسلامية هناك -وكان تعداد هذه الجيوش قد بلغ ثمانية عشر ألفًا بعد أن طلب الإمدادات من الخليفة- أرسل برسالة للقائد هرمز تُبيِّن حقيقة الجهاد الإسلامي، وفيها أصدق وصف لجند الإسلام، حيث جاء في الرسالة:-

«أما بعد فأسلم تسلم، أو اعقد لنفسك ولقومك الذمة، وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن

إلا نفسك، فلقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

وهذا أصدق وصف لجند الإسلام، وهو الوصف الذي جعل أعداء الإسلام يهابون المسلمين، وهو النفحة الغالية التي خرجت من قلوب المسلمين، وحلَّ محلها الوهن الذي قال عنه رسول الله ﷺ أنه سبب تكالب الأمم علينا، وهو كما عرفه الرسول ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[1].

حرب الاستنزاف

رفض هرمز الرسالة الإسلامية التي تدعوه إلى الإسلام أو الجزية، واختار بيده مصيره المحتوم، وأرسل إلى كسرى يطلب الإمدادات، وبالفعل أرسل كسرى إمدادات كبيرة جدًّا، واجتمع عند هرمز جيش جرَّار عظيم التسليح، وبنى هرمز خطته على الهجوم على مدينة كاظمة ظنًّا منه أن المسلمين سوف يعسكرون هناك، ولكنه يصطدم أمام العقلية العسكرية الفذة للقائد خالد بن الوليد؛ فقد قام خالد بن الوليد بما يُعرف في العلوم العسكرية الحديثة بحرب استنزاف، ومناورات مُرهقة للجيش الفارسي؛ فقام خالد وجيشه بالتوجُّه إلى منطقة الحفير، وأقبل هرمز إلى كاظمة فوجدها خالية، وأخبره الجواسيس أن المسلمين قد توجهوا إلى الحفير، فتوجه هرمز بسرعة كبيرة جدًّا إلى الحفير حتى يسبق المسلمين، وبالفعل وصل هناك قبل المسلمين، وقام بالاستعداد للقتال، وحفر خنادق، وعبأ جيشه، ولكن البطل خالدًا يُقَرِّر تغير مسار جيشه، فيكرُّ راجعًا إلى مدينة الكاظمة، ويعسكر هناك ويستريح الجند قبل القتال.

تصل الأخبار إلى هرمز فيستشيط غضبًا، وتتوتر أعصابه جدًّا، ويتحرك بجيوشه المرهقة المتعبة إلى مدينة الكاظمة؛ ليستعدَّ للصدام مع المسلمين، وكان الفرس أدرى بطبيعة الأرض وجغرافية المكان من المسلمين، فاستطاع هرمز أن يُسيطر على منابع الماء؛ بأن جعل نهر الفرات وراء ظهره، حتى يمنع المسلمين منه، وصدق الحق عندما قال: ﴿**وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ [البقرة: ٢١٦]، فقد كان سببًا لاشتعال حمية المسلمين وحماستهم ضد

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤٢٩٧)، وأحمد في مسنده (٢٢٤٥٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن. وقال الهيثمي: إسناد أحمد جيد. مجمع الزوائد (١٢٢٤٤)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

الكفار، وقال خالد بن الوليد كلمته الشهيرة تحفيزًا بها الجند: «ألا انزلوا وحطوا رحالكم، فلعمر الله ليصيرن الماء لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين».

وقبل أن يصطدم هرمز قائد الجيوش الفارسية مع جيوش المسلمين أرسل بصورة الوضع إلى كسرى، الذي قام بدوره بإرسال إمدادات كبيرة يقودها قارن بن قرباس يكون دورها الحفاظ على مدينة الأبلة في حالة هزيمة هرمز أمام المسلمين؛ لأهمية هذه المدينة كما أسلفنا.

سلاسل الموت

كان هرمز رجلاً متكبرًا أهوجًا، لا يستمع إلا لصوت نفسه فقط؛ حيث رفض الاستماع لنصائح قواده، وأصر على أن يربط الجنود الفرس أنفسهم بالسلاسل؛ حتى لا يفرُّوا من أرض المعركة، كناية عن القتال حتى الموت؛ لذلك فقد سُمِّيَتْ المعركة بذات السلاسل.

وكان أول وقود المعركة وكما هو معتاد وقتها أيام الحروب أن يخرج القواد للمبارزة، وكان أول الوقود عندما خرج القائد الفارسي هرمز لمبارزة القائد المسلم خالد بن الوليد، وكان هرمز كما أسلفنا شديد الكفر والخيانة، فاتفق مع مجموعة من فرسانه على أن يهجموا على خالد ويفتكوا به أثناء المبارزة، وبالفعل خرج المسلم للقاء الكافر، وبدأت المبارزة، ولم يعهد أو يُعلم عن خالد بن الوليد أنه هُزم قط في مبارزة طوال حياته قبل الإسلام وبعده، وقبل أن تقوم مجموعة الغدر بجريمتهم الشريرة، فطن أحد أبطال المسلمين الكبار لذلك، وهو البطل المغوار القعقاع بن عمرو وهو مثل خالد في البطولة والشجاعة، فخرج من بين الصفوف مسرعًا، وانقض كالأسد الضاري على مجموعة الغدر فقتلهم جميعًا، وفي الوقت نفسه أجهز خالد بن الوليد على الخائن هرمز وذبحه كالنعاج، وكان لذلك الأمر وقعًا شديدًا في نفوس الفرس؛ حيث انفرط عقدهم، وانحلَّ نظامهم لمقتل قائدهم، وولوا الأدبار، وركب المسلمون أكتافهم، وأخذوا بأقفيتهم، وقتلوا منهم أكثر من ثلاثين ألفًا، وغرق الكثير في نهر الفرات، وقُتل المربوطون بالسلاسل عن بكرة أبيهم، وكانت هزيمة مدوية على قوى الكفر وعُبَّاد النار، وفر باقي الجيش لا يلوي على شيء[1].

(١) لا يَلوي على شيء؛ أي: لا يَلتَفِت ولا يَعْطف على شيء. ابن منظور: لسان العرب، مادة (لوي) ١٥/ ٢٦٣.

الفزع الكبير

لم تنته فصول المعركة عند هذا الحد؛ فمدينة الأبلة لم تفتح بعد، وهناك جيوش قوية تُرابط بها للدفاع عنها حال هزيمة جيوش هرمز وقد كانت، ووصلت فلول المنهزمين من جيش هرمز وهي في حالة يُرثى لها من هول الهزيمة، والقلوب فزعة وجلة، وانضمت هذه الفلول إلى جيش قارن بن قرباس المكلف بحماية مدينة الأبلة، وأخبروه بصعوبة الأمر فامتلأ قلبه هو الآخر فزعًا ورعبًا من لقاء المسلمين، وأصر على الخروج من المدينة للقاء المسلمين خارجها، وذلك عند منطقة المذار، وإنما اختار تلك المنطقة تحديدًا لأنها كانت على ضفاف نهر الفرات، وكان قد أعد أسطولاً من السفن استعدادًا للهرب لو كانت الدائرة عليه، وكانت فلول المنهزمين من جيش هرمز ترى أفضلية البقاء داخل المدينة والتحصن بها؛ وذلك من شدَّة فزعهم من لقاء المسلمين في الميدان المفتوح.

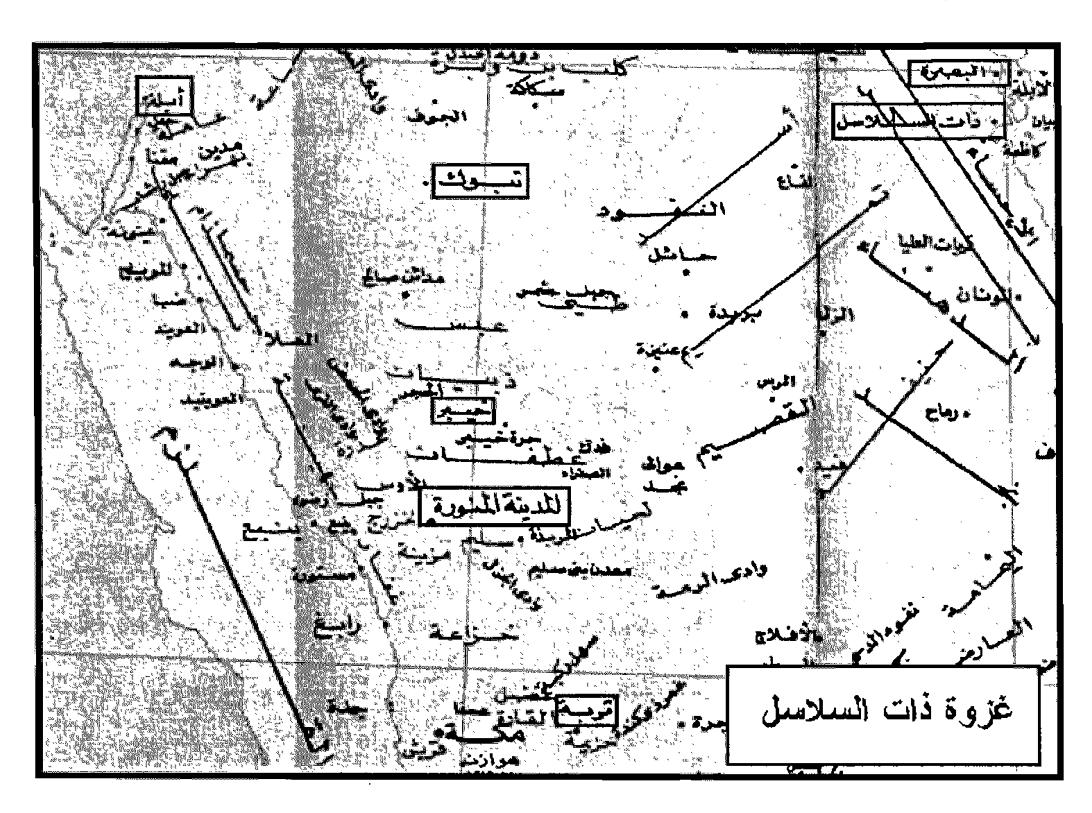
كان القائد المحنك خالد بن الوليد يعتمد في حروبه دائمًا على سلاح الاستطلاع الذي ينقل أخبار العدو أولاً بأول، وقد نقلت له استخباراته أن الفرس معسكرون بالمذار، فأرسل خالد للخليفة أبي بكر يعلمه بأنه سوف يتحرك للمذار؛ لضرب المعسكرات الفارسية هناك، ليفتح الطريق إلى الأبلة، ثم انطلق خالد بأقصى سرعة للصدام مع الفرس، وأرسل بين يديه طليعة من خيرة الفرسان يقودهم أسد العراق المثنى بن حارثة، وبالفعل وصل المسلمون بسرعة لا يتوقعها أحد من أعدائهم.

الفطنة العسكرية

عندما وصل المسلمون إلى منطقة المذار أخذ القائد خالد بن الوليد يتفحص المعسكر، وأدرك بخبرته العسكرية، وفطنته الفذة أن الفزع يملأ قلوب الفرس؛ وذلك عندما رأى السفن راسية على ضفاف النهر، وعندها أمر خالد المسلمين بالصبر والثبات في القتال، والإقدام بلا رجوع، وكان جيش الفرس يُقَدَّر بثمانين ألفًا، وجيش المسلمين بثمانية عشر ألفًا، وميزان القوى المادي لصالح الفرس، خرج قائد الفرس قارن وكان شجاعًا بطلاً، وطلب المبارزة من المسلمين فخرج له رجلان خالد بن الوليد وأعرابي من البادية، لا يعلمه أحد، اسمه معقل بن الأعشى الملقب بأبيض الركبان لمبارزته، وسبق الأعرابي خالدًا، وانقض كالصاعقة على قارن وقتله في الحال، وخرج بعده العديد من أبطال الفرس وقادته؛ فبارز عاصم بن عمرو القائد الأنوشجان فقتله، وبارز الصحابي عدي بن

حاتم القائد قباذ فقتله في الحال، وأصبح الجيش الفارسي بلا قيادة.

كان من الطبيعي أن ينفرط عقد الجيش الفارسي بعد مصرع قادته، ولكن قلوبهم كانت مشحونة بالحقد والغيظ من المسلمين، فاستماتوا في القتال على حنق وحفيظة، وحاولوا بكل قوتهم صد الهجوم الإسلامي ولكنهم فشلوا في النهاية تحت وطأة الهجوم الكاسح، وانتصر المسلمون انتصارًا مبينًا، وفتحوا مدينة الأبلة؛ وبذلك استقر الجنوب العراقي بأيدي المسلمين، وسيطروا على أهم موانى الفرس على الخليج، وكان هذا الانتصار فاتحة سلسلة طويلة من المعارك الطاحنة بين الفرس والمسلمين على أرض العراق، كان النصر فيها حليفًا للمسلمين في جملتها، وانتهت بسقوط مملكة عُبَّاد النار.



***

معركة الولجة

التاريخ	١٢هـ/ ٦٣٣م	
المكان	العراق قرب نهر الفرات	
النتيجة	فوز ساحق وحاسم للمسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية الفارسية الساسانية والعرب المسيحيون
القادة	خالد بن الوليد	اندرزغار
القوى والحشود	١٥ ألف مقاتل	٢٥ إلى ٣٠ ألف مقاتل
الخسائر	حوالي ألفي شهيد	أكثر من ٢٠ ألف قتيل

معركة الولجة التي وقعت في بلاد الرافدين في عام (١٢هـ/ ٦٣٣م) بين جيش الخلفاء الراشدين بقيادة خالد بن الوليد وبين الإمبراطورية الفارسية وحلفائها من العرب المسيحيين، في هده المعركة كانت قوات الفرس ضعف قوات المسلمين، وبالرغم من ذلك هزم خالد بن الوليد القوات الفارسية رغم تفوُّقها العددي بنسخة مطورة عن حركة الكماشة التي استخدمها قادة الحرب قبله.

الجيش الفارسي

أمر الإمبراطور الفارسي أردشير الثالث بتركيز جيشين آخرين في يوم معركة نهر الدم نفسه، وبعد أوامر أردشير الثالث بدأت القوات الفارسية بالتجمع في العاصمة الإمبراطورية، وجاءت القوات من كل المدن والحاميات باستثناء مَنْ يحرسون الحدود الغربية مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وفي أيام قليلة كان الجيش الأول مستعدًّا؛ حيث تَوَقَّع مستشارو الإمبراطورية الفارسية العسكريون أن المسلمين سيسيرون مع الفرات إلى الشمال الغربي في العراق؛ لأنهم يعرفون أن القوات العربية عبر التاريخ لا تتحرك بعيدًا عن الصحراء، والتي تستخدمها للتراجع في حالة الهزيمة.

وبعد توقع تحرك جيش المسلمين صوب الغرب، اختار أردشير الثالث الولجة كالمكان الذي سيوقف فيه خالد بن الوليد ويدمر جيشه.

كانت أول جيوش الإمبراطورية الفارسية قد وصلت إلى قطسيفون، ووُضعت تحت قيادة أندرزغار حاكم خراسان، فأمر أندرزغار جيشه بالتقدُّم للولجة؛ حيث سيلتحق به الجيش الثاني قريبًا، وانطلق الجيش الأول من قطسيفون، وانتقل على طول الضفة الشرقية من دجلة، وعبر دجلة في كاسكار ثم انتقل إلى الجنوب الغربي إلى الفرات، وبالقرب من الولجة عبر الفرات وأنشأ معسكره في الولجة.

جيش المسلمين

كانت معركة نهر الدم نصرًا مهمًّا للمسلمين، فمع انخفاض خسائرهم، هزم المسلمون جيشًا فارسيًّا كبيرًا وحصلوا على كمية هائلة من الغنائم، آنذاك بدأ المسلمون يُدركون ضخامة موارد الإمبراطورية الفارسية؛ ولكنهم لم يخوضوا سوى معركتين منفصلتين مع جيشين منفصلين، والمسلمون هم الذين اختاروا أرض المعركة، ولا يزالون سوى على هوامش الإمبراطورية، ونُذَكِّر أن الفرس يمكنهم صفَّ عدَّة جيوش ميدانية في آن واحد كمثل تلك التي خاضت في معركة كازيما ومعركة نهر الدم.

نظَّم خالد شبكة عملاء فعالة تُعْلِمُه بمواقع الفرس، وكان العملاء من العرب المحليين الذين كانوا معادين للفرس، وقد أبلغ العملاء خالدًا عن تركيز الجيوش الفارسية الجديد في الولجة، وعن أعدادهم الكبيرة.

كان خالد مصممًا على الحصول على الحيرة، وكانت الولجة في طريقه إليها، ومع جيش بلغ حوالي ١٥ ألف رجل، انطلق خالد في اتجاه مدينة الحيرة، وتحرَّك على نحو سريع على طول الحافة الجنوبية من المستنقعات، قبل أيام قليلة من توقُّع باهمان، بدأ الجيش المسلم في الظهور في الأفق الشرقي، وأقام مخيمه على مسافة قريبة من الولجة.

مناورة خالد

كانت أعداد كبيرة من الفرس الساسانيين قد فروا من المعارك السابقة، وعادوا إلى حمل السلاح مرة أخرى، والناجون من معركة ذات السلاسل انضموا إلى قارين، وقاتلوا في معركة نهر الدم، والناجون من معركة نهر الدم انضموا إلى أندرزغار والآن اتجهوا نحو الولجة، واجه المسلمون هاجسين، وإستراتيجية واحدة وتكتيك واحد:

- الهاجس الأول والإستراتيجية: كان جيشان من الفرس على وشك أن يجتمعا

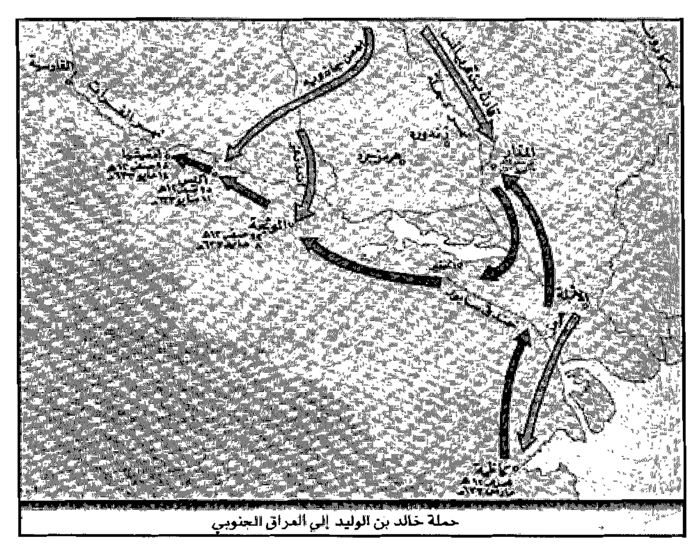
لاعتراض للمسلمين، ولحلِّ هذه المشكلة عزم خالد بن الوليد على الهجوم بسرعة، والمحاربة، والقضاء على الجيش الأول (جيش أندرزغار)، ثم الجيش الثاني (جيش باهمان) قبل وصوله إلى مكان المعركة.

- الهاجس الثاني والتكتيك: منع مقاتلي العدو من الهرب من خضم المعركة، وإعادة تنظيم صفوفهم والعودة لمواصلة القتال؛ لذلك قرَّر خالد إحاطة الجيش الفارسي، والانقضاض عليه من الخلف، وتدمير جيشهم في هذا الوقت، إستراتيجية خالد كانت نوعًا من حركة الكماشة.

أعطى خالد توجيهاته إلى سويد بن مقرن لرؤية الإدارة للمناطق التي غزاها مع فريق من المسئولين، ونُشرت مفارز لحراسة دجلة من احتمال عبور العدو وهجومه من الشمال والشرق، وإعطاء أي تحذير عن قوات جديدة للعدو في تلك الاتجاهات.

موقع المعركة

أرض المعركة عبارة عن سهل شاسع ممتد بين مرتفعين يمتدان إلى حوالي ميلين، وبارتفاع ٣٠ قدمًا، الشمال الشرقي من السهل يتداخل مع صحراء قاحلة، وعلى مقربة من الشمال الشرقي يظهر لنا فرع من الفرات يُسمى بنهر خاسف.



حملة خالد بن الوليد إلى العراق الجنوبي

المعركة

كان أندرزغار واثقًا من النصر؛ حتى إنه لم يزعج نفسه بالانسحاب إلى ضفة النهر، على بعد ميل واحد؛ ليتمكن من استخدام النهر لحماية عمق الجيش.

وفي (١٢هـ/ مايو ٦٣٣م) تم نشر الجيشين لخوض المعركة، ولكل منهما مركز وأجنحة. أجنحة المسلمين كانت بقيادة عاصم بن عمرو وعاصي بن حاتم، وانتشر الجيش الفارسي في وسط السهل، وكان مواجهًا للشرق وللجنوب الشرقي، وفي الجنوب الغربي كانت وراءه التلال، شكَّل خالد جيشه أمام تلال الشمال الشرقي، في مقابل الجيش الفارسي. وفي وسط ساحة المعركة، أي

نقطة الوسط بين الجيشين كانت تبعد حوالي ميلين إلى الجنوب الشرقي من عين الموهاري، وعلى بعد ٣٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي تقع النجف و٦ أميال إلى الجنوب الشرقي تقع خش الصنافية، وكانت معظم قوات المسلمين قد تألفت من المشاة، مع عدد قليل من الفرسان.

توقَّع الفرس أن يكون جيش خالد أكبر بكثير، وفي الليلة التي سبقت معركة الولجة أرسل خالد اثنين من ضباطه بشر بن أبي رحم وسعيد بن مارا وجعل كلًّا منهما قائدًا على قوة متحركة تتكون من نحو ألفي فارس، وأمرهم على النحو التالي:

١- يأخذ كل منهما فرسانه خلال الليل ويتحرك بسرعة في الجنوب من مخيم الفرس.

٢- عند الوصول إلى الجانب الآخر من سلسلة التلال التي تمتد وراء مخيم الفرس، سيخفيان الرجال، ولكن يحتفظان بهم على أهبة الاستعداد للتحرك خلال فترة قصيرة.

٣- عند الصباح ستبدأ المعركة، وسيُبقان رجالهما وراء التلال، وسيضعان عددًا من المراقبين لانتظار إشارة خالد.

٤- عندما يُعطي خالد إشارته، سيهاجمان القوات الفارسية من المؤخرة، وكل مجموعة ستهاجم جناحًا.

صدرت الأوامر اللازمة من خالد لمن كان يجب أن يعرف هذه الخطة، حتى يتسنَّى تنظيم وتحضير قوات الضربة دون حدوث أي توقف وبسرية تامة؛ لذا لم يتم إعلام المقاتلين المسلمين العاديين شيئًا من مناورة حركة الكماشة، شكَّل خالد جيشه الـ ١٠ الآلاف المتبقية قبالة الجيش الفارسي الساساني، كانت إستراتيجية القائد الأعلى للقوات الفارسية أندرزغار تعتمد على الدفاع وترك المسلمين يهاجمون أولاً، واعتزم وقف هجماتهم حتى تُصبح دون فائدة، وبعد ذلك الشروع في هجوم مضاد لهزيمة جيش المسلمين، وكانت المرحلة الأولى من المعركة كانت وفق خطة أندرزغار، فقد أمر خالد الجيش بشن هجوم عام، وكان للجيش الفارسي احتياطات ستحل محل الرجال في خط المواجهة، هذا ما يُتيح لهم التحكم في جيش المسلمين ومساعدتهم على تنفيذ مخططهم لاستهلاك جيش خالد، وخلال هذا الوقت بارز خالد بن الوليد بطل الفرس العملاق ويُطلق عليه هزار مارد وقتله، فكان هذا نصرًا نفسيًّا للمسلمين.

كانت المرحلة الأولى قد انتهت، وبدأت المرحلة الثانية من المعركة بهجوم مضاد لجيش الفرس، وربما شاهد أندرزغار علامات التعب على الجنود المسلمين؛ لذا احتكم على أن هذه هي اللحظة

المناسبة للهجوم المضاد للجيش الفارسي فدفع سلاح الفرسان الثقيل إلى الأمام لضرب المسلمين.

تمكن المسلمون من مقاومتهم لبعض الوقت، لكن الفرس زادوا الضغط، وكان هناك تراجع مبهم للجيش الإسلامي؛ لوقف الهجوم حتى إصدار تعليمات أخرى من خالد بن الوليد.

أعطى خالد في النهاية الإشارة على المضي قدمًا في تنفيذ خطته، ومن خلال أفق التلال التي تمتد وراء ظهر الجيش الفارسي ظهرت فرقتان من المحاربين؛ واحدة من وراء الجناح الفارسي الأيمن، وأخرى من وراء الجناح الفارسي الأيسر، ولم يكن سلاح الفرسان الفارسي الثقيل ندًّا لسلاح الفرسان المسلمين الخفيف، المعروف بسرعته التي لا تُصَدَّق، وإمكانياته على تنفيذ المناورات والتراجع والهجوم مرَّة أخرى، ومع هزيمة الفرسان الفارسيين، تصاعدت الهجمات التي بدأت تحاصر الفرس، واستأنف القسم الرئيس من الجيش المسلم تحت قيادة خالد بن الوليد الهجوم على الجبهة الفارسية، وفي الوقت نفسه مد مجموعتي الفرسان لإحاطة الفرس تمامًا، وبذلك وقع جيش أندرزغار في شرك، لا يمكن له الفرار منه.

ومع توالى الهجمات التي تأتي من كل الاتجاهات، اجتمع الجيش الفارسي في كتلة مترهلة، عاجزة عن استخدام السلاح بحُرِّيَّة أو تجنُّب ضربات المهاجمين، ووسط الزخم كان الذين يُريدون القتال لم يعرفوا مَنْ يقاتلون، والذين كانوا يُريدون الفرار لا يعرفون إلى أين يذهبون.

انتهت المعركة، وأُلحقت خسائر فادحة بالجيش الفارسي، فقط بضعة آلاف من المحاربين تمكنوا من الفرار، وأندرزغار نفسه تمكن من الهرب، لكنه فر في اتجاه الصحراء العربية بدلاً من الفرات، وتوفي في تلك المنطقة من العطش.

ما بعد المعركة

بعد المعركة جمع خالد رجاله، وأدرك أن المعركة فرضت ضغطًا رهيبًا على قواته، وعلى الرغم من انتصارهم الساحق على الفرس، كانت معركة الولجة أطول وأشرس المعارك التي خاضها المسلمون حتى الآن في العراق؛ لذلك سعى خالد بن الوليد إلى ضمان أن تبقى معنويات المسلمين مرتفعة.

* * *

معركة عين التمر

التاريخ	١٢هـ/ ٦٣٣م	
المكان	عين التمر - شمال غرب الحيرة - العراق	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الحاميات الساسانية في العراق مع بعض الجموع من العرب النصارى
القادة	خالد بن الوليد	عقة بن أبي عقة
القوى والحشود	من ٥٠٠ – ٦٠٠ مقاتل	عشرات الآلاف
الخسائر	قليلة جدًّا	كثيرة

وقعت تلك المعركة في العراق ما بين قوات المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وبين القوات الساسانية ومعها جموع من قبائل العرب النصارى، وتقع عين التمر غربي الأنبار، وهي منطقة أسسها الفرس لحماية حدودهم، فبعد سقوط الحيرة على يد خالد بن الوليد عام (١٢هـ/ ٦٣٣م) توجَّه إلى الحامية الفارسية الكبيرة، التي كانت في عين التمر، الواقعة على الطريق إلى دومة الجندل، وكان يقطنها العرب النصارى الموالين للفرس، وكانت الحامية مؤلفة من قسمين: الأول فارسي تحت قيادة القائد الفارسي مهران بن بهرام، والثاني عربي من قبائل النمر وتغلب وإياد بقيادة عقة بن أبي عقة.

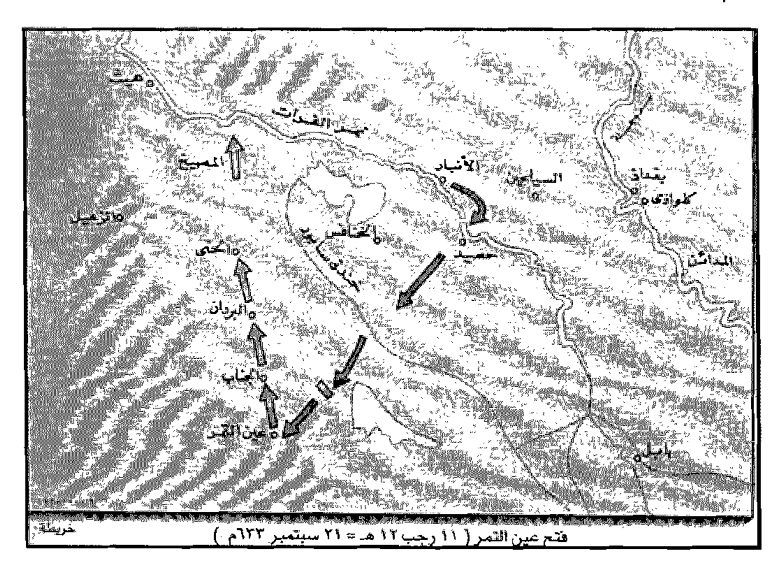
وقد تميزت هذه المعركة الغريبة بسرعة انتهائها؛ حيث لاذ العرب النصارى بالفرار قبل أن تبدأ المعركة فعليًّا.

ما قبل المعركة

يبدو أن عقة هذا كان مغرورًا ومتعجرفًا، ويبدو أن الرغبة تملكته لحيازة الفخر والمجد بالانتصار على المسلمين وحده، فقد طلب من القائد الفارسي مهران أن يخلي الساحة ليقاتل هو المسلمين وحده دون مساعدة من الفرس، وقال له: «إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا

وخالدًا». وقد علم ما حقق خالد من انتصارات قبل ذلك.

وعندما سمع مهران هذا الكلام من عقة قال له: «صدقت؛ لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب، وإنكم مثلنا في قتال العجم، دونكموهم، وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم». وكان مهران قد أراد تجنب قتال المسلمين؛ لعلمه أنهم لا يُقهرون بعد انتصاراتهم المتلاحقة في العراق في ذلك الوقت، وقد انتقد قادة الفرس ذلك الأمر من مهران، واستنكروا قوله لعقة، فقال مهران: «دعوني فإني ما أردت إلا خيرًا لكم وشرًّا لهم! إنه قد جاءكم مَنْ قتل ملوككم وفلَّ حدكم فاتقيته بهم، فإن غلبوا خالدًا فهو لكم، وإن غُلبوا قاتلنا خالدًا وقد ضعفوا ونحن أقوياء». فاعترفوا له بفضل الرَّأي عليهم.



فتح عين التمر (١١ رجب ١٢ هـ = ٢١ سبتمبر ٦٣٣م)
خريطة

المعركة

خرج عقة المغرور ومَنْ معه من العرب النصارى من عين التمر للصدام مع المسلمين، وأوغل في الصحراء غرورًا منه لمبادرة المسلمين بالهجوم، ووصل إلى منطقة الكرخ، وعبأ قواته، ووصل المسلمون إلى أرض المعركة، وعبَّأ خالد الجيش بسرعة، واستعدَّ للقتال.

ولم يكن خالد قد رأى عقة من قبل، ونظر إليه نظرة الفاحص الخبير بنفوس المحاربين، فعلم أن هذا الرجل شديد الغرور، فقرَّر القيام بحيلة بارعة شجاعة، جريئة في الوقت نفسه، وهي خطف القائد عقة نفسه في عملية فدائية أشبه ما تكون بعمليات الصاعقة، فانتخب مجموعة خاصة من أبطال المسلمين، وأطلعهم على الفكرة الجريئة.

وكانت الخطة تقضي بأن يبدأ جناحا جيش المسلمين بالمناوشات البسيطة، دون شن هجوم كبير لإشغال الطرفين المقابلين من جيش العرب النصارى، بينما بقي القلب في سكون حتى يعطي خالد إشارته بشن الهجوم، وهذا ما جعل عقة يستغرب من تأخُّر قلب جيش

المسلمين عن الهجوم، وكان خالد ومرافقيه في مقدمة الجيش.

ولكن ما حدث في اللحظات التالية هو أن الجنود اندهشوا من هذه المجموعة الصغيرة التي تهجم عليهم وهم عشرات الآلاف، ولم يفيقوا من هول الصدمة إلا وخالد قد أسر عقة وحمله بين يديه كالطفل الصغير، وعاد به إلى صفوف المسلمين، وعندها تجمدت الدماء في عروق العرب النصارى، وركبهم الفزع الشديد، ففروا من أرض المعركة دون أن يسلُّوا سيفًا واحدًا.

استكمال الهزيمة وإحراز النصر

لَّما بلغ مهران هزيمة عقَّة وجيشه، وكان قد أرسل الاستطلاع لمراقبة مجريات المعركة، نزل من الحصن وهرب مسرعًا مع حاميته باتجاه قطسيفون أو المدائن، وترك الحصن بدون حماية.

ورجعت فلول العرب إلى الحصن فوجدوه مفتوحًا فدخلوه واحتموا به، فجاء خالد وأحاط بهم وحاصرهم أشد الحصار، فلمَّا رأوا ذلك سألوه الصُّلح، فأبى إلا أن يتزلوا على حكم خالد، فجُعلوا في السَّلاسل، وتسلَّم الحصن، ثمَّ أمر فضُربت عنق عقَّة ومَنْ كان أُسر معه، والذين نزلوا على حكمه -أيضًا- أجمعين، وغنم جميع ما في ذلك الحصن.

من سبايا خالد

وجد خالد في الكنيسة التي في الحصن أربعين غلامًا يتعلمون الإنجيل وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وحافظ على حياتهم، وفرَّقهم في الأمراء وأهل البلاد.

من هؤلاء الغلمان الذين سباهم خالد من كنيسة عين التمر كان سيرين، الذي اشتراه أنس بن مالك الأنصاري وأعتقه، وهو والد الفقيه المعروف محمد بن سيرين، وكذلك كان الغلام نُصَيْر من سبي خالد في تلك الكنيسة، وهو والد الفاتح الإسلامي والقائد الشهير موسى بن نصير.

* * *

معركة دومة الجندل

التاريخ	١٢هـ/ ٦٣٣م	
المكان	دومة الجندل	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	قبيلة كلب العربية المسيحية
القادة	خالد بن الوليد	جودي بن ربيعة
القوى والحشود	١٠ آلاف	١٢ – ١٥ ألفًا
الخسائر	غير معروفة	قُتل أغلب مَنْ في الحامية، ووقعت النساء والأطفال والشبان في السبي.

كانت دومة الجندل إحدى المراكز التجارية المهمة على أطراف الجزيرة العربية، تشتهر بسوقها المكتظ والغني، وكانت نقطة التقاء مهمة للطرق التجارية بين الجزيرة العربية والعراق وسوريا.

الاعتقادات السائدة في دومة الجندل وقت المعركة

كان الناس في دومة الجندل يعبدون أصنامًا مختلفة، ولكن في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام بوقت قصير ظهرت كل من الديانتين النصرانية واليهودية فيها، وبالإضافة إليهما ظل الناس يعبدون أصنامًا مختلفة حتى ظهور الإسلام، وقد ركَّزت الروايات على وجود صنم (ود) وأنه كان يُعبد في دومة الجندل.

وقد قام خالد بن الوليد بتحطيم صنم ود بعد ظهور الإسلام عندما بعثه النبي ﷺ بعد غزوة تبوك لهدمه.

المسلمون غزوا دومة الجندل عدة مرات سابقًا

غزا المسلمون دومة الجندل في الواقع أربع مرات، كانت الأولى في العام الخامس الهجري عندما قاد النبي ﷺ غزوة دومة الجندل بنفسه ووجدها خالية من سكانها، والأخرى عام

٦هـ/ ٦٢٦م حيث أرسل النبي ﷺ عبد الرحمن بن عوف إليها؛ لأن سكانها كانوا يُغيرون على الطرق التجارية، وأوصاه بدعوتهم إلى الإسلام والزواج من بنت ملكهم، وهذا ما فعله عبد الرحمن بن عوف حيث عاد من دومة الجندل بعد إسلام ملكها الأصبغ بن عمرو الكلبي، وزواجه من ابنته تماضر.

وفي عام ٩هـ/ ٦٣٠م أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد إليها على ٤٢٠ فارسَ ليجلب له ملكها أكيدر بن عبد الملك الكندي الذي أسلم بين يدي الرسول آنذاك، ثم كتب بعدها النبي ﷺ ميثاقًا إلى أهل دومة الجندل.

خلفية المعركة

في عام ١٢هـ/ ٦٣٣م وفي الوقت الذي أمر الخليفة أبو بكر الصديق خالد بن الوليد بالتحرك من اليمامة لغزو العراق، أرسل عياض بن غنم لفتح دومة الجندل وإعادة القبائل الشمالية إلى النفوذ الإسلامي.

وصل عياض إلى دومة الجندل ليراها محصَّنة تحصينًا شديدًا من قبيلة كلب العربية المسيحية التي كانت تقطن المنطقة على الجانب الشرقي لسوريا، وتمركز عياض على الجهة الجنوبية من الحصن، حيث نشأت حالة تُعتبر هراءً من الناحية العسكرية، فقد اعتبر العرب المسيحيون أنفسهم محاصرين رغم أن الطريق إلى الشمال كان مفتوحًا، والمسلمون الذين كانوا ملاصقين للحصن لم يستطيعوا التوقف عما هم فيه، وحسب المؤرخين فقد كان الطرفان محاصرَيْن.

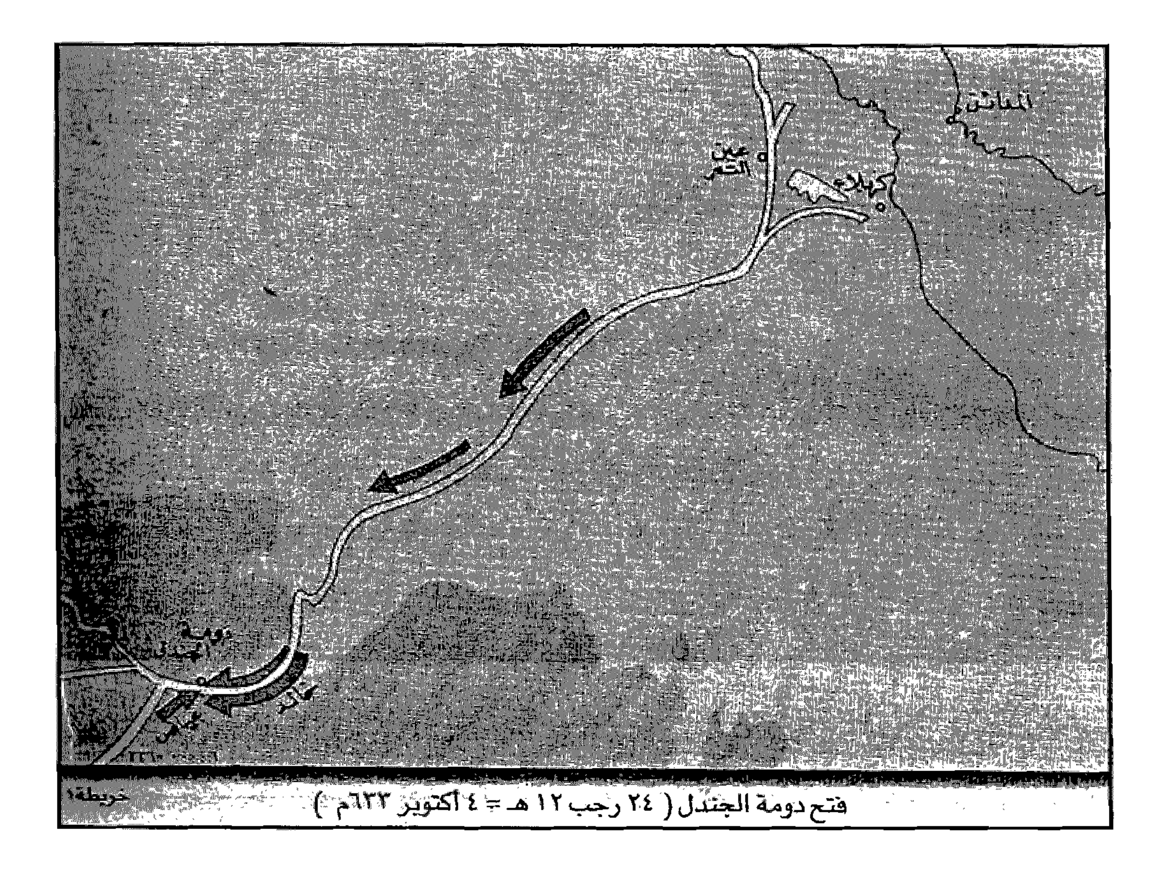
وقد انحصرت العمليات القتالية على رمي النبال والتراشق من جانب حامية الحصن، وقد دامت تلك الحالة لعدة أسابيع حتى تعب الطرفان في الوقت نفسه، وعانوا من الأضرار بالحجم نفسه تقريبًا، واتبع القائد المسلم عياض نصيحة أحد رجاله بالكتابة إلى خالد بن الوليد في العراق طلبًا للمساعدة، ففعل وشرح له الوضع القائم في دومة الجندل.

وصلت هذه الرسالة إلى خالد عندما كان يهم بالرحيل من عين التمر باتجاه الحيرة، وكانت الأوضاع في العراق قد استقرت، في اليوم التالى لوصول نبأ عياض غادر خالد بن الوليد عين التمر على رأس ستة آلاف رجل باتجاه دومة الجندل.

التعبئة العامة الجديدة

عرفت الحامية في دومة الجندل بقدوم خالد إليها، وكان في قيادتها كل من أكيدر بن عبد الملك الكندي الذي ارتد عن الإسلام والجودي بن ربيعة، ونشب خلاف بين القائدين العربيين فتنازل أكيدر عن القيادة، ويروي الطبري في تاريخه أنه لما بلغهم دنو خالد وكانوا على رئيسين أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة اختلفوا، فقال أكيدر: «أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائرًا منه، ولا أَحَدَّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قومًا أبدًا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم». فأبوا عليه، فقال لهم: «لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم». فخرج وبلغ ذلك خالد، فبعث عاصم بن عمرو معارضًا له، فأخذه وأتى به إلى خالد فضُربت عنقه.

وأُعلنت حالة الاستنفار في الحصن، حيث كانت الحامية مستعدَّة للصمود أمام عياض بن غنم، ولا فرصة لها بالصمود إذا شارك خالد في الحصار، وأرسل المحاصَرون رسلَهم على عجل إلى القبائل العربية المجاورة يطلبون الدعم، وقد لبَّت القبائل العربية



خريطة١ فتح دومة الجندل (٢٤ رجب ١٢ هـ = ٤ أكتوبر ٦٣٣م)

المسيحية نداء الاستغاثة بحماس؛ فقد انضمت قوات من الغساسنة ومن كلب للدفاع عن الحصن؛ حيث عسكر أغلبهم تحت جدران الحصن بسبب ضيق المكان فيه.

سير المعركة

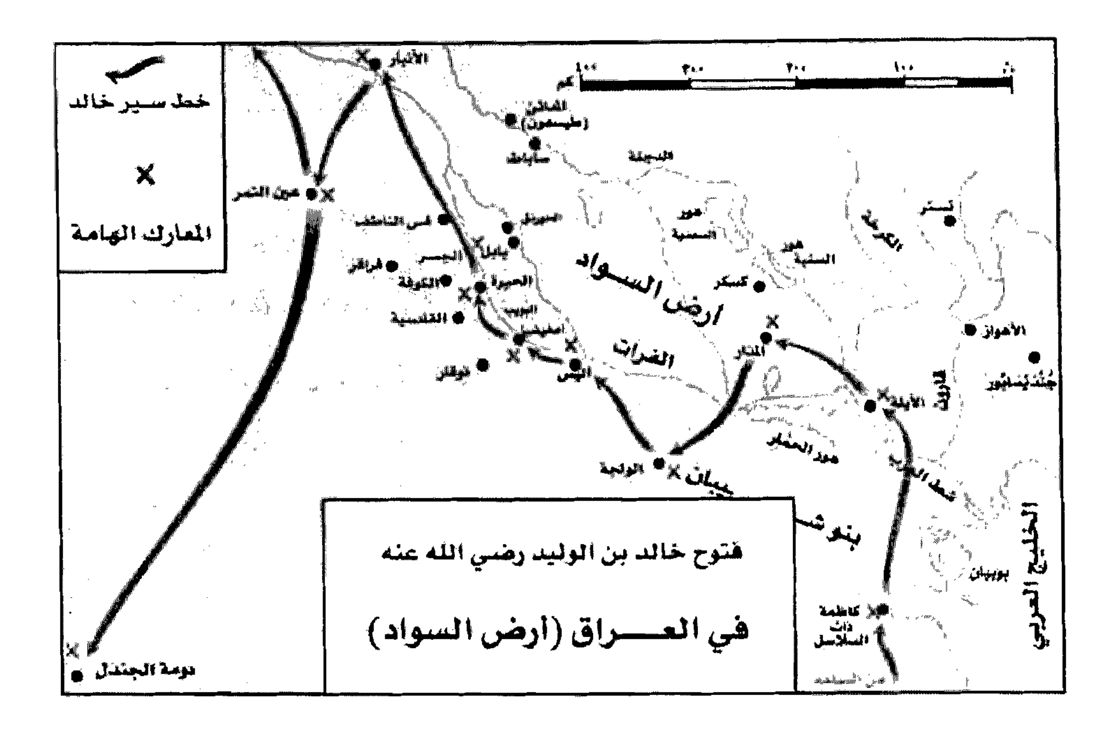
بعد وصول خالد بن الوليد ضم عياضًا إلى قيادته، وصار مجموع قوات المسلمين حوالي ١٠ آلاف في مواجهة ١٢- ١٥ ألفًا في المقابل.

أوكل خالد لرجال عياض بن غنم بسد الطريق إلى الجنوب من الحصن، وتمركز بجيشه إلى الجهات الشرقية والشمالية والغربية؛ مغلقًا بذلك الطرق إلى العراق والأردن، مستبقيًا بعض قواته القوية على مسافة أبعد كاحتياطي؛ حتى يستطيع تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة قبل الهجوم على الحامية بعد إضعافها، وقد تمركز بقواته بعيدة عن الحصن.

وانتظر قائد العرب المسيحيين جودي بن ربيعة المسلمين كي يقوموا بالحركة الأولى، ولكن المسلمين بقوا هادئين، وبعد فترة وجد جودي أن المسلمين لن يقوموا بالهجوم، فقرَّر هو البدء بالهجوم والتحرك بمجموعتين؛ الأولى تهاجم عياضًا على الطريق العربي، بينما يقود هو المجموعة الثانية الأكثر عددًا، التي تضم قبيلته وديعة، لمهاجمة معسكر خالد بن الوليد الواقع في الشمال.

وتمكن عياض من رد الهجوم، بينما خرجت المجموعة الأكبر، بقبيلة وديعة وتحت قيادة جودي، وفي الوقت نفسه لمهاجمة خالد، الذي كان على الطرف الآخر من الحصن متأهبًا بجيشه للمعركة، وعندما رأى جودي أن المسلمين لم يحرِّكوا ساكنًا قرَّر الهجوم؛ فقد نظم قبيلته للقتال وتقدم لمواجهة خالد، وعندما صارت المسافة قريبة جدًّا بين الجيشين أمر خالد فجأة بالهجوم، وضرب جودي بعنف وسرعة كبيرين، فدُمر جيش جودي خلال دقائق قليلة.

أُسر جودي مع مئات من رجال قبيلته، بينما هرب الباقون بشكل عشوائي باتجاه الحصن، أما العرب الباقون في الحصن والذين لم يغادروه فقد رأوا حشدًا كبيرًا من البشر يهرع باتجاه الحصن، نصفهم من المسلمين، فأغلقوا أبواب الحصن بوجه رفاقهم، ومُنعت قبيلة وديعة التي كانت تقاتل مع جودي من الحصن، ووقع المئات منهم في الأسر، وقُتل الباقون منهم خلال المعركة العنيفة الخاطفة، وقتل آخرون بعد المعركة أثناء القتال عند بوابة الحصن.



أخذ خالد جودي ومَنْ أُسِرَ معه إلى أمام الحصن؛ كي يرى الجميع قطع رءوسهم، ودام الحصار بعد ذلك لعدة أيام أخرى، وبعدها هاجم خالد الحصن، ودافعت الحامية ما استطاعت، وأبدت مقاومة قدر المستطاع، ولكن أمام جيش خالد المدرب جيدًا على القتال لم يكن لها أي فرصة، فذُبِحت أغلبية الحامية، بينما وقعت النساء والأطفال والشبان في السبي، كان ذلك في آخر أسبوع من شهر أغسطس من عام (١٢هـ/ ٦٣٣م).

بعد المعركة

أمضى خالد بن الوليد عدة أيام بعد المعركة في دومة الجندل، توجَّه بعدها إلى الحيرة واصطحب معه عياض بن غنم تحت قيادته، وعند وصوله إلى الحيرة كانت الأوضاع في الجبهة العراقية قد ساءت من جديد.

* * *

معركة أجنادين

التاريخ	١٣هـ/ ٦٣٤م	
المكان	أجنادين قرب مدينة الرملة في فلسطين	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية البيزنطية
القادة	خالد بن الوليد	القبقلار
القوى والحشود	٤٠ ألف مقاتل	٩٠ ألف مقاتل
الخسائر	٤٥٠ شهيدًا	أعداد هائلة تجاوزت الآلاف

معركة أجنادين هي معركة وقعت بين المسلمين والبيزنطيين عام (١٣هـ/ ٦٣٤م) قرب مدينة الرملة في فلسطين، وكانت أول لقاء كبير بين جيوش الخلافة الراشدة والروم البيزنطيين في الصراع على الشام، وجرت قبل حوالي سنتين من اللقاء الفاصل والحاسم في معركة اليرموك عام (١٥هـ/ ٦٣٦م).

الاستعانة بخالد بن الوليد

بعث الصديق إلى خالد بن الوليد بأن يقدم إلى الشام ومعه نصف قواته، التي كانت معه في العراق، حتى يلتقي بأبي عبيدة بن الجراح ومَنْ معه، ويتسلم القيادة العامة للجيوش كلها، وفي الوقت نفسه كتب الصديق إلى أبي عبيدة يخبره بما أقدم عليه، وجاء في كتابه: «.. فإني قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له وأطع أمره، فإني قد وليته عليك، وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد، والسلام عليك ورحمة الله».

امتثل خالد بن الوليد لأوامر الخليفة، وخرج من الحيرة بالعراق في (٨ من صفر ١٣هـ/ ١٤ من أبريل ٦٣٤م) في تسعة آلاف جندي، فسار شمالاً ثم عرج حتى اجتاز صحراء السماوة في واحدة من أجرأ المغامرات العسكرية في التاريخ، وأعظمها خطرًا؛ حيث قطع أكثر

من ألف كيلو متر في ثمانية عشر يومًا في صحراء مُهلكة حتى نزل بجيشه أمام الباب الشرقي لدمشق، ثم سار حتى أتى أبا عبيدة بالجابية؛ فالتقيا ومضيا بجيشهما إلى بصرى.

تجمعت الجيوش كلها تحت قيادة خالد بن الوليد، وحاصر بصرى حصارًا شديدًا واضطرت إلى طلب الصلح ودفع الجزية، فأجابها خالد إلى الصلح وفتحها الله على المسلمين في (٢٥ ربيع الأول ١٣هـ/ ٣٠ مايو ٦٣٤م)، فكانت أول مدينة فُتحت من الشام صلحًا على أن يُؤَمَّنُوا على دمائهم وأموالهم وأولادهم، نظير الجزية التي سيدفعونها.

الاستعداد لأجنادين

بعد سقوط بُصرى استنفر هرقل قواته، وأدرك أن الأمر جدٌّ لا هذر فيه، وأن مستقبل الشام بات في خطر ما لم يُواجِه المسلمين بكل ما يملك من قوة وعتاد، حتى تسلم الشام وتعود طيعة تحت إمرته، فحشد العديد من القوات الضخمة، وبعث بها إلى بصرى حيث شرحبيل بن حسنة في قواته المحدودة، وفي الوقت نفسه جهَّز جيشًا ضخمًا، ووجَّهه إلى أجنادين من جنوب فلسطين، وانضم إليه نصارى العرب والشام.

تجمَّعت الجيوش الإسلامية مرَّة أخرى عند أجنادين، وهي موضع يبعد عن «بيت جبرين» بحوالي أحد عشر كيلو مترًا، وعن الرملة حوالي تسعة وثلاثين كيلو مترًا، وكانت ملتقى مهمًّا للطرق.

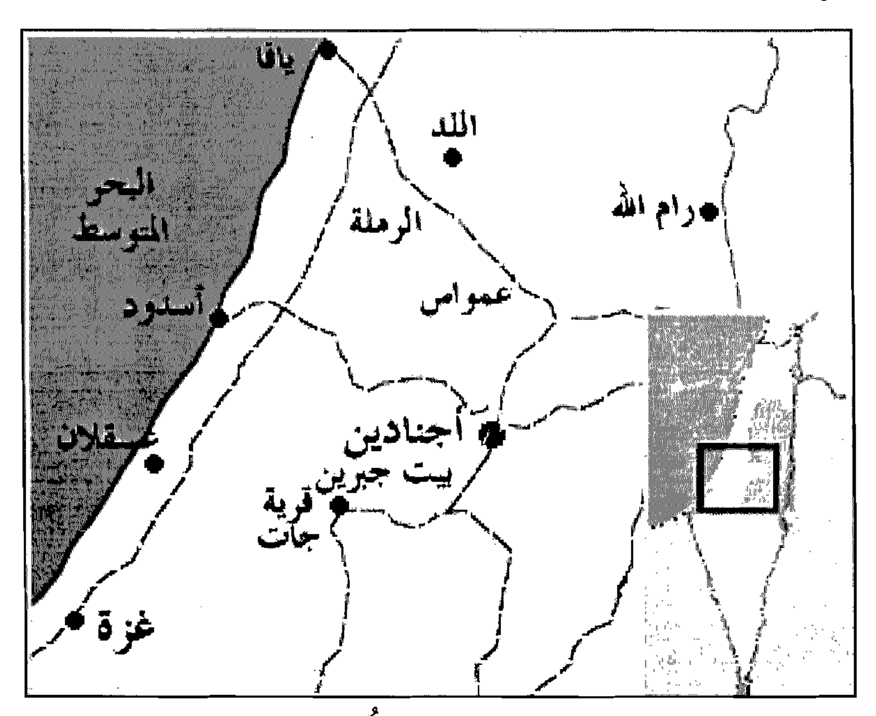
نظَّم خالد بن الوليد جيشه البالغ نحو ٤٠ ألف جندي، وأحسن صنعه وترتيبه على نحو جديد، فهذه أول مرَّة تجتمع جيوش المسلمين في الشام في معركة كبرى مع الروم، الذين استعدوا للقاء بجيش كبير بلغ ٩٠ ألف جندي.

شكَّل خالد جيشه ونظَّمه ميمنة وميسرة، وقلبًا ومؤخرة؛ فجعل على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة سعيد بن عامر، وعلى المشاة في القلب أبا عبيدة بن الجراح، وعلى الخيل سعيد بن زيد، وأقبل خالد يمرُّ بين الصفوف لا يستقرُّ في مكان، يُحَرِّض الجند على القتال، ويحثهم على الصبر والثبات، ويشدُّ من أزرهم، وأقام النساء خلف الجيش يبتهلن إلى الله ويدعونه، ويستصرخنه ويستنزلن نصره ومعونته، ويحمسن الرجال.

وتهيأ جيش الروم للقتال، وجعل قادته الرجالة في المقدمة، يليهم الخيل، واصطفَّ الجيش في كتائب، ومدَّ صفوفهم حتى بلغ كل صفٍّ نحو ألف مقاتل.

اشتعال المعركة

وبعد صلاة الفجر من يوم (٢٧ جمادى الأولى ١٣هـ/ ٣٠ من يوليو ٦٣٤م) أمر خالد جنوده بالتقدم حتى يقتربوا من جيش الروم، وأقبل على كل جمع من جيشه يقول لهم: «**اتقوا الله عباد الله، قاتلوا في الله من كفر بالله ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقدموا كإقدام الأسد وأنتم أحرار كرام، فقد أبيتم الدنيا واستوجبتم على الله ثواب الآخرة، ولا يهولكم ما ترون من كثرتهم؛ فإن الله منزل عليهم رجزه وعقابه**». ثم قال: «**أيها الناس إذا أنا حملت فاحملوا**».



وكان خالد بن الوليد يرى تأخير القتال حتى يُصَلُّوا الظهر وتهب الرياح، وهي الساعة التي كان رسول الله ﷺ يحب القتال فيها، ولو أدَّى ذلك أن يقف مدافعًا حتى تحين تلك الساعة.

أُعجب الروم بكثرتهم وغرتهم قوتهم وعتادهم فبادروا بالهجوم على الميمنة؛ حيث يقف معاذ بن جبل، فثبت المسلمون ولم يتزحزح أحد، فأعادوا الكرة على الميسرة، فلم تكن أقلَّ ثباتًا وصبرًا من الميمنة في تحمُّل الهجمة الشرسة وردِّها، فعادوا يُمطرون المسلمين بنبالهم، فتنادى قادة المسلمين طالبين من خالد أن يأمرهم بالهجوم، حتى لا يظن الروم بالمسلمين

ضعفًا ووهنًا ويُعاودون الهجوم عليهم مرَّة أخرى، فأقبل خالد على خيل المسلمين، وقال: «احملوا رحمكم الله على اسم الله». فحملوا حملة صادقة زلزلت الأرض من تحت أقدام عدوهم، وانطلق الفرسان والمشاة يُمَزِّقون صفوف العدو، فاضطربت جموعهم، وهانت قواهم.

فلما رأى القبقلار قائد الروم أن الأمر خرج من يده، وأن الهزيمة واقعة لا محالة بجنوده قال لمن حوله: «لفوا رأسي بثوب». فلما تعجبوا من طلبه قال: «يوم البئيس لا أحب أن أراه! ما رأيت في الدنيا يومًا أشد من هذا». وما لبث أن حزَّ المسلمون رأسه وهو ملفوف بثوبه، فانهارت قوى الروم، واستسلمت للهزيمة، ولما بلغ هرقل أخبار الهزيمة امتلأ قلبه رعبًا.

بطولة وفداء

وفي هذه المعركة أبلى المسلمون بلاءً حسنًا، وضربوا أروع الأمثلة في طلب الشهادة، وإظهار روح الجهاد والصبر عند اللقاء، وبرز في هذا اليوم من المسلمين ضرار بن الأزور، وكان يومًا مشهودًا له، وبلغ جملة ما قتله من فرسان الروم ثلاثين فارسًا، وقتلت أم حكيم الصحابية الجليلة أربعة من الروم بعمود خيمتها.

وبلغ قتلى الروم في هذه المعركة أعدادًا هائلة تجاوزت الآلاف، واستشهد من المسلمين ٤٥٠ شهيدًا.

الرسالة

وبعد أن انقشع غبار المعركة وتحقق النصر، بعث خالد بن الوليد برسالة إلى الخليفة أبي بكر الصديق يُبَشِّره بالنصر وما أفاء الله عليهم من الظفر والغنيمة، وجاء فيها: «.. أما بعد فإني أخبرك أيها الصديق أنا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعًا جمة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يفنون أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله، فطاعناهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كل فج.. فأحمد الله على إعزاز دينه وإذلال عدوه، وحسن الصنيع لأوليائه». فلما قرأ أبو بكر الرسالة فرح بها، وقال: «الحمد لله الذي نصر المسلمين، وأقرَّ عيني بذلك».

* * *

معركة الجسر

التاريخ	١٣هـ/ ٦٣٥م	
المكان	قِسّ النَّاطِف - العراق	
النتيجة	هزيمة المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية الساسانية الفارسية (زرادشتيون)
القادة	أبو عبيد الثقفي	بهمن جاذويه
القوى والحشود	٨ آلاف مقاتل	٧٠ ألف مقاتل، ١٠ فيلة
الخسائر	٤ آلاف شهيد	أكثر من ٥ آلاف قتيل

يُقَدِّم لنا تاريخ العسكرية الإسلامية كثيرًا من الدروس، التي تبقى الاستفادة منها واجبة وممكنة في كل وقت، وحتى تلك المعارك التي خسر فيها المسلمون تستدعي التوقف عندها وقراءة الأسباب التي أدَّت إلى الهزيمة، ولعل أشهر تلك المعارك معركة الجسر التي جرت يوم الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ١٣ هجرية.

أجواء الإعداد للمعركة

نتيجة للتطورات العسكرية على الجبهة مع الرومان تم نقل قسم كبير من الجيش إلى الجبهة المواجهة للرومان، عندها ركز الفرس جهدهم على تصفية الوجود الإسلامي في العراق، فقرَّر القائد المثنى بن حارثة تجميع الجيش المسلم على حدود العراق، وذهب مسرعًا لعرض الأمر على الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ فوجده يحتضر، وسرعان ما توفي وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب ﷺ، فعرض عليه المثنى الوضع العسكري في العراق، وقد كانت المهام كثيرة أمام عمر بن الخطاب بعد تسلُّمه الخلافة، ومع ذلك أَوْلَى الجهاد ضد الفرس في العراق اهتمامه، فنادى على الناس داعيًا إياهم للجهاد ضد الفرس، ولكن الوضع لم يكن واضحًا

تمامًا بالنسبة للمسلمين في تلك الفترة الانتقالية بين حكم خليفتين، فتردَّد الناس في تلبية الدعوة، وبعد محاولات متكررة منه استجاب حوالي ألف رجل، فجمعهم وأمَّر عليهم أبا عبيد الثقفي، ووجههم للعراق، وبحسب إجماع المؤرخين، لم يكن أبو عبيد الثقفي مؤهلاً تمامًا للقيادة، ولكنه كان معروفًا بشجاعته وإخلاصه وتقواه؛ حتى إن المثل كان يُضرب بشجاعته بين العرب وقتها، وهو ما كان يُدركه عمر بن الخطاب ﷺ، ولكن في تلك الفترة العصيبة لم يكن أمامه خيار آخر سوى تسليم قيادة الجيش لأبي عبيد، الذي ما إن دخل العراق حتى نظَّم الصفوف، واستطاع بفضل الله ثم بشجاعته وإقدامه أن يستعيد كل الأراضي التي تخلَّى عنها المسلمون، وبجيشه الذي لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل استطاع أن ينتصر في ثلاث معارك كبيرة هي النمارق والسقاطية وباقسياثا، وكان الخليفة عمر يتابع باهتمام وبشكل مباشر أخبار أبي عبيد، فاطمأن إلى أهليته في قيادة الجيش بعد الانتصارات التي حققها.

الوضع عند الفرس

كان لهذه الانتصارات التي حققها المسلمون بقيادة أبي عبيد أثر مدو على الفرس، فتزعزعت الجبهة الداخلية الفارسية بقوة؛ حتى إن خصوم رستم ثاروا عليه، واتهموه بالتقصير والتخاذل عن قتال المسلمين، وبدأ الانهيار المعنوي في صفوف الجيش الفارسي، وكان لابد على رستم أن يتحرك لوقف التدهور على الجبهة الداخلية من جهة، وتحقيق أي نصر على جيش المسلمين يرفع من الحالة المعنوية لجيشه، فعقد اجتماعًا على أعلى المستويات القيادية، واستدعى القائد ألجالينوس، الذي فرَّ من قتال المسلمين، وغضب عليه بشدَّة، وحكم عليه بالقتل مع وقف التنفيذ، وأنزل رتبته من قائد عام إلى مساعد القائد العام، ثم تشاور مع كبار قادة جيوشه في كيفية تحقيق النصر على المسلمين، ولو مرة واحدة في محاولة منه لرفع الحالة المعنوية لجنود الفرس، الذين هُزموا في كل لقاءاتهم مع المسلمين، وكان رستم داهية، فاختلى بألجالينوس القائد السابق للجيش، وتشاور معه حول نقاط القوة في جيش المسلمين، ونقاط الضعف في جيشه، فشرح له ألجالينوس أن كثرة العدد لا تفيد مع جيش المسلمين؛ لأن أسلوبهم القتالي يعتمد على الكرِّ والفرِّ، وإنهم يُبدعون في قتال الأماكن المنبسطة التي تماثل بيئتهم الصحراوية، وغير ذلك من النقاط التي وضعها رستم في حسبانه، واستفاد منها في إعداده للجيش.

كانت الخطوة الأولى التي قام بها رستم هي اختيار قائد قوي للجيش، فاختار أمهر القادة الفرس وأدهاهم، وهو (ذو الحاجب بهمن جاذويه)، وكان من أشد قادة الفرس كِبرًا وحقدًا على المسلمين والعرب، وإنما تسمى بذي الحاجب لأنه كان يعصب حاجبيه الكثيفين ليرفعهما عن عينيه تكبرًا، فأسند له رستم قيادة الجيش الذي بلغ أكثر من سبعين ألف فارسي، كما اختار رستم بنفسه أمراء الجند وأبطال الفرسان، وليتغلب على أسلوب المسلمين في قتال الكرِّ والفرِّ زوَّد الجيش ولأول مرة بسلاح المدرعات الفارسي، وهي الفيلة، وليضفي رستم أهمية خاصة على هذا الجيش المدرع أعطاه راية الفرس العظمى واسمها (دارفن كابيان)، وكانت مصنوعة من جلد النمور، وكانت هذه الراية لا تخرج إلا مع ملوكهم في معاركهم الحاسمة.

وكان أبو عبيد يتابع عبر استخباراته التحركات العسكرية للفرس، فوصلته أخبار الجيش الجرار الذي أعدَّه رستم لمحاربة جيش المسلمين فتوجَّه بجيشه إلى منطقة في شمال الحيرة تسمى «قِسّ النَّاطِف»، وعسكر بجيشه في هذه المنطقة انتظارًا لقدوم جيش الفرس، وقَدِمَ الفُرسُ، ووقفوا على الجانب الآخر من نهر الفرات؛ فالمسلمون على الناحية الغربية، والفرس على الناحية الشرقية بقيادة بهمن جاذويه، وكان بين الشاطئين جسرٌ عائم أقامه الفرس في هذه الآونة للحرب، وقد كان الفرس مهرة في بناء هذه الجسور، وأرسل بهمن جاذويه رسولاً إلى الجيش الإسلامي يقول له: «إما أن نعبر إليكم، وإما أن تعبروا إلينا».

أبو عبيد يخالف نصيحة عمر

كان عمر بن الخطاب نصح أبي عبيد قبل أن يخرج إلى القتال وقال له: «لا تُفشِينَّ لك سرًّا؛ لأنك مالكٌ أمرك؛ حتى يخرج سِرُّك من بين جنبيك، ولا تحدِثَنَّ أمرًا حتى تستشير أصحاب رسول الله ﷺ». وأوصاه خاصة بسعد بن عبيد الأنصاري وسليط بن قيس من الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعًا، وأخطأ أبو عبيد الخطأ الأول فأخذ يناقش أصحابه ويشاورهم أمام رسول الفرس، وهذا إفشاء للسر ولأمور التنظيم الحربي، وأخذته الحميَّة عندما وصلته الرسالة؛ وقال: «والله! لا أتركهم يعبرون ويقولون: إنا جَبُنَّا عن لقائهم». واجتمع الصحابة على عدم العبور إليهم، وقالوا له: «كيف تعبر إليهم وتقطع على نفسك خط الرجعة، فيكون الفرات من خلفك؟!». وقد كان المسلمون وأهل الجزيرة العربية يجيدون الحرب في الصحراء، ودائمًا كان المسلمون يجعلون لأنفسهم خط رجعة في الصحراء،

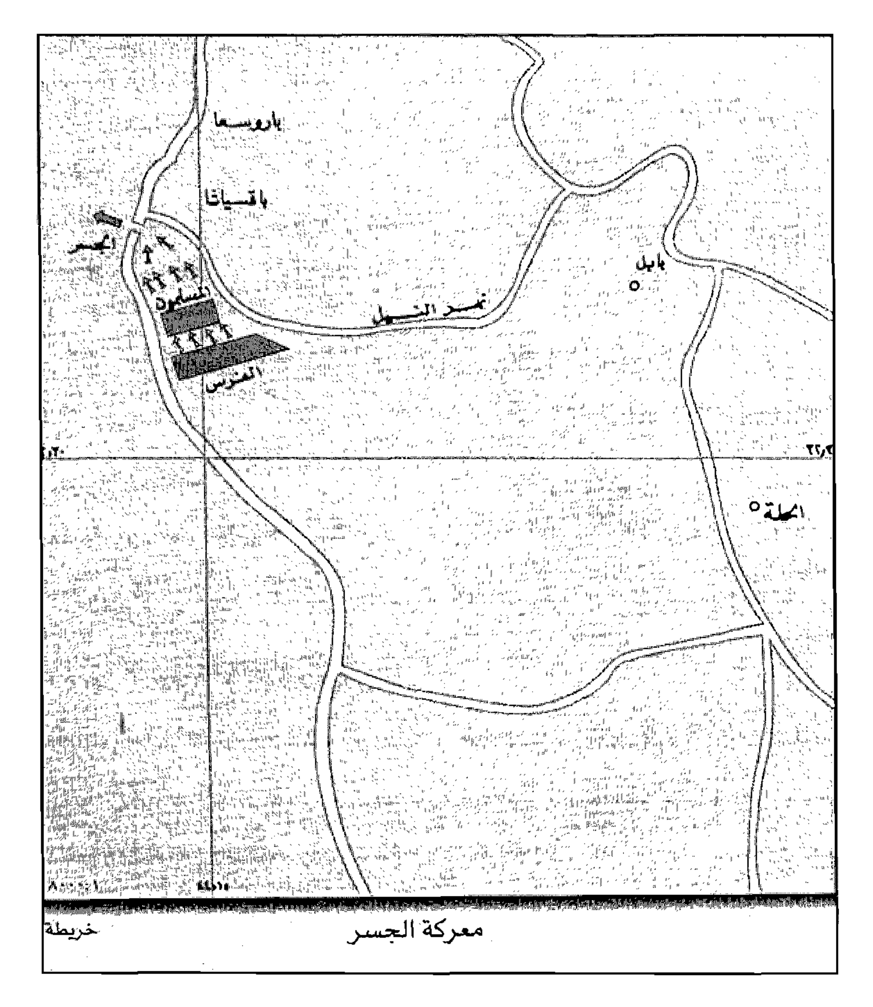
وإذا حدثت هزيمة يستطيع الجيش أن يرجع إلى الصحراء ولا يهلك بكامله، ولكن أبا عبيد أصرَّ على رأيه بالعبور، وذكَّره أصحابه بقول عمر بن الخطاب: «أَنِ اسْتشر أصحاب رسول الله ﷺ». فقال: «والله لا نكون عندهم جبناء». وهذا كله يحدث أمام رسول الفرس، الذي استغل الفرصة ليُثير حميَّة أبي عبيد، فقال: «إنهم يقولون: إنكم جبناء، ولن تعبروا لنا أبدًا». فقال أبو عبيد: «إذن نعبر إليهم». وسمع الجنود وأطاعوا، وبدأ الجيش الإسلامي يعبر هذا الجسر الضيِّق للوصول للناحية الأخرى التي يوجد بها الجيش الفارسي.

ونلاحظ في هذا الموقف أن الجيش الإسلامي يدخل في منطقة محصورة بين نهر يُسمى النيل وهو نهر صغير وأحد روافد نهر الفرات وبين نهر الفرات، وكلا النهرين يمتلئ بالمياه، والجيش الفارسي يُغلق باقي المنطقة، فلو دخل المسلمون هذا المكان فليس أمامهم إلا القتال مع الجيش الفارسي، والفرس يدركون أهمية هذا الموقع جيدًا، فأَخْلَوْا مكانًا ضيقًا ليعبر المسلمون إليهم، ويتكدس الجيش الإسلامي في منطقة صغيرة جدًّا، ويرى المثنى بن حارثة ذلك ويُعيد النصيحة لأبي عبيد قائلاً له: «إنما تلقي بنا إلى الهَلَكَة». ويُصِرُّ أبو عبيد على رأيه. وعبر الجيش الإسلامي بالفعل إلى هذه المنطقة، وكان مع الفُرْسِ عشرة أفيال منها الفيل الأبيض، وهو أشهر وأعظم أفيال فارس في الحرب، وتتبعه كل الفيلة إن أقدم أقدموا وإن أحجم أحجموا.

المعركة

بدأت المعركة وتقدَّمت الجيوش الفارسية يتقدَّمها الفيلة إلى الجيش الإسلامي المحصور بين نهري الفرات ورافده نهر النيل، وتراجعت القوات الإسلامية تدريجيًّا أمام الأفيال، ولكن خلفهم نهرين فاضطروا للوقوف انتظارًا لهجوم الفيلة وقتالها، وكانت شجاعة المسلمين وقوتهم فائقة، ودخلوا في القتال، ولكن الخيول بمجرد أن رأت الأفيال فزعت وهربت، وكانت سببًا في إعاقة إقدام المسلمين على القتال، وعادت الخيول إلى الوراء وداهمت مشاة المسلمين، ولم تُفلح محاولات المسلمين لإجبار الخيول على الإقدام؛ لعدم تمرُّسها على مواجهة الأفيال، وفي هذه اللحظة وبعد أن أخطأ أبو عبيد في إفشاء السر أمام رسول الفرس، وأخطأ في العبور مخالفًا مشورة أصحاب رسول الله ﷺ، وأخطأ باختياره هذا المكان للمعركة، وبعد كل هذه الأخطاء كان لا بد عليه أن ينسحب بجيشه سريعًا من أرض المعركة، كما فعل

خالد بن الوليد في معركة المذار؛ عندما علم أنه سيكون محاطًا بجيش من الجنوب، انسحب سريعًا بجيشه حتى يقابل جيش الأندرزغار في الولجة.



خريطة معركة الجسر

لكن أبا عبيد استقتل، وقال: «لأقاتلنَّ حتى النهاية». وإن كانت هذه شجاعة فائقة منه؛ فإن الحروب كما تقوم على الشجاعة لا بد أن يكون هناك حكمة في التعامل مع الحدث، وبدأت أفيال الفرس تهاجم المسلمين بضراوة، وأمر أبو عبيد أن يتخلَّى المسلمون عن الخيول ويحاربوا الفرس جميعًا وهم مشاة، وفقد المسلمون بذلك سلاح الخيول، وأصبحوا جميعًا مشاة أمام قوات فارسية مجهزة بالخيول والأفيال، واشتد وَطِيسُ الحرب، ولم يتوانَ المسلمون عن القتال، وتقدَّم أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وقال: «دُلُّوني على مقتل الفيل». كما قال من قبل المثنى بن حارثة، فقيل له: «يُقتَلُ من خرطومه». فتقدم ناحية الفيل الأبيض بمفرده،

فقالوا له: «يا أبا عبيد؛ إنما تُلقي بنفسك إلى التهلكة وأنت الأمير». فقال: «والله! لا أتركه؛ إما يقتلني وإما أقتله». وتوجه ناحية الفيل، وقطع أحزمته التي يُحمل فوقها قائدُ الفيل، ووقع قائد الفيل وقتله أبو عبيد بن مسعود، ولكن الفيل لا يزال حيًّا، وهو مُدَرَّب تدريبًا جيدًا على القتال، وأخذ أبو عبيد يُقاتل هذا الفيل العظيم، ويقف الفيل على قدميه الخلفيتين ويرفع قدميه الأماميتين في وجه أبي عبيد، ولكنَّ أبا عبيد لم يتوانَ عن محاربته ومحاولة قتله، وعندما شَعَر بصعوبة الأمر أوصى مَنْ حوله: «إن أنا مِتُّ، فإمرة الجيش لفلان ثم لفلان». ويُعَدِّد أسماء مَنْ يخلفونه في قيادة الجيش، وهذا -أيضًا- من أخطاء أبي عبيد؛ لأن أمير الجيش يجب أن يحافظ على نفسه، ليس حبًّا في الحياة؛ ولكن حرصًا على جيشه وجنده في تلك الظروف، وليس الأمر شجاعة فحسب، ولأنه بمقتل الأمير تنهار معنويات الجيش، وتختل الكثير من موازينه، ومن الأخطاء -أيضًا- أن أبا عبيد أوصى بإمرة الجيش بعده لسبعة من ثقيف؛ منهم ابنه، وأخوه، والثامن المثنى بن حارثة، وكان الأَوْلى أن يكون الأمير بعده مباشرة المثنى أو سليط بن قيس، كما أوصاه عمر بن الخطاب ﷺ.

استشهاد أبي عبيد وتولِّي المثنى

ويواصل أبو عبيد قتاله مع الفيل ويحاول قطع خرطومه، لكن الفيل يعاجله بضربة فيقع على الأرض، ويهجم عليه الفيل ويدوسه بأقدامه الأماميتين فيمزِّقهُ أشلاءً، وقد كان موقفًا صعبًا على المسلمين حينما يرون قائدهم يُقتَل هذه القتلة البشعة، ويتولى إمرة الجيش بعده مباشرة أول السبعة، ويحمل على الفُرس ويستقتل ويُقتل، وكذا الثاني والثالث وهكذا، وقد قُتل في هذه المعركة ثلاثة من أبناء أبي عبيد بن مسعود الثقفي، كان أحدهم أميرًا على الجيش، وقُتِل كذلك أخوه الحكم بن مسعود الثقفي، وكان أحد الأمراء على الجيش بعد استشهاد أبي عبيد، وتأتي الإمرة للمثنى بن حارثة، والأمر كما نرى في غاية الصعوبة، والفُرس في شدَّة هجومهم على المسلمين.

وفي هذه اللحظة يبدأ بعض المسلمين في الفرار عن طريق الجسر إلى الناحية الأخرى من الفرات، وهذه أول مرة في فتوح فارس يفِرُّ فيها بعض المسلمين من القتال، وهذا الفرار في هذا الموقف له دليل شرعي ولا يُعَدُّ فرارًا من الزحف، وقد قيل: «إن الفرار من المثلين جائز». فما بالنا وجيش الفرس ستة أو سبعة أمثال جيش المسلمين؟! ولكن يُخطِئ أحد المسلمين خطأً

جسيمًا آخر، فيذهب عبد الله بن مرثد الثقفي ويقطع الجسر بسيفه، ويقول: «والله! لا يفِرُّ المسلمون من المعركة؛ فقاتِلُوا حتى تموتوا على ما مات عليه أميركم». ويستأنف الفُرْسُ القتال مع المسلمين، ويزداد الموقف صعوبة، ويُؤتَى بالرجل الذي قطع الجسر إلى قائد الجيش المثنى بن حارثة، فيضربه المثنى، ويقول له: «ماذا فعلت بالمسلمين؟» فقال: «إني أردت ألا يفرَّ أحد من المعركة». فقال: «إن هذا ليس بفرار».

انسحاب منظم عبر الجسر

وبدأ المثنى في هدوء يُحسب له يقود حركة الجيش المسلم المتبقي بعد الهجمات الفارسية القاسية والشديدة، ويقول لجيشه محمِّسًا لهم: «يا عباد الله، إما النصر وإما الجنة». ثم نادى على المسلمين في الناحية الأخرى أن يُصلحوا الجسر ما استطاعوا، وكان مع المسلمين بعض الفرس الذين كانوا قد أسلموا، وكانوا ذوي قدرة على إصلاح الجسور، فبدءوا يصلحون الجسر من جديد، وبدأ المثنى يقود إحدى العمليات الصعبة، وهي عملية انسحاب في هذا المكان الضيِّق أمام القوات الفارسية العنيفة، فأرسل إلى أشجع المسلمين، واستنفرهم ولم يستكرههم، وقال: «يقف أشجع المسلمين على الجسر لحمايته». فتقدَّم لحماية الجسر عاصم بن عمرو التميمي، وزيد الخيل، وقيس بن سليط صحابي رسول الله ﷺ، والمثنى بن حارثة على رأسهم، ووقف كل هؤلاء ليقوموا بحماية الجيش أثناء العبور، ويحموا الجسر لئلاً يقطعه أحد من الفرس، ويقول المثنى بن حارثة للجيش في هدوء غريب: «اعبروا على هِيِّنَتِكم ولا تفزعوا؛ فإنا نقف من دونكم، والله لا نزايل (أي لا نترك هذا المكان) حتى يعبر آخرُكم». ويبدأ المسلمون في الانسحاب واحدًا تلوَ الآخر ويقاتلون حتى آخر لحظة، وتكسو الدماء كل شيء وتكثر جثث المسلمين ما بين قتيل وغريق في النهرين، ويكون آخر شهداء المسلمين على الجسر هو سويد بن قيس أحد صحابة النبي ﷺ، وآخر من عبر الجسر هو المثنى بن حارثة، فقد ظلَّ يقاتل حتى اللحظة الأخيرة، ويرجع بظهره والفرس من أمامه، وبمجرد عبوره الجسر قطعه على الفُرسِ، ولم يستطع الفرس العبور إلى المسلمين، وعاد المسلمون أدراجهم ووصلوا إلى الشاطئ الغربي من نهر الفرات قبل غروب الشمس بقليل، ولم يكن الفرس يقاتلون بالليل؛ لذا تركوا المسلمين، وكانت فرصة للجيش الإسلامي لكي ينجو منسحبًا إلى عمق الصحراء؛ لأنه لو ظل في مكانه لعبر إليه الجيش الفارسي في الصباح وقضى على من تبقى منه.

بعد المعركة

في هذا الوقت كان قد فَرَّ من المسلمين ألفانِ، ومنهم مَنْ قد واصل فراره إلى المدينة، واستُشهِد من المسلمين في هذه الموقعة أربعة آلاف شهيد، وكان قد اشترك فيها ثمانية آلاف قُتِلَ منهم أربعة آلاف ما بين شهيد في القتال وغريق في النهر، ومن هؤلاء الآلاف الأربعة غَالِبُ أهل ثقيف، والكثير ممَنْ شهد بدرًا وأُحُدًا والمشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان الأمر شديدًا على المسلمين، ولولا فضل الله تعالى، ثم تولية المثنى بن حارثة الأمر ما كان لمَنْ نجا أن ينجو من هذه المصيدة المحكمة التي أعدَّها الفرس للمسلمين، وكان للمثنى كفاءة حربية منقطعة النظير، وهذه هي قيمة القيادة الصائبة؛ فقد كان أبو عبيد بن مسعود تملؤه الشجاعة والإيمان والإقدام، وقد كان أول مَنْ استُنفِرَ فخرج للجهاد في وجود الكثير من الصحابة، نفر قبلهم وأُمِّرَ على الجيش، ودخل الحروب في منتهى الشجاعة ولم تأخذه في الله لومةُ لائمٍ، وتقدَّم لمهاجمة الفيل وهو يعلم أنه سيُقتَل فيوصي بالإمرة لمن بعده، ولم يتوانَ عن القتال. ومع هذا فإمارة الجيوش ليست شجاعة وإيمانًا فقط، وإنما لا بد من المهارة العالية والكفاءة الحربية، حتى قال بعض الفقهاء: «إذا وُجِدَ قائدان أحدهما من الإيمان بمكان؛ ولكنه لا يُدرك قيمة القيادة والإمارة، والآخر يصل إلى درجة الفسوق لكنه مسلم، ويستطيع قيادة الحروب بمهارة، فلا بأس أن يَلِيَ هذا الفاسقُ قيادة الجيش في الحروب؛ لأنه يستطيع أن ينجو بجيش المسلمين كله، والآخر ربما يُؤَدِّي بالجيش إلى الهلكة مع إيمانه وشجاعته».

كانت موقعة الجسر في ٢٣ من شعبان ١٣ هـ، وكان أبو عبيد قد وصل إلى العراق في ٣ من شعبان، وكانت أُولَى حروبه النمارق في ٨ من شعبان، ثم السقاطية في ١٢ من شعبان، ثم باقسياثا في ١٧ من شعبان، ثم هذه الموقعة في ٢٣ من شعبان، فخلال عشرين يومًا من وصول أبي عبيد بجيشه انتصر المسلمون في ثلاث معارك، وهُزموا في معركة واحدة قضت على نصف الجيش، ومَنْ بقي فرَّ، ولم يبق مع المثنى غير ألفين من المقاتلين، وأرسل المثنى بالخبر إلى المدينة مع عبد الله بن زيد، وعندما يصل إلى المدينة يجد عمر بن الخطاب على المنبر فَيُسِرُّ إليه بالأمر نظرًا لصعوبته على المسلمين، فيبكي عمر على المنبر، وكان لا بد أن يعلم المسلمون -حتى يستنفر الناس للخروج مرَّة أخرى لمساعدة بقايا الجيش الموجودة في العراق، وبعد أن يبكي يقول: «رَحِمَ الله أبا عبيد! لو لم يستقتل وانسحب لكُنَّا له فئة، ولكن قدَّر الله

وما شاء فعل». ويأتي بعد ذلك إلى المدينة الفارُّون والهاربون من المعركة يبكون أشد البكاء، يقولون: «كيف نهرب؟! وكيف نفر؟!».

وكان هذا الأمر يمثِّل للمسلمين الخزي والعار، ولم يتعوَّدوا قبل ذلك على الفرار من أعدائهم، لكن عمر بن الخطاب ﷺ يطمئنهم ويقول لهم: «إنني لكم فئة، ولا يُعَدُّ هذا الأمر فرارًا». وظل عمر بن الخطاب يُحَمِّسهم ويُحَفِّزهم، وكان معهم معاذ القارئ وكان أحد مَن فرُّوا، وكان يَؤُمُّ المسلمين في التراويح، فكان كلما قرأ آيات الفرار من الزحف يبكي وهو يُصَلِّي، فيطمئنه عمر، ويقول له: «إنك لست من أهل هذه الآية».

أُلَّيس الصغرى.. وعودة الروح

بعد أن انسحب المثنى بقواته من الجسر، فعل شيئًا غريبًا، فقد وصل إلى منطقة الحفير، وتابعتهم بعض قوات الفرس في اليوم الثاني للمعركة في ٢٤ من شعبان، وكانت هذه القوات على يقين بعدم وجود أي قوات إسلامية في المنطقة، فيأخذ المثنى مجموعة من الجيش ويُقَرِّر الهجوم على الجيش الفارسي لسحب فرحة النصر منهم، لقد كانت مجرد غارة دون الدخول في قتال عنيف معهم، وتقدم المثنى صوب أُلَّيْس، وكانت مكان الموقعة التي انتصر فيها المسلمون قبل ذلك بقيادة خالد بن الوليد وقُتِلَت فيها أعدادٌ ضخمةٌ من الفرس، فتقدم نحوها ووجد حامية صغيرة من الفرس تسير على نهر الفرات، فيُسرع بفرقته ويحاصر هذه الفرقة الصغيرة، ويقتل مَنْ فيها، وكان من بينهم (جابان) وهو الذي فرَّ من أُلَّيْس هَرَبًا، وفرَّ مرةً مكرًا من موقعة النمارق، وقُتِلَ في هذه الحادثة التي سُمِّيَت أُلَّيْس الصغرى مردنشاه وقد كان رسولاً لبهمن جاذويه إلى أبي عبيد بن مسعود في موقعة الجسر، وعلى صغر حجم هذه الموقعة إلا أنها أحدثت هزَّة عنيفة في الجيش الفارسي، فلم يكن الفرس يتوقعون على الإطلاق أنه ما زالت لدى المسلمين قوة تمكنهم من الدخول في أي قتال أو معارك بعد الجسر، كما أحدثت هذه الموقعة الصغيرة رفعًا لمعنويات الجيش الإسلامي.

* * *

معركة البويب

التاريخ	١٣هـ/ ٦٣٥ م	
المكان	البويب – نهر الفرات – العراق	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية الساسانية الفارسية (زرادشتيون)
القادة	المثنى بن حارثة الشيباني	مهران الهمداني
القوى والحشود	١٢ ألف مقاتل	١٥٠ ألفًا من الفرسان والمشاة + سلاح الفيلة
الخسائر	٤ آلاف شهيد	أكثر من ١٠٠ ألف قتيل

معركة البويب من المعارك الحاسمة في تاريخ المسلمين وتقاس بيوم اليرموك؛ لأنها أذنت للمسلمين أن يفتحوا بلاد الفرس، وقعت في (١٢ رمضان ١٣هـ) وذلك في خلافة عمر بن الخطاب.

الوضع السياسي والعسكري قبل المعركة

كان الفرس قوة عظيمة مجهزة بأحدث وسائل التسليح في ذلك الوقت وقد خاضت قبل ذلك عدة حروب مع المسلمين، آخرها معركة الجسر، التي استطاعت أن تحسمها لصالحها؛ مما رفع من روحها المعنوية وأعاد لها الثقة، وقد كان رستم قائد جيوش الفرس يعلم أن ذلك النصر الميداني لن يُقدم الكثير على الصعيد السياسي، فما زال المسلمون يرغبون في التوسع في الأراضي الفارسية وينشرون دينهم؛ لذا قرَّر تجهيز قوة عسكرية قادرة على سحق قوات المسلمين، وطلب من قيادته مبالغ ضخمة من أجل ذلك.

في المقابل أحدثت نكسة الجسر حالة من الانهزام النفسي والمعنوي لدى قوة المسلمين في العراق؛ فتفرقت وجعلت الخليفة عمر بن الخطاب يُعرض عن الحديث عن الفتوح في الجبهة

الفارسية ويوقف إرسال الإمدادات، ثم حصلت بعض المناوشات بين المثنى بن حارثة الشيباني والقوة الباقية معه من فلول الجسر وبين قادة من الفرس، أشعلت الرغبة لدى المسلمين لرفع راية الجهاد من جديد.

التعبئة

وافق الخليفة ﷺ على ضمِّ مَنْ يرغب من المرتدين التائبين إلى الجيش الإسلامي، واتجهت القوات الإسلامية لتنضوي تحت لواء المثنى بن حارثة وكان ممن نفروا جرير البجلي الصحابي الجليل ومعه قبيلته.

حشد رستم مائة ألف فارس ومعهم خمسون ألفًا من المشاة وفيلة، وهناك مَنْ يقول: إن تعدادهم سبعون ألفًا. غير أن المهم أنهم يتفوَّقون عدة وعتادًا على خصمهم.

عين رستم القائد مهران بن باذان قائدًا عامًّا للجيش وقد كان يعرف العربية ووالده مسلم قاتل ضد المرتدين، ثم زحف الجيش الفارسي الجرار من المدائن إلى الحيرة لملاقاة جيش المسلمين.

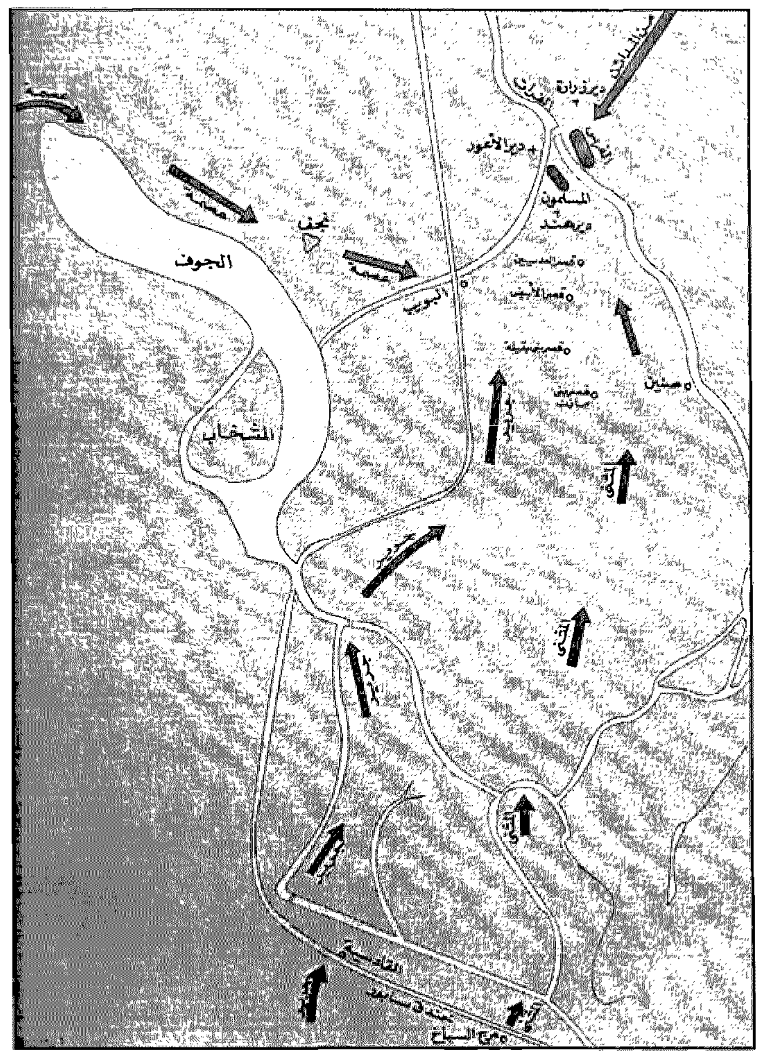
كان المثنى بن حارثة قد صقلته حملاته السابقة واحتكاكه بخبرات فذة من المسلمين، وقد كانت -أيضًا- مجاورته للفرس واشتباكاته معهم قد كشفت له خريطة التفكير الفارسية، وأضاءت له نقاط الضعف والقوة؛ لذا قرَّر المثنى أن يغير مكان معسكره إلى البويب، وعسكر بجنده غربي الفرات، وقد كانت مخالطة المثنى للجند وخطبه الحماسية قد فجرت لدى المسلمين رغبة النصر لأجل دينهم والتضحية بكل نفيس.

المعركة

لحق الفرس بالمسلمين وحجزهم النهر، هنا استفاد المثنى من زلة الجسر وطلب من عدوه العبور، وحين عبر الفرس وانحشر عسكرهم بين النهر وبين جيش نظمه المثنى بذكاء إلى عدة ألوية يتقدمهم المثنى فاتحًا صدره للشهادة.

زحف الجيش الفارسي وقد التهبت حناجره بالصياح والهتاف وأخذ يضغط على ميمنة المسلمين محاولاً كشفها، وثبت المسلمون أمام الكثرة المتدفقة بقسوة ومعها سلاح الفيلة، واشتدَّ القتال وطال، وبقيت فرقة طوارئ عَيَّنَها المثنى تُراقب سير القتال وتؤمن مؤخرة الجيش.

وكان المثنى بطل المسلمين يصول ويجول في ساحة القتال؛ يُحَرِّض جيشه على الصبر، ويبحث عن الثغرات ليسدَّها، وكان يحث المسلمين بقوله: «**لا تفضحوا المسلمين اليوم، انصروا الله ينصركم**». لقد كان يعلم بأن طول هذا القتال يُرجح كفة الكثرة على الشجاعة؛ لذا فقد انطلق المثنى وبصحبته بجيلة وأميرهم جرير ونفر من شجعان المسلمين؛ ليختصر المعركة فيستهدف رأس العدو مهران، ونجح جرير بن عبد الله (وقيل: المنذر بن حسان بن ضرار الضبي) في قطع عنق زعيم المجوس؛ فتفكك جيشه وتخلخل، ورفرفت أعلام الهزيمة على صفحات الوجوه الفارسية، وضغط المسلمون على قلب خصمهم فانفصلت ميمنتهم عن ميسرتهم، والتفَّ المثنى ليقطع جسر العبور ويصطاد رءوس الهاربين الذين كانوا من قبل يتوقون لسفك دمه ودم رفاقه.



ما بعد المعركة

بعد انهيار القوات الفارسية وتشرذمها أمر المثنى بملاحقة فلول الفارين والسيطرة على المزيد من الأراضي الفارسية، التي كانت أبرمت مع المسلمين عقودًا ثم نقضتها، بلغ عدد الهالكين قتلاً وغرقًا من الفرس حوالي مائة ألف أي ثلثي الجيش تقريبًا، أما المسلمون فاستشهد منهم ٤ آلاف شهيد.

معركة القادسية

التاريخ	١٥هـ/ ٦٣٥ م	
المكان	القادسية – العراق	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية الساسانية الفارسية (زرادشتيون)
القادة	سعد بن أبي وقاص	رستم فرّخزاد
القوى والحشود	٣٦ ألف مقاتل	١٢٠ ألف مقاتل و٧٠ فيلاً
الخسائر	٦ آلاف شهيد	٦٠ ألف قتيل

معركة القادسية هي معركة وقعت في (المحرم ٤هـ / ٩٣٥م) وقيل في (١٣ شعبان ١٥هـ/ ٦٣٥م). وقيل: سنة (١٦هـ/ ٦٣٦م). بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص وبين الفرس بقيادة رستم فرّخزاد في القادسية، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم.

أسباب المعركة

في عام (١٤هـ) جمع يزدجرد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المثنى بن حارثة فكتب إلى عمر بن الخطاب، فأعلن النفير العام للمسلمين؛ لكي يُدركوا المسلمين في العراق، واجتمع الناس بالمدينة المنورة، فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق، والناس لا يدرون ما يُريد أن يصنع عمر، واستشار عمر الصحابة في قيادته للجيش بنفسه، فقرَّروا أن يبعث على رأس الجيش رجلاً من أصحاب الرسول ويُقيم هو ولا يخرج، واستشارهم في مَنْ يقود الجيش، فأُشير إليه بسعد بن أبي وقاص ﷺ.

المسير إلى القادسية

استدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص، وكان على صدقات هوازن، فولاّه الجيش وأمره بالسير ومعه أربعة آلاف، ثم أمده بألفي يماني وألفي نجديّ، وكان مع المثنى

ثمانية آلاف، ومات المثنى قبل وصول سعد، وتتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة وثلاثون ألفًا.

كان منهم تسعة وتسعون بدريًّا، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة، فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي، وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفطة، وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة، وعلى الرجالة حمال بن مالك الأسدي، وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي، وجعل داعيتهم سلمان الفارسي، والكاتب زياد بن أبيه، وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

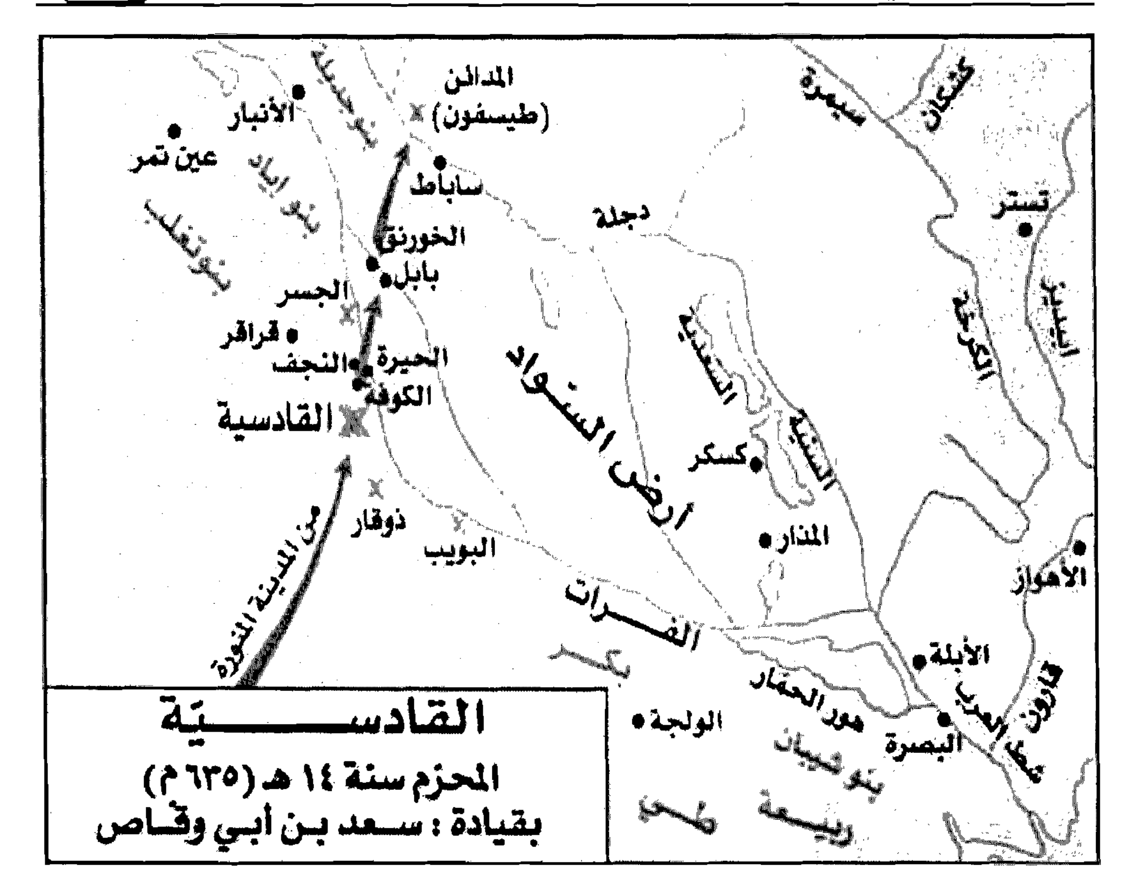
أما الفرس فقد أجبر يزدجرد رستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه، وسار رستم وفي مقدمته القائد أجالينوس، وجعل في ميمنته القائد الهرمزان، وعلى الميسرة القائد مهران بن بهرام، ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم النجف، حتى وصل القادسية ومعه سبعون فيلاً.

الرسائل

وقبل المعركة كانت الرسائل بين سعد وأمير المؤمنين الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب ومنها:

«يا سعد بن وهيب؛ لا يغرَّنَّك من الله أن قيل: خال رسول الله وصاحبه، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته.. والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء.. الله ربهم، وهم عباده.. يتفاضلون بالعافية، ويُدركون ما عند الله بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا عليه، فالزمه، فإنه الأمر». ثم يقول له: «اكتب إليَّ بجميع أحوالكم.. وكيف تنزلون..؟ وأين يكون عدوّكم منكم.. واجعلني بكتبك إليَّ كأني أنظر إليكم..!!».

ويكتب سعد إلى أمير المؤمنين فيصف له كل شيء؛ حتى إنه ليكاد يُحَدِّد له موقف كل جندي ومكانه، وقد أوصى عمر سعدًا بدعوتهم إلى الإسلام، وينفذ سعد وصية عمر، فيرسل إلى رستم قائد الفرس نفرًا من صحابه يدعونه إلى الله وإلى الإسلام.



الحوار مع رستم

بعث سعد جماعة من السادات منهم: النعمان بن مقرن، وفرات بن حبان، وحنظلة بن الربيع، وعطارد بن حاجب، والأشعث بن قيس، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب، فدخلوا عليه، وقد زيَّن مجلسه بالنَّمارق المُذَهَّبة والزرابيّ الحريريَّة وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة، والزينة العظيمة، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: «ضع سلاحك». فقال: «إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت». فقال رستم: «ائذنوا له». فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها. فقالوا له: «ما جاء بكم؟» فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمَنْ قَبِلَ ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَنْ أبى قاتلناه

أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله». قالوا: «وما موعود الله؟» قال: «الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي». فقال رستم: «قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟» قال: «نعم، كم أحب إليكم؟ يومًا أو يومين؟» قال: «لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا». فقال: «ما سن لنا رسول الله أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل»، فقال: «أسيدهم أنت؟» قال: «لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم». فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: «هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟» فقالوا: «معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، تدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟» فقال: «ويلكم لا تنظرون إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب».

عبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، عندئذٍ وقف سعد في جيشه خطيبًا، مستهلاً خطابه بالآية الكريمة: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وحثَّهم على السمع والطاعة لنائبه خالد بن عرفطة؛ لأن سعدًا أصابته دمامل في فخذيه وإليتيه، فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، حتى ما كان يستطيع أن يجلس، وبعد فراغه من خطبته، صلى بالجيش صلاة الظهر، ثم استقبل جنوده وكبر سعد التكبيرة الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم.

القتال

ولما رأت خيل المسلمين الفيلة نفرت، وركز الفرس بسبعة عشر فيلاً على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة، فأبلوا بلاء حسنًا وردوا عنهم هجمة الفيلة، ولكن الفيلة عادت للفتك بقبيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئًا بالفيلة، فأخذ رجالاً من قومه فقطعوا حبال التوابيت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها، فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه، ونفّس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب، وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا رداء للناس، وهذا هو اليوم الأول من المعركة، ويسمى أرماث وهو الرابع عشر من المحرم.

وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكَّل سعد بالقتلى والجرحى مَنْ ينقلهم، وسلَّم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت نواصي الخيل قادمة من الشام، وكان في مقدمتها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس، وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصلوا تبعتهم العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بهذا الرعب في قلوب الفرس فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصلوا من الشام فهبطت هممهم، ونازل القعقاع بهمن جاذويه أول وصوله فقتله، ولم يَرَ أهل فارس في هذا اليوم شيئًا يعجبهم، فقد أكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتل الفرس بالفيلة في هذا اليوم؛ لأن توابيتها قد تكسرت بالأمس، فاشتغلوا هذا اليوم بإصلاحها، وألبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقعة، وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة، ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث، فجعلت خيل الفرس تفر منها، وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار، فلما اعتدل النهار تزاحفوا من جديد حتى انتصف الليل، فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد.

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان، ومن جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفين لم يُنْقَلُوا.

وبات القعقاع لا ينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقهم فيه بالأمس، وقال: «إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة». ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدأ القتال في صباح اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا التوابيت فأقبلت الفيلة يحميها الرجالة فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرماث، فقال لعاصم بن عمرو والقعقاع: «اكفياني الفيل الأبيض». وقال لحمال والربيل: «اكفياني الفيل الأجرب». فأخذ الأولان رمحين وتقدما نحو الفيل الأبيض، فوضعا رمحيهما في عينيه فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره، فضربه القعقاع فوقع لجنبه، وحمل الآخران على الفيل الأجرب فطعنه حمال في عينه، فجلس ثم استوى، وضربه الربيل فأبان مشفره، فأفلت الأجرب جريحًا، وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة، وعادت حتى وصلت المدائن، ثم تزاحف الجيشان فاجتلدوا، وسميت هذه الليلة ليلة الهرير، وفي هذه الليلة حمل القعقاع

وأخوه عاصم والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء، فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم، فلم ينم الناس تلك الليلة وكان القعقاع محور المعركة.

النصر

لما جاءت الظهيرة كان أول مَنْ زال عن مكانه الفيرزان والهرمزان، فانفرج القلب وأرسل الله ريحًا هوت بسرير رستم وعلاه الغبار، ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوقه حمله، فضرب هلال بن علفة الحمل الذي تحته رستم وهو لا يعرف بوجوده، فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه، ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله، ثم صعد طرف السرير وقال: «قتلت رستم ورب الكعبة، إليَّ إليَّ».

فانهارت حينئذٍ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر، فتبعهم المسلمون يرمونهم برماحهم، فسقط من الفرس في النهر ألوف.

وقُتل من المسلمين ليلة الهرير ويوم القادسية ألفان وخمسمائة، ومن الفرس في الليلة نفسها عشرة آلاف، ولحق زهرة بن الحوية التميمي ألجالينوس فقتله.

واستطاع جيش سعد هزيمة الفرس وواصل الجيش تقدمه إلى المدائن.

❊ ❊ ❊

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فتح دمشق

بعد تولِّي عمر بن الخطاب خلافة الدولة الإسلامية أعاد تنظيم الجيوش، فوُلِّيَ أبو عبيدة بن الجراح القيادة العامَّة لجيوش الشام بدلاً من خالد بن الوليد، فقادا الاثنان معًا معركة اليرموك التي انتهت بانتصار المسلمين في رجب ١٥هـ/ أغسطس ٦٣٥م.

وغادر هرقل بيت المقدس لَّما عَلِم بانتصار المسلمين في اليرموك، واتَّجه إلى حمص؛ ليجعلها مقرًّا لأعماله الحربيَّة؛ بينما اتجه المنهزمون إلى فِحْل، فوجَّه إليها أبو عبيدة بن الجراح قوَّة صغيرة، واتجه هو بجيشه إلى دمشق بناء على مشورة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، الذي قال فيها لأبي عبيدة: «**ابدءوا بدمشق فانهدوا لها**[1]؛ **فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهلَ فِحْل بِخَيلٍ تكون بإزائهم وأهلَ فلسطين وأهلَ حمص**».

الحصار

ولما وصلت جيوش المسلمين إلى دمشق وزَّع أبو عبيدة قواته على أبواب المدينة؛ لإحكام الحصار عليها؛ فجعل شرحبيل ابن حسنة على باب توما، وعمرو بن العاص على باب الفراديس، ويزيد بن أبي سفيان على باب كيسان، وخالد بن الوليد على الباب الشرقي، وكان هو على باب الجابية، وشدَّد المسلمون الحصار على أهل دمشق سبعين يومًا، ولم تُجْدِ منعةُ حصونهم وما عليها من مجانيق وغيرها من آلات الدفاع نفعًا، فمنع المسلمون المدد من أن يصل إليهم، وقدَّر أبو عبيدة أن هرقل قد يبعث بمدد من حمص لمحاصرة قواته بين حصون دمشق وجيوش الروم؛ فأرسل جيشًا من المسلمين ليُعَسْكر في الطريق إلى دمشق.

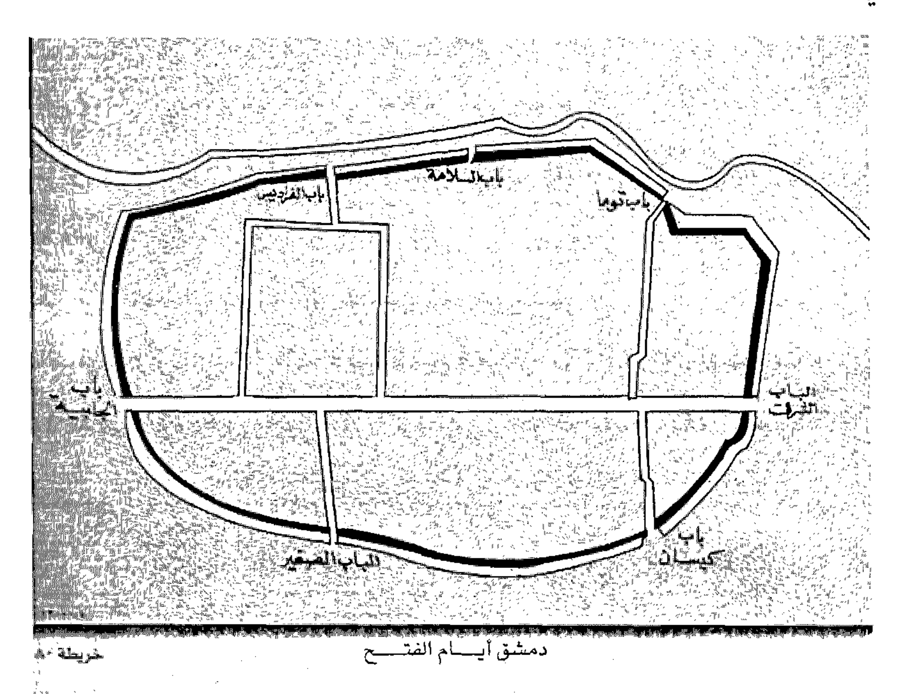
الانتصار على مدد هرقل

وصدقت فراسة أبي عبيدة؛ فقد أرسل هرقل عددًا كبيرًا من القوات لنجدة الروم المحاصرين في دمشق، ففوجئت هذه القوات بجيش المسلمين الذي كان في انتظارها، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين، واستمرَّ القتال الشديد بين الفريقين حتى انكشف الروم، ولحقت

(١) نَهَدَ القومُ لعدوِّهم: إذا نهضوا له وصَمَدوا وشرعوا في قتاله. ابن منظور: لسان العرب، مادة (نهد) ٣/ ٤٢٩.

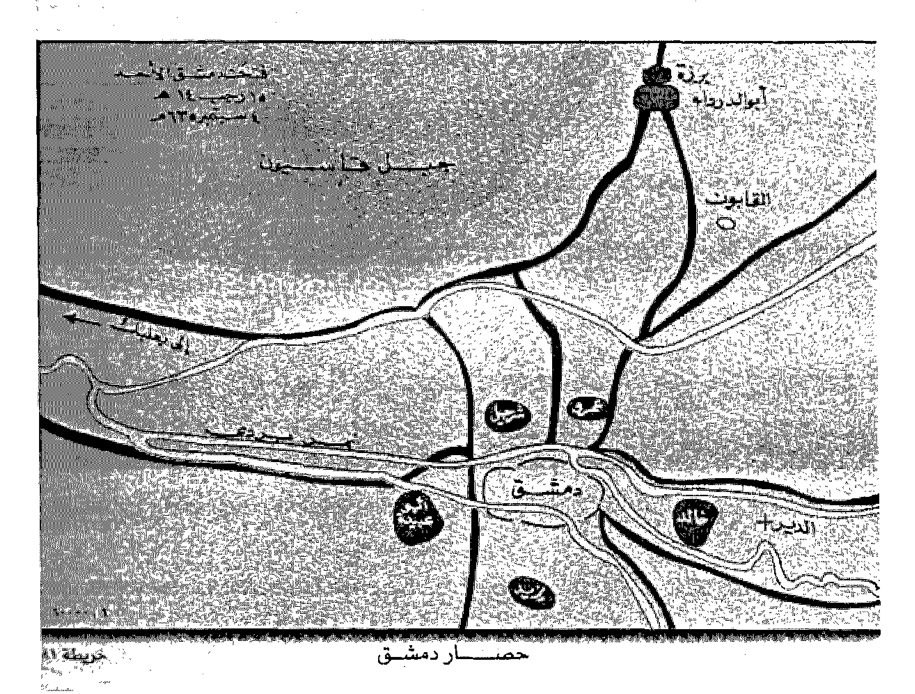
بهم هزيمة منكرة، فارتدُّوا منهزمين إلى حمص.

وكان لانتصار المسلمين في هذه المعركة أكبر الأثر في نفوسهم؛ حيث قويت عزيمتهم على القتال وتحمُّل الظروف القاسية التي مرَّ بها جيش المسلمين مع قدوم الشتاء ببرودته الشديدة، التي لا يطيقها أبناء الصحراء الحارة.



دمشق أيام الفتح

خريطة



حصار دمشق

خريطة

وطال انتظار الرومان المحاصرين للمدد، وأرسلوا إلى هرقل يستعجلون مدده قبل أن تخور قوتهم، وتضعف عزيمتهم على الصمود والمقاومة، فبعث إليهم هرقل يُطَمْئِنهم ويحثهم على الثبات والمقاومة، فقوَّى ذلك من عزيمتهم، وبعث الأمل في قلوبهم وشجَّعهم على الثبات وصدِّ هجمات المسلمين.

هجوم توماس على المسلمين

ومع مرور الوقت عاد اليأس يُسيطر على قلوب الروم، وبدأ القلق على مصير المدينة ينتاب قادتها؛ فاجتمع عدد من هؤلاء القادة وذهبوا إلى توماس القائد العام لجيش الروم في دمشق -زوج ابنة الإمبراطور هرقل- وأخبروه بمخاوفهم، وعرضوا عليه الصلح مع خالد، إلا أنه رفض هذه الفكرة، مؤكِّدًا لهم قدرته على الدفاع عن المدينة، وأنه سيطرد المسلمين قريبًا من حول دمشق.

وقرَّر توماس أن يشنَّ هجومًا قويًا على المسلمين، فجمع قوة كبيرة تجمعت عند باب توما، ثم أصدر أوامره إلى الرماة، فانهالوا من فوق الحصن على شرحبيل وجنوده بالسهام والحجارة؛ ليبعدوهم عن باب الحصن، واندفع خارجًا من باب الحصن في نحو خمسة آلاف فارس.

واستطاع الرماة إلحاق خسائر كبيرة في صفوف المسلمين، واستشهد عدد كبير من فرسان المسلمين؛ فاضطر المسلمون إلى التراجع بعيدًا عن مرمى سهام الروم، وسرعان ما نشب قتال عنيف بين قوات شرحبيل وقوات توماس، وبالرغم من تفوق قوات الروم فقد ثبت المسلمون حتى اضطروا الروم إلى التراجع داخل الحصن بعد أن أصابوا قائدهم بسهم في عينه.

توماس يعود من جديد

ولكن توماس لم ييأس؛ حيث باغت المسلمين بهجوم ليلي آخر، ولكنه في هذه المرة كان هجومًا واسعًا من عدة أبواب في آن واحد، وخصّ الباب الشرقي بأكبر عدد من القوات لمنع خالد من نجدة شرحبيل.

وقبل منتصف الليل سمع المسلمون قرع النواقيس، وكانت تلك الإشارة التي أعطاها توماس لفتح الأبواب، وفجأة اندفعت قوات الروم نحو المسلمين، وتصدَّى لهم المسلمون في شجاعة واستبسال، وسقط عدد كبير من الروم، واستمرَّ القتال إلى الساعات الأولى من

الصباح الجديد، وتجلَّت بطولات قادة المسلمين وفرسانهم، الذين راحوا يقاتلون بلا هوادة، حتى أدرك الروم أنه لا فائدة من الاستمرار في القتال؛ فأسرع توماس يأمرهم بالانسحاب، بعد أن كاد يلقى حتفه على يد شرحبيل، واندفع جنود الروم إلى داخل أسوار حصونهم، ولم يحاول المسلمون اللحاق بهم، مكتفين بما كبَّدوه لهم من هزيمة مزرية.

خالد لا ينام ولا يُنيم

عاد المسلمون يضربون حصارهم من جديد على المدينة، وكان خالد بن الوليد مقيمًا على الباب الشرقي، دائم اليقظة والاستعداد يتربص أي فرصة سانحة للانقضاض على العدو فهو لا ينام ولا يُنيم، ولا يخفى عليه شيء؛ فقد جعل عيونه ورجاله يرصدون كل ما يدور وراء تلك الأسوار بدقَّة شديدة، حتى لكأنه يعيش بينهم، وتوافرت لديه معلومات تشير إلى اشتغال الحامية في حفل عند بطريرك المدينة الذي وُلِدَ له ولدٌ؛ فدعا الجميع إلى الاحتفال بتلك المناسبة، فأفرطوا في الشراب، وتخلى كثير منهم عن مواقعهم، وكان خالد قد استعدَّ استعدادًا لذلك، وصنع السلالم والحبال، فلما هدأ الليل وأرخى سدوله على المكان، عبر خالد ورجاله الخندق عائمين على القِرَب، ثم ألقوا بالحبال في شرفات السور، وارتقوا إلى أعلاه، وأسرعوا نحو الباب فعالجوه بسيوفهم حتى تمكنوا من فتحه، ثم رفعوا أصواتهم بالتكبير، فلما سمع المسلمون تلك الإشارة اندفعوا داخل المدينة وهم يُكَبِّرون حتى ارتجَّت أجواء المدينة بأصداء التكبير الهادر، الذي شقَّ سكون الليل، فانتبه القوم فزعين ليجدوا الجنود المسلمين قد انتشروا في أنحاء المدينة.

وأسرع الروم يفتحون أبواب المدينة ويصالحون أبا عبيدة، فأعطاهم الأمان دون أن يعلم بما فعله خالد، وطلب منه الكف عن القتال؛ لأنه صالح الناس وأمَّنهم، فلم يكن من خالد إلا الطاعة لقائده، وأجرى الصلح على الجانب الذي فتحه عَنْوَة من المدينة.

ولم تمضِ ليلة (١٦ رجب ١٥هـ/ ٥ سبتمبر ٦٣٥م) حتى كانت دمشق قد استسلمت للمسلمين، وصارت درَّة جديدة تُزَيِّن قلادة الإمبراطورية الإسلامية الفتية، وتضاف إلى عقد دولته الواعدة.

***

معركة اليرموك

التاريخ	١٥هـ/ ٦٣٦م	
المكان	في شمال الأردن قرب نهر اليرموك	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية البيزنطية
القادة	خالد بن الوليد، أبو عبيدة بن الجراح، يزيد بن أبي سفيان، شرحبيل ابن حسنة، عمرو بن العاص، قيس بن حبيرة	جريجوري، ماهان، جبلة بن الأيهم، قناطير، قسطنطين ابن القيصر هرقل، ودريجان وتيودور شقيق القيصر
القوى والحشود	حوالي ٣٦ ألف مقاتل	حوالي ٢٥٠ ألف مقاتل
الخسائر	حوالي ٤ آلاف شهيد	حوالي ٧٠-١٠٠ ألف قتيل

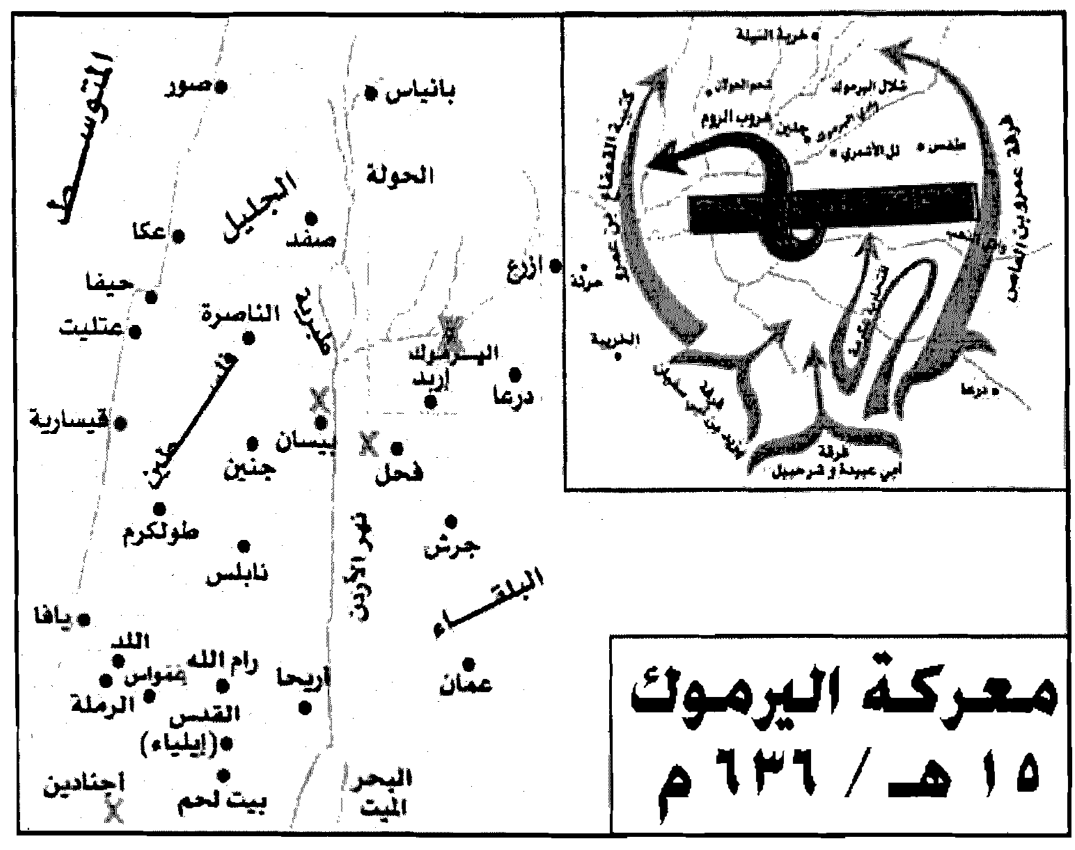
وقعت معركة اليرموك في (٥ رجب ١٥هـ/ ١٢ أغسطس ٦٣٦م) بين العرب المسلمين والإمبراطورية البيزنطية، يعتبرها بعض المؤرخين من أهم المعارك في تاريخ العالم؛ لأنها كانت بداية أول موجة انتصارات للمسلمين خارج جزيرة العرب، وآذنت لتقدم الإسلام السريع في بلاد الشام.

تحالف جيوش الإمبراطورية البيزنطية

كان جيش البيزنطيين يتألف من خمسة جيوش؛ حيث قاد ماهان (أو فاهان) ملك أرمينية جيشه الأرمني، وقاد الأمير قناطير السلافي جيشه من الشعوب السلافية، وكان ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم الغساني على رأس جيش المسيحيين العرب؛ وقد كانوا كلهم من راكبي الخيول والجمال، وكانت الجيوش الأوربية كاملة تحت قيادة جريجوري ودريجان، حيث تولى دريجان قيادة الجيوش مجتمعةً، كما شارك تيودوروس -شقيق القيصر هرقل- في المعركة، وهو «تذارق» بالمراجع العربية، وكذلك «دارقص أو سقلاب» -وكان خصيًّا لهرقل- قاد الآلاف من المقاتلين الروم.

كان جند جريجوري على ميمنة جيوش الروم وقد ربطوا أرجلهم بالسلاسل؛ تعبيرًا عن تصميمهم على الصمود تحت كل الظروف، ورمزًا للشجاعة، كما أن السلاسل يمكن أن تُستخدم ضد خيول المسلمين في حال حدوث خرق في صفوف جيش جريجوري، وهذا ما جعل حركة الجنود بطيئة على كل الأحوال.

أرض المعركة وجيش المسلمين



أعاد خالد تنظيم الجيش بعد توليه لقيادة الجيش، فجعل ربع جيش المسلمين من الخيالة، وكانوا حوالي ١٠ آلاف فارس، وقسم الجيش إلى ٣٦ كتيبة من المشاة؛ وُزِّعت على أربعة ألوية مشاة عبارة عن اثنان في القلب بقيادة أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل ابن حسنة، وجناحان الميسرة بقيادة يزيد بن أبي سفيان والميمنة بقيادة عمرو بن العاص، وتشكل كل لواء منهم من تسعة سرايا، كانت منظمة على أساس التجمع القبلي أو العشائري؛ بحيث يقاتل كل واحد إلى جانب أخيه المسلم من عشيرته أو قبيلته، ومن أمراء الكراديس آنذاك: القعقاع بن عمرو،

مذعور بن عدي، عياض بن غنم، هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، سهيل بن عمرو، عكرمة بن أبي جهل، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، حبيب بن مسلمة، صفوان بن أمية، سعيد بن خالد بن العاص، خالد بن سعيد بن العاص، عبد الله بن قيس، معاوية بن حديج، الزبير بن العوام.

وجعل لكل لواء مجموعة من الاستطلاع؛ بحيث يتم مراقبة أرض المعركة كاملة، وكان خط الجبهة يمتد على ١١ ميلاً؛ بحيث يتجه المسلمون غربًا في مواجهة الروم، وإلى الجنوب يمين الجيش الرومي يمرُّ نهر اليرموك، وشمالاً على بعد أميال باتجاه الجنوب الغربي هناك طرف وادي الرقاد.

وكُلف كل من قيس بن حبيرة وأمير بن طفيل وميسرة بن مرزوق بقيادة فرق الخيالة، التي تلعب دور الوحدات الاحتياطية للتدخل في حال أي تراجع ممكن للألوية الإسلامية.

وكان ضرار بن الأزور ينوب عن خالد بن الوليد في قيادة الوحدة المتنقلة في حال انشغال خالد في الأعمال القتالية في المعركة.

المعركة في سطور

دامت المعركة ستة أيام، كان المسلمون فيها يردُّون هجمات الروم في كل يوم؛ حيث كان خالد بن الوليد يستخدم «سرية الخيالة المتحركة السريعة»، التي يقودها بنفسه؛ ليتحرك بسرعة خاطفة من مكان إلى آخر، حيث يكون جيش المسلمين في تراجع تحت ضغط الروم، ويعود كل من الجانبين في نهاية النهار إلى صفوفه الأولية قبل القتال أو إلى معسكراته.

وجرى الأمر كذلك خلال الأربعة أيام الأولى، كانت فيها خسائر الروم بالأعداد أكبر من خسائر جيش المسلمين، وفي اليوم الخامس لم يحدث الشيء الكثير بعد رفض خالد «هدنة ثلاثة أيام» التي عرضها الروم بقوله المشهور لرسول الروم: «نحن مستعجلون لإنهاء عملنا هذا».

وفي اليوم السادس تحوَّلت إستراتيجية خالد من الدفاع إلى الهجوم، وتمكن بعبقريته الفذَّة من شنِّ الهجوم المجازف على الروم واستخدام الأسلوب العسكري الفريد من نوعه آنذاك؛ وهو الاستفادة الصحيحة من إمكانيات «سرية الفرسان سريعة التنقل»؛ ليُحَوِّل الهزيمة الموشكة للمسلمين إلى نصر مؤزر لهم.

وقاتلت نساء المسلمين من خلف الجيوش المتواجدات في معسكرات المسلمين الخلفية في هذه المعركة، وقتلن عددًا كبيرًا من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين بالحجارة ويزجرنهم، ويصرخن قائلات: «أين تذهبون وتدعوننا للعلوج». وعندئذٍ يرجع المنهزمون، وقد تكرر ذلك في كل يوم من أيام المعركة؛ حتى قيل: إن بعض المقاتلين عندما كانوا يهمُّون بالفرار إلى الخلف كانوا يقولون: «مواجهة الروم ولا مواجهة نسائنا».

من أحداث اليوم الأول

بدأ اليوم الأول من معركة اليرموك بمبارزات كانت آنذاك أساليب متبعة بين مقاتلين أبطال من الجانبين؛ فمنهم مَنْ يخرج من بين الصفوف طوعًا، ومنهم مَنْ يُدعى من قبل القائد لمنازلة الخصوم، وقد دامت تلك المبارزات في اليوم الأول للمعركة حتى منتصف النهار، وكان النصر فيها لصالح المسلمين؛ حيث قتل عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ خمسة من قواد الروم البيزنطيين؛ مما دعا القائد العام للجيش البيزنطي «ماهان» لبدء القتال، حرصًا على معنويات جيشه، وبدأ بتراشق النبال العنيف الذي تسبب بإصابات كبيرة في صفوف المسلمين ليلتحم الطرفان بعدها.

ويُذكر أن أحد كبار أمراء الروم -وكان يدعى جرجة بن بوذيها- كان قد خرج يطلب خالد بن الوليد، فخرج له خالد متأهبًا للقتال، وبدأ يسير بحركة دائرية مواجهًا الأمير الرومي متأهبًا للمبارزة، ولكن جرجة بدأه بالكلام، وقال: إنه يريد أولاً أن يسأله بعض الأسئلة ليجيبه بصراحة؛ فالحر لا يكذب. كما قال، فسأله بعض الأسئلة مثل: «لماذا سماه النبي سيف الله المسلول على المشركين؟ وفيما إذا كان الله قد أرسل سيفًا قلده الرسول ﷺ لخالد؟» فأجابه خالد على ذلك وعلى أسئلة عديدة، مثلاً إذا أسلم المرء اليوم ما موقعه بين المسلمين، وأجاب خالد: إن المسلمين سواسية، لا فرق بين المسلم قديمًا والمسلم حديثًا، وهم جميعًا إخوة. فما كان من جرجة هذا إلا أن اعتنق الإسلام وصحبه خالد إلى خيمته ليصلي معه ركعتان، وحارب مع المسلمين، وقُتل في تلك المعركة شهيدًا.

من أحداث اليوم الثاني

الهجوم البيزنطي

قرر ماهان شنَّ الهجوم المباغت عند الفجر، عندما يكون جيش المسلمين غير مستعدٍّ،

ولكن خالدًا كان قد وضع نقاطًا دفاعية قوية متقدمة خلال الليل سرًّا؛ مما أفقد عنصر المفاجئة التي كان يخطط لها البيزنطيون، ودارت المعركة وتراجع كل من جانبي الجيش المسلم، الميمنة والميسرة.

المرحلة الأولى من الهجوم المعاكس

حيث تدخَّل خالد بفرقته سريعة التنقل مرة في الميمنة؛ ليوقف تقدم الروم، وبعدها في الميسرة.

المرحلة الثانية من الهجوم المعاكس

حيث قسم خالد وحدته المتنقلة السريعة ليُرسل قسمًا منها بقيادة ضرار بن الأزور إلى قلب جيش الروم من الجهة اليمنى له؛ حيث تمكن ضرار في هذا الهجوم من قتل القائد البيزنطي دريجان، رغم أن ألفين من الفرسان الروم البيزنطيين كانوا بحراسته.

وترك مقتل دريجان وفشل خطة ماهان الأثر المدمر على نفسية المقاتلين الروم، بينما كان لنجاح خالد بصد الهجوم الأثر الأقوى لتعزيز معنويات الجنود المسلمين.

من أحداث اليوم الثالث

الهجوم البيزنطي

بعد أحداث اليوم السابق ومقتل دريجان أحد كبار قادة الروم، تركز في هذا اليوم هجوم الروم على نقطة محددة لفصل الجيش الإسلامي، وهي النقطة بين الميمنة التي كانت تحت قيادة عمرو بن العاص يقابله قناطير قائد السلاف، وقلب الجيش الإسلامي من الجانب الأيمن تحت قيادة شرحبيل يقابله ماهان، وبدأ الهجوم على لواء عمرو بن العاص الذي استطاع في البداية الصمود قبل أن يلعب التفوق العددي للروم دوره؛ ليتراجع جنود عمرو بن العاص إلى الوراء باتجاه معسكرهم، كما بدأ جنود شرحبيل في اللواء المجاور بالتراجع.

الهجوم المعاكس

تدخلت سرايا الخيالة المسلمين لصد الهجوم بالالتفاف عن يسار الروم، أي من الطرف الشمالي لكل لواء، وبعدها تدخل خالد مجددًا بمجموعته سريعة التنقل ليهاجم جند ماهان المتقدمين ضد لواء شرحبيل، وتمَّ صدُّ الهجوم، وتراجع الروم إلى أماكنهم الأصلية كما كانت

قبل بداية المعركة، وجاء المساء لينتهي هذا اليوم.

من أحداث اليوم الرابع

تمَّ صدُّ هجوم مماثل على الجهة نفسها؛ بسبب إنهاكها في اليوم السابق، كما فكَّر وخطَّط ماهان، فقد تراجع شرحبيل أمام جيش الأرمن المدعم بشكل قوي من الخيالة العرب المسيحيين بقيادة جبلة، كما تراجع عمرو بن العاص أمام جيش قناطير السلافي، وتعرض شرحبيل للضغط الشديد، وبدأت علامات الإنهاك على جنده.

الهجوم البيزنطي في اليوم الرابع

وقبل أن يتد.ن خالد بفرقته سريعة التنقل ليشارك برد الزحف الرومي، أمر أبا عبيدة بن الجراح ويزيد ببدء الهجوم على الجيش؛ لإشغاله في القطاعين المقابلين لهما؛ القسم الأيمن من القلب والميمنة الرومية، وعدم تمكينهم من القيام بالهجوم الشامل.

وتمكن خالد بن الوليد من القيام بمناورات ذكية، أدت إلى تراجع الأرمن، ودام ذلك طوال بعد الظهر، وبعد فقدان الدعم الأرمني تراجع كذلك السلاف بقيادة قناطير، ليعود الجميع إلى أماكنهم.

على الجانب الآخر استعر قتال الروم مع جيشي أبي عبيدة بن الجراح ويزيد، وتعرض الجند المسلمون إلى رمي عنيف بالنبال؛ أدَّى إلى فقدان الكثير لبصرهم نتيجة إصاباتهم في عيونهم؛ منهم: أبو سفيان، والمغيرة بن شعبة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص، والأشعث بن قيس، وعمرو بن معدي كرب، وقيس بن مكشوح، والأشتر النخعي، وسمي ذلك اليوم بيوم خسارة العيون، وتراجع الجيشان المسلمان، جيش أبي عبيدة وجيش يزيد إلى الخلف.

هجوم المسلمين المعاكس

لاحت علامات الهزيمة، ولكن عكرمة بن أبي جهل نادي المجاهدين للقسم على النصر أو الشهادة، فلبى نداءه ٤٠٠ من المقاتلين المجاهدين، وقاتلوا محاولين وقف الروم، وأوقفوا زحف الروم بعد مقتلهم جميعًا، ولكنهم قتلوا عددًا أكبر بكثير من ٤٠٠ مقاتل بيزنطي، وأُصيب عكرمة وابنه عمرو إصابة مميتة في هذه الوقعة، وعرف عكرمة بنجاح المسلمين بصد الهجوم وحمد الله قبل أن يموت متأثرًا بجراحه، ليحل الظلام وينتهي ذلك اليوم.

من أحداث اليوم الخامس

كما ذكرنا سابقًا فقد رفض خالد عرضا لـ «ماهان» بوقف القتال بضعة أيام، وعرف خالد بن الوليد أن عزيمة الروم على القتال لم تعد كالسابق، وكان المسلمون حتى الآن قد اتخذوا إستراتيجية دفاعية في الأعمال القتالية، فقرَّر الآن خالد التحول إلى الهجوم، وأجرى تغييرات على تشكيلاته، حيث جمع كافة فرق الخيالة إلى سرية قتالية موحدة، وجعل وحدته السريعة في قلبها، وخطط خالد باستخدام هذه السرية الجديدة لمهاجمة الفرسان الروم بغرض عزلهم عن المشاة الروم؛ بحيث يصبح المشاة الذين يشكلون نواة الجيوش البيزنطية دون أي حماية من الفرسان تقيهم من الهجمات الجانبية والخلفية، وفي الوقت نفسه خطط لشن هجومٍ على الميسرة البيزنطية لردها باتجاه الجرف إلى الغرب.

من أحداث اليوم السادس

بينما بدأت ميسرة جيش المسلمين بقيادة يزيد بن أبي سفيان، والقسم الأيسر من القلب بقيادة أبي عبيدة بن الجراح بالقتال على جبهتيهما هاجم خالد بسرية الخيالة الموحدة الميمنة البيزنطية، وفي الوقت نفسه شطر قِسمًا من مجموعة الخيالة لمهاجمة الطرف الأيسر من الميسرة البيزنطية.

المرحلة الأولى من الهجوم

بينما قام عمرو بن العاص، قائد الميمنة، في الوقت نفسه بشن الهجوم على الميسرة الرومية البيزنطية ذات الأكثرية السلافية التي كانت بقيادة قناطير.

وقد صمدت الميسرة البيزنطية بقيادة قناطير أمام الهجومين من الأمام ومن اليسار، ولكن بفقدان الدعم من فرق الخيالة البيزنطيين، الذين انشغلوا بصد هجوم الفرسان المسلمين، تراجعت قوات قناطير باتجاه القسم الأيسر من قلب الجيش الرومي، حيث يقاتل الأرمن بقيادة ماهان.

بعد رؤية هذا التحول استغلَّ عمرو بن العاص قائد الميمنة الإسلامية تلك اللحظات ليشن هجومًا على الجانب الأيسر من قلب جيش الروم من جهته اليسرى، فوقع القسم الأيسر من قلب الجيش البيزنطي باختلال في التوازن بسبب ضغط أعداد الجنود السلاف المتراجعين.

المرحلة الثانية من الهجوم

وفي الوقت نفسه شدَّد شرحبيل ابن حسنة قائد القسم الأيمن من قلب الجيش الإسلامي من هجومه على القلب البيزنطي من الأمام.

المرحلة الثالثة من الهجوم

الآن تقهقر الجناح الأيسر للجيش البيزنطي وراح المسلمون يستغلون ذلك ويتابعون تقدمهم، هنا، أوعز خالد للفرسان بترك القتال الرئيسي الدائر والعودة إلى الوحدة الرئيسة لعزل الخيالة البيزنطيين عن مُشاتهم، وإبعادهم عن الجيش البيزنطي بشكل كامل باتجاه الشمال.

المرحلة الرابعة من الهجوم

عندما رأى ماهان ذلك، دعا كافة الخيالة الروم للتجمع خلف قلب الجيش البيزنطي؛ لتنظيم هجوم معاكس ضد الخيالة المسلمين، ولكن ماهان لم يكن سريعًا بالشكل الكافي، فقد تقدَّم خالد سريعًا لمهاجمة الخيالة أثناء تجمعهم، وذلك من الجهتين الأمامية والجانبية، بينما كانوا في مناورات التحضير للهجوم المعاكس، وكان الفرسان المسلمون المسلحون بشكل خفيف مؤهلين أكثر، بل متفوقين من حيث سرعة التحرك والمناورة؛ حيث كانوا يستطيعون الهجوم والتراجع بسرعة والعودة للهجوم مرة أخرى، وسارع الخيالة البيزنطيون إلى الهرب باتجاه الشمال في حالة من الفوضى والعشوائية تاركين المشاة لمصيرهم، وكان بينهم كذلك قوات جبلة الراكبة؛ حيث تشتت باتجاه دمشق.

المرحلة الخامسة من الهجوم

بعد تشتت فرق الخيالة البيزنطيين، تحوَّل خالد إلى نواة جيش الروم البيزنطيين؛ الأرمن بقيادة ماهان، لمهاجمتهم من الخلف، وكان الأرمن من المقاتلين الأشداء، الذين كانوا على وشك النصر على المسلمين قبل يومين عندما قاموا باختراق جيش المسلمين، ولكن تحت هجمات من اتجاهات ثلاثة في آنٍ واحد؛ فرقة الخيالة بقيادة خالد من جهة الخلف، وجنود عمرو من اليسار وجنود شرحبيل من الأمام، ودون دعمٍ من الفرسان الروم، إضافة إلى الاختلال الذي أحدثته في صفوفهم جنود السلاف بقيادة قناطير المتراجعة، لم يكن للأرمن أي فرصة بالصمود فهزموا.

مرحلة الحصار

بعد هزيمة الأرمن هُزمت كافة الجيوش البيزنطية؛ فتشتَّت بعضهم بشكل عشوائي مرعوبين، وتراجع آخرون بانتظام باتجاه الغرب نحو وادي الرقاد.

ولكن عندما وصلت قوات البيزنطيين إلى المعبر الضيق على النهر واجهت مجموعة من فرسان المسلمين بقيادة ضرار بن الأزور، كانت بانتظارهم، وكجزء من خطة خالد كان قد أرسل في الليلة السابقة سرية من الخيالة تُقَدَّر بـ٥٠٠ رجل؛ لسدِّ المعبر الضيق الذي يبلغ عرضه ٥٠٠ متر فقط، وفي الحقيقة فقد كان هذا الطريق هو الذي كان يرغب خالد بن الوليد للروم أن يسلكوه في تراجعهم في حال نجاح خطته.

المرحلة النهائية وحسم المعركة

تقدَّم جنود المشاة المسلمون من الشرق، وفرسان خالد بن الوليد من جهة الشمال؛ ليصلوا إلى الوحدة الخيالة المسلمين، التي تراقب المعبر الضيق من جهته الغربية، وإلى الجنوب كان هناك الجرف العميق التابع لنهر اليرموك، والذي تراجعت إليه القوات البيزنطية وبدأ انحصارها.

وبدأت المرحلة النهائية من المعركة عندما اندحر القسم الأكبر من القوات البيزنطية باتجاه الجرف تحت تأثير القتال من جهة الأمام، بينما كانوا يتراجعون باتجاه المركز نتيجة الهجوم من الجانب، حيث نجم عن ذلك اختلال التوازن في الجيش.

عند ذلك فقد الجيش البيزنطي المتحالف كل المعلومات والارتباطات، ووصل إلى النقطة التي يتجنَّبُها كل القواد العسكريين، وهي عندما تُصبح وحداتهم عبارة عن حطام أو ركام مُسلح، فقد انحصر الجيش البيزنطي بشكل لم يعد يستطع فيه الجنود استخدام سلاحهم بشكل طبيعي؛ لذلك فقد انسحبوا بسرعة محاولين إيجاد طريق للهرب عبر الجرف وبدون نجاح، فبعضهم هوى في الجرف، بينما سقط الآخرون قتلى أو أسروا؛ لتنتهي بذلك معركة اليرموك.

المطاردة

لم يتواجد خالد بن الوليد مساء اليوم السادس بعد إحراز النصر وانتهاء المعركة في

معسكر المسلمين، بل شوهد مساء اليوم التالي في المعسكر؛ فقد تابع خالد بن الوليد وفريقه فلول ماهان المتجهة إلى دمشق واشتبك معهم ليُقْتَل ماهان على يد أحد المقاتلين المسلمين، فقد قطع رأسه وصرخ: «والله قد قتلت ماهان». وكانت العادة السائدة آنذاك أن المعركة تنتهي بهروب الجيش المنكسر؛ لذلك فكان آخر ما توقَّعه ماهان وجنوده المنهزمون هو متابعة خالد لهم.

بعد المعركة

كانت معركة اليرموك من أعظم المعارك الإسلامية، وأبعدها أثرًا في حركة الفتح الإسلامي؛ فقد تلقى جيش الروم -وهو أقوى جيوش العالم يومئذٍ- هزيمة قاسية، وفقد زهرة جنده، وقد أدرك هرقل -الذي كان في حمص- حجم الكارثة التي حلَّت به وبدولته، فغادر سوريا نهائيًّا وقلبه ينفطر حزنًا، وقد ترتب على هذا النصر العظيم أن استقر المسلمون في بلاد الشام، واستكملوا فتح مدنه جميعًا، ثم واصلوا مسيرة الفتح إلى الشمال الإفريقي.



معركة نهاوند

التاريخ	٢٠هـ/ ٦٤١م	
المكان	قرب بلدة نهاوند في إيران	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الراشدة (مسلمون)	الإمبراطورية الساسانية الفارسية (زرادشتيون)
القادة	النعمان بن مقرن	الفيرزان
القوى والحشود	٣٠ ألف مقاتل	١٥٠ ألف مقاتل
الخسائر	غير معروفة	١٠٠ ألف قتيل

معركة نهاوند من المعارك الفاصلة في الفتح الإسلامي لفارس، وقعت في خلافة عمر بن الخطاب سنة (٢٠هـ/ ٦٤١م)، وقيل: سنة (١٩هـ/ ٦٤٠م). قرب بلدة نهاوند في فارس، وقد انتصر فيها المسلمون انتصارًا كبيرًا بقيادة النعمان بن مقرن على الفرس الساسانيين، إلا أن النعمان قُتل في المعركة، وبانتصار المسلمين انتهى حكم الدولة الساسانية في إيران بعد أن دام حكمها ٤١٦ عامًا.

قبل المعركة

لما انتصر المسلمون في القادسية على الفرس كاتب يزدجرد أهل الباب والسند وحلوان؛ ليجتمعوا فيوجهوا ضربة حاسمة للمسلمين، فتكاتبوا واجتمعوا في نهاوند.

وأرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر يقول: «بلغ الفرس خمسين ومائة ألف مقاتل، فإن جاءونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك».

وأرسل عمر إلى سعدٍ محمدَ بن مسلمة ليخبره أن يستعد الناس لملاقاة الفرس، فغادر سعد الكوفة إلى المدينة ليخبر عمر بخطورة الموقف شفاهة، فجمع عمر المسلمين في المدينة،

وخطب فيهم وشرح لهم خطورة الوضع، واستشارهم، وأشاروا عليه أن يقيم هو بالمدينة، وأن يكتب إلى أهل الكوفة فليخرج ثلثاهم لمساعدة الجيش الإسلامي وأهل البصرة بمن عندهم. ثم قال عمر: «أشيروا عليَّ برجل أوليه ذلك الثغر غدًا». فقالوا: «أنت أفضل رأيًا وأحسن مقدرة». فقال: «أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكونن أول الأسنة إذا لقيها (أي أول مَنْ يتلقَّى الرماح بصدره، كناية عن شجاعته) غدًا». فقيل: «مَنْ يا أمير المؤمنين؟». فقال: «النعمان بن مقرن المزني». فقالوا: «هو لها».

ودخل عُمر المسجد ورأى النعمان يُصَلِّي، فلما قضى صلاته بادره عمر قائلاً: «لقد انتدبتك لعمل». فقال: «إن يكن جباية للضرائب فلا، وإن يكن جهادًا في سبيل الله فنعم». وانطلق النعمان عام ٢٠ للهجرة يقود الجيش، وبرفقته بعض الصحابة الكرام.

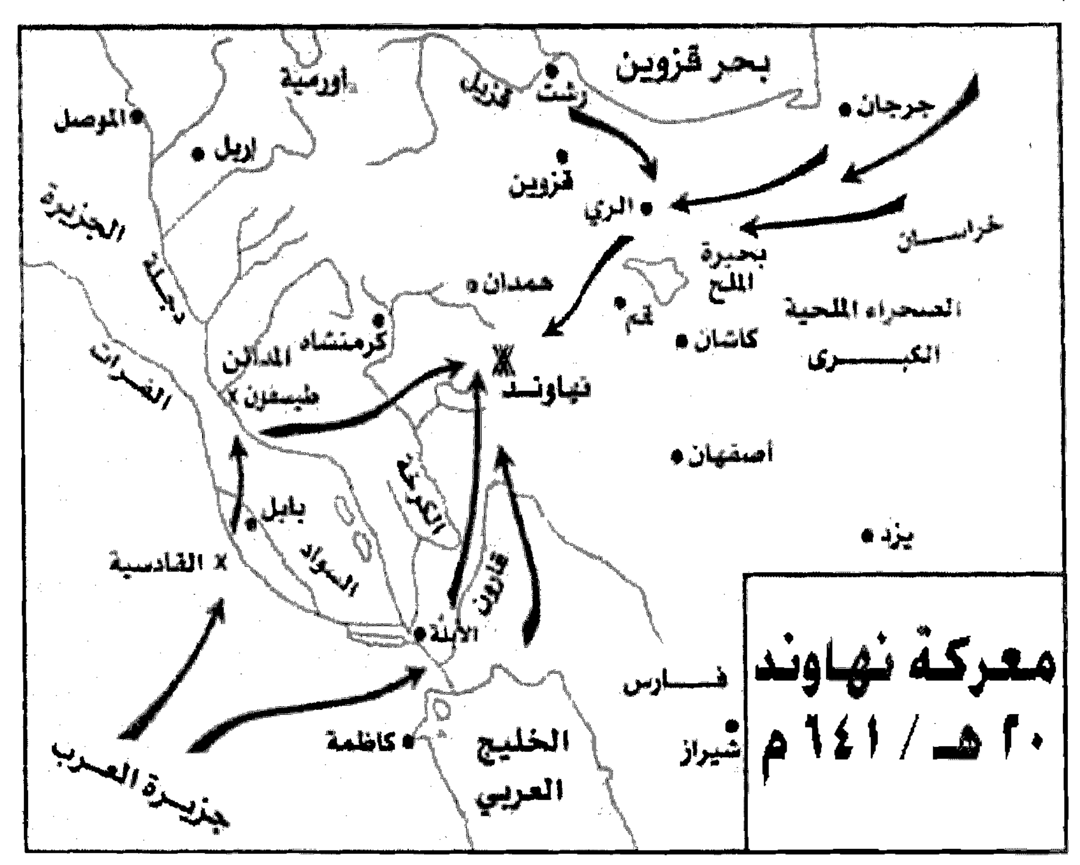
وطرح الفرس حسك الحديد (مثل الشوك يكون من الحديد) حول مدينة نهاوند، فبعث النعمان عيونًا فساروا لا يعلمون بالحسك، فزجر بعضهم فَرَسه فدخلت في يده حسكة، فلم يبرح الفَرَس مكانه، فنزل صاحبه ونظر في يده فإذا في حافره حسكة، فعاد وأخبر النعمان بالخبر، فاستشار جيشه، فقال: «ما ترون؟» فقالوا: «انتقل من منزلك هذا حتى يروا أنك هارب منهم، فيخرجوا في طلبك». فانتقل النعمان من منزله ذلك، وكنست الأعاجم الحسك فخرجوا في طلبه، فرجع النعمان ومَنْ معه عليهم، وقد عبَّأ الكتائب ونظَّم جيشه وعدده ثلاثون ألفًا، وجعل على مقدمة الجيش نعيم بن مقرن، وعلى المجنبتين: حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجردة القعقاع بن عمرو، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود، ونظَّم الفُرس قواتهم تحت إمرة الفيرزان، وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذي ترك مكانه لذي الحاجب، وكان تعداد الفرس مائة وخمسين ألفًا.

المغيرة رسول الجيش

اجتمع المسلمون حول نهاوند واجتمع الفرس فيها وأميرهم الفيرزان، وأرسل أحد قواد الفرس واسمه بندار إلى جيش المسلمين: «أن أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه». فذهب إليهم داهية المسلمين المغيرة بن شعبة بمنظر رهيب وشعر مسترسل طويل، فلما وصل إليهم استشار بندار أصحابه: «بأي هيئة نأذن له؟ هل بِشَارَاتِنَا ومُلكنا وفخامتنا؛ حتى نُرهبهم بقوَّة مُلكنا، أم بالتقشف؛ حتى يزهدوا بنا ولا يطمعوا في مُلكنا؟» فأشاروا عليه: «بل بأفضل ما يكون من

الشارة والعدة». فتهيَّئوا له بأفخر الأثاث والثياب.

دخل المغيرة، فقرَّبوا إلى جسمه ووجهه الحراب والنيازك يلتمع منها البصر، وجند بندار حوله؛ كي يزيدوا المنظر رهبة، وصاروا يدفعونه ويزجرونه، أما بندار فعلى سرير من الذهب، وعلى رأسه تاج نفيس، فقال المغيرة: «الرسل لا يُفعل بهم هذا». فقالوا: «إنما أنت كلب». فقال المغيرة: «لأنا أشرف في قومي من هذا في قومه (وأشار إلى بندار)».



فانتهره الجند، وقالوا: «اجلس». فجلس، فتكلم بندار وتُرجم للمغيرة، ومما قاله: «إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير، وأطول الناس جوعًا، وأشقى الناس شقاءً، وأقذر الناس قذرًا، وأبعدهم دارًا، وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشَّاب إلا تنجُّسًا لجيفكم؛ فإنكم أرجاس، فإن تذهبوا تركناكم، وإن تأتوا نركم مصارعكم».

فحمد المغيرة الله وأثنى عليه، ثم قال: «والله ما أخطأت من صفتنا شيئًا ولا من نعتنا، إن كنا لأبعد الناس دارًا، وأشد الناس جوعًا، وأشقى الناس شقاءً، وأبعد الناس من كل خير،

حتى بعث الله ﷻ إلينا رسوله ﷺ، فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، فوالله! ما زلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر، حتى أتيناكم، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبدًا حتى نغلبكم على ما في أيديكم، أو نُقتل بأرضكم، وإني أرى عليكم بِزَّةً وهيئة ما أرى مَن خلفي يذهبون حتى يُصيبوها».

قال المغيرة: «فقلت في نفسي: لو جمعتُ ثيابي فوثبتُ وثبة فقعدت مع هذا العلج بندار على سريره؛ لعله يتطير. قال: فوجدت غفلة، فوثبت فإذا أنا معه على سريره». فصرخ بندار: «خذوه». فأخذه الجند، وصاروا يطئونه بأرجلهم، فقال المغيرة: «هكذا تفعلون بالرسل؟! فإنَّا لا نفعل هكذا، ولا نفعل برسلكم هذا».

شعر بندار أن المغيرة بدأ يحطم من معنويات جنده؛ لأنه بدأ يُظهر عزَّته التي هذَّبه بها الإسلام، وظهرت سوء أخلاقيات الفرس، فأراد أن يقطع هذه المناظرة فقال: «إن شئتم قطعتم إلينا، وإن شئتم قطعنا إليكم».

فعاد المغيرة واستشار قائد الجيش النعمان، فقال النعمان: «اعبروا».

المعركة

بدأ النعمان القتال يوم الأربعاء، ودام على شكل مناوشات حادة إلى يوم الخميس، والحرب سجال بين الفريقين، وكان الفرس خلالها في خنادق.

وخشي المسلمون أن يطول الأمر فاستشار النعمان أصحابه، فتكلم قوم فرُدَّت آراؤهم، ثم تكلم طليحة، فقال: «أرى أن تبعث خيلاً مؤدَّبة، فيُحدقوا بهم، ثم يرموا ليُنشبوا القتال، ويحمشوهم (أي يغضبوهم)، فإذا أحمشوهم واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا (أي انضموا)، إلينا استطرادًا (أي خديعة)». وأقرَّ الجميع هذا الرأي، فأمر النعمانُ القعقاعَ أن يُنشب القتال فأنشبه، فخرج الفرس من خنادقهم، فلما خرجوا نكص القعقاع بجنده، ثم نكص ثم نكص، وخرج الفرس جميعًا فلم يبقَ أحدٌ إلاَّ حرس الأبواب، حتى انضمَّ القعقاع إلى الناس، والنعمان والمسلمون على تعبئتهم في يوم جمعة في صدر النهار، وأقبل الفرس على الناس يرمونهم، حتى أَفْشَوْا فيه الجراحات، والمسلمون يطلبون من النعمان الإذن بالقتال، وبقي النعمان يطلب منهم الصبر.

فلما جاء الزوال وهبَّت الرياح أمر بالقتال، كل ذلك إحياءً لسُنَّة رسول الله ﷺ؛ الذي كان يختار هذا الوقت للقتال، وعندئذٍ ركب فرسه، وبدأ يُحَرِّض المسلمين على القتال، ثم قال: «فإن قُتلت فالأمير بعدي حذيفة، وإن قُتِلَ فلان...». وعدَّ سبعة.

وكبَّر النعمان التكبيرة الأولى ثم الثانية، ثم قال: «اللهم أعزز دينك وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، أَمِّنُوا رحمكم الله». فبكى الناس.

وكبَّر النعمان التكبيرة الثالثة، وبدأ القتال، وأثناء تقدُّم القائد بدأ الفرس يتركون الساحة وزلق بالقائد فرسه من كثرة الدماء في أرض المعركة، فصُرع بين سنابك الخيل، وجاءه سهم في جنبه، فرآه أخوه نعيم فسجَّاه بثوب، وأخذ الراية قبل أن تقع وناولها حذيفة بن اليمان فأخذها، وقال المغيرة: «اكتموا مصاب أميركم؛ حتى ننتظر ما يصنع الله فينا وفيهم؛ لئلاَّ يهن الناس».

ولما زلق فرس النعمان به لمحه معقل بن يسار، فجاءه بقليل من الماء، فغسل عن وجهه التراب، فقال النعمان: «مَنْ أنت؟» قال: «أنا معقل بن يسار». قال: «ما فعل الناس؟» قال: «فتح الله عليهم». قال: «الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر». وفاضت روحه.

النصر

ولما أظلم الليل انهزم الفرس وهربوا فوقعوا في وادٍ دون قصد، فكان واحدهم يقع فيقع معه ستة، فمات في هذه المعركة مائة ألف أو يزيد، قُتِل في الوادي فقط ثمانون ألفًا، وقتل ذو الحاجب، وهرب الفيرزان، وعلم بهربه القعقاع فتبعه هو ونعيم بن مقرن، فأدركاه في وادٍ ضيق فيه قافلة كبيرة من بغال وحمير محملة عسلاً ذاهبة إلى كسرى، فلم يجد طريقًا فنزل عن دابته، وصعد في الجبل ليختفي، فتبعه القعقاع راجلاً فقتله.

وحزن المسلمون على موت أميرهم، وبايعوا بعد المعركة أميرهم الجديد حذيفة، ودخلوا نهاوند عام (٢٠هـ/ ٦٤١م) بعد أن فتحوها.

* * *

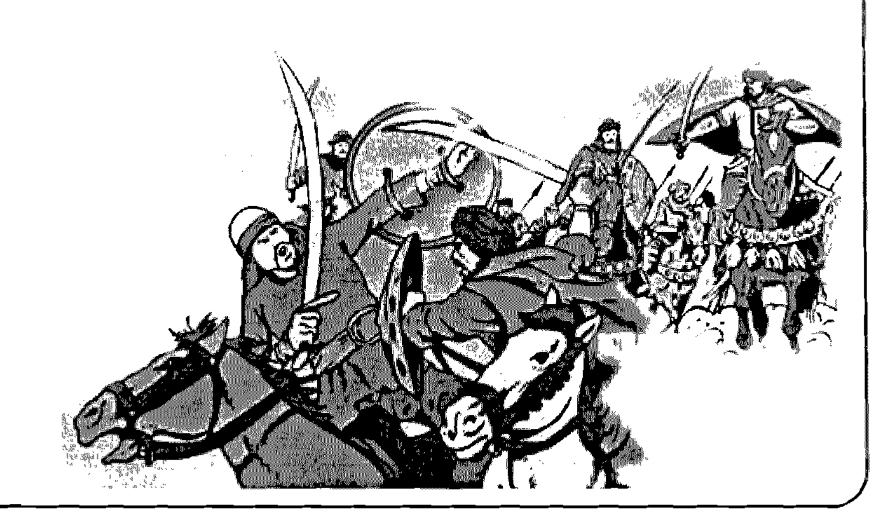
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com






الفصل الثالث

أيام لا تنسى في العهد الأموي




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فتح الديبل والسند

محاولات فتح السند

بعد عدَّة محاولات قام بها الخلفاء الراشدون لغزو السند (باكستان حاليًا) غزا المهلب ثغر الهند في أيام معاوية بن أبي سفيان، فوصل إلى بتة والأهور (الأهور هي لاهور)، وقد عاد بنتيجة قليلة رغم أنه تمكن من دخول بتة.

وفي أيام معاوية -أيضًا- سار عبد الله بن سوار العبدي فغزا القيقان، وغنم خيلاً أهدى منها معاوية، ثم رجع إلى القيقان، فاستغاث أهلها بالترك، ولقوا عبد الله بن سوار في معركة قُتل فيها، وكان عبد الله هذا من رجال عبد الله بن عامر.

وفي أيام معاوية كذلك أرسل زياد بن أبيه قائدًا يُسمى سنان بن سلمة الهذلي، ففتح مكران ومصرها وأسكنها العرب وهذا أول جزء من غربي البنجاب يدخل في دولة الإسلام.

وكانت الهند تسمى الثغر، وكان الثغر يشمل المساحة التي تلي سجستان وزابلستان وطخارستان ووخان شرقًا.

وزياد بن أبيه هو الذي جعل ولاية الثغر قائمة بنفسها، وولَّى عليها واليًا، وكان أول مَنْ ولاَّه عليها راشد بن عمرو الجديدي من الأزد، ففتح القيقان وظفر، ثم استطرد فغزا الميد إلى شرق قيقان فقُتل، فولى زياد بن أبيه مكانه سنان بن سليمة الهذلي فظل واليًا عليها سنتين.

وغزا عياد بن زياد ثغر الهند من سجستان، فأتى سناروذ ثم سار نحو «حوى كهز» والروذبار من أرض سجستان إلى الهند، فنزل كش ثم قطع المسافة إلى قندهار وفتحها، وبذلك امتدت حدود الإسلام الشرقية حتى قندهار، ثم تولى ثغر الهند المنذر بن الجارود العبدي، ويكنى أبا الأشعث، فغزا البوقان ثم القيقان، وفتح قصدار، فدخل الإسلام قصدار والبوقان وأسلم أهلها.

وولى الحجاج سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي مكران وثغر الهند، فقُتل في حربه مع ثائرَيْن عربيين أرادا الاستيلاء على الثغر؛ وهما محمد ومعاوية ابنا الحارث العلافي.

ثم ولى الحجاج مجاعة بن سُعر التيمي الثغر، ففتح جزءًا من ناحية قندابيل، ومات بعد سنة، وقد أتم فتحه محمد بن القاسم.

ثم استعمل الحجاج بعد ذلك على الثغر محمد بن هارون بن ذراع النمري، وكان ملك السند إذ ذاك هو داهر، وقد وقعت في أيام محمد بن هارون مناوشات بين المسلمين ورجال داهر، قُتل فيها محمد بن هارون.

أسباب الفتح

في خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان أرسل ملك جزيرة الياقوت (سيلان) سفينة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقيين، مُحملة بالتحف والهدايا من الدر والياقوت والجواهر الثمينة والعبيد، مع نسوة وُلِدْنَ في بلاده مسلمات ومات آباؤهن، وكانوا تجارًا، فأراد التقرب بهن إلى قطب العالم آنذاك ومحوره الخليفة الأموي؛ حيث أرسل إلى دار الخلافة بدمشق بالإضافة إلى ما سبق تحفًا وطرائف لا مثيل لها، كما كان هدف النساء المسلمات زيارة الكعبة المشرفة، وهبت رياح عاتية فقذفت بالسفينة إلى سواحل الديبل وهي بلدة على ساحل ماء السند تبعد ٥٠كم جنوب شرق كراتشي حاليًا، حيث كان يقطنها مجموعة من القراصنة فهاجموا السفينة، وقتلوا بعض ركابها وبحارتها، وأخذوا الباقين من النساء والرجال والأطفال أسرى، كما سلبوا جميع التحف والأموال، فصاحت امرأة من بين الأسرى: «يا حجاج يا حجاج أغثني أغثني!». وفرَّ بعض الناس والتجار من الذين كانوا على متن السفينة، وجاء بعضهم إلى الحجاج وذكروا له ما حدث، مع استغاثة تلك المرأة، به فقال: «لبيكِ لبيكِ».

فكتب الحجاج إلى داهر بن صصة ملك السند بإرجاع النساء والتحف إلى دار الخلافة، فرد عليه داهر: «إن هذه الطائفة مجموعة من اللصوص والخارجين عن سلطتنا، وهم أشرار أقوياء، لا يستطيع أحد ملاحقتهم والتغلب عليهم».

محاولات الفتح في عهد الحجاج

كتب الحجاج رسالة إلى الخليفة يطلب فيها الإذن بغزو السند والهند، ولكن الوليد لم يأذن له، فكرَّر الحجاج طلبه حتى وافق الخليفة، فأرسل الحجاج عبد الله بن نبهان السلمي لفتح الديبل فاستشهد، ثم أرسل بديل بن طهفة البجلي بثلاثة آلاف فاستشهد، فحزن

الحجاج حتى قال لمؤذنه: «يا مؤذن؛ اذكر اسم بديل كلما أقمت الأذان، لأتذكره وآخذ بثأره».

واستأذن الحجاج الخليفة في إرسال جيش كبير ومنظم لغزو السند فوافق، فعين الحجاج محمد بن القاسم الثقفي الذي كان عمره آنذاك سبعة عشر عامًا، وكان واليًا على فارس، وطلب من الخليفة ستة آلاف مقاتل من أشراف الشام وأبنائهم، فجاءه العدد الذي طلبه.

محمد بن القاسم قائدًا للفتح

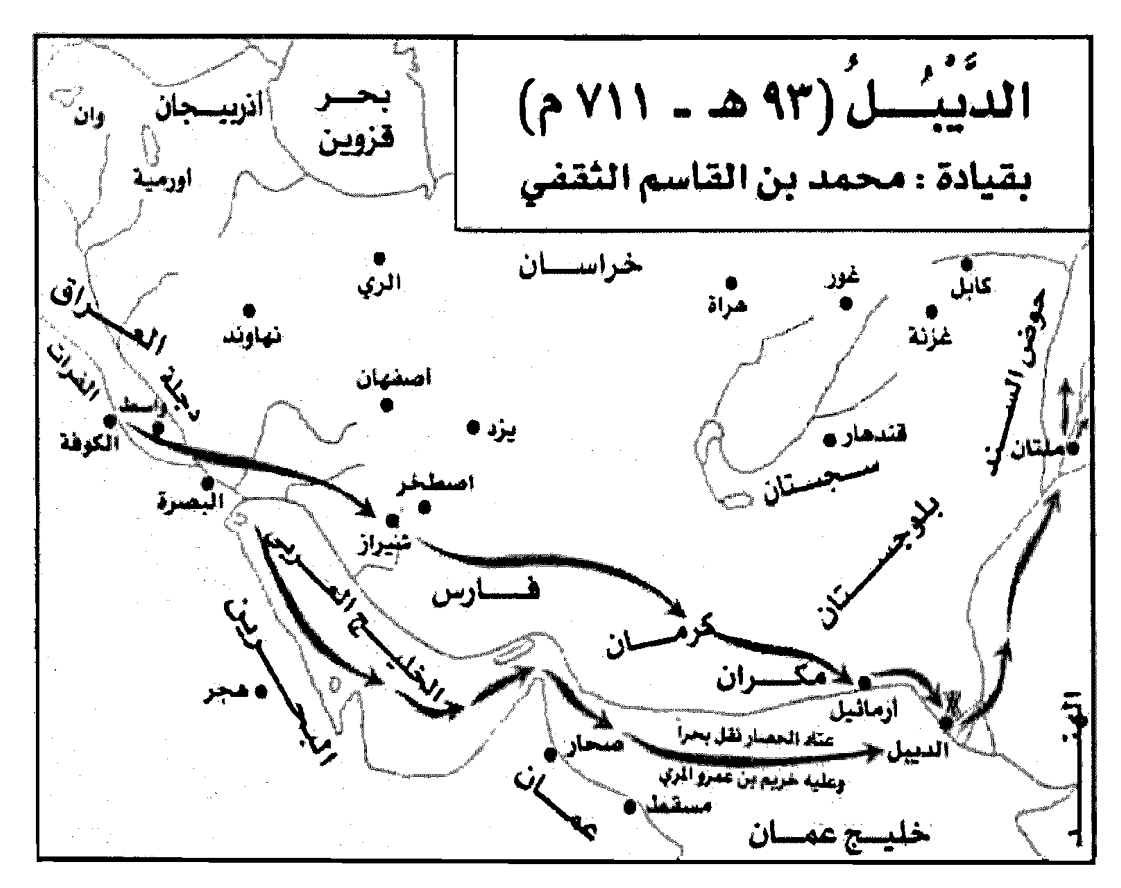
وصَّى الحجاجُ محمدَ بن القاسم قائلاً: «اخرج عن طريق (شيراز)، واطوِ المنازل واحدًا تلو الآخر، حتى يأخذ منك الغضب مأخذًا شديدًا». وجهز الحجاج الجيش بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والقطن المحلوج، وسَيَّر محمد بن القاسم، وأمره أن يُقيم بمدينة شيراز من أرض فارس كي يلتحق به جند الشام والعراق، فتحرك، فلما وصل عسكر بظاهرها. وأمر الحجاجُ بجمع ما هو موجود من المنجنيقات والسهام والرماح ووضعها في السفن الحربية، وعيَّن عليها قائدين من خيرة القواد، وكتب إلى محمد بن القاسم أن ينتظر وصول السفن إلى الديبل، وبعد استكمال الاستعدادات في شيراز، ووصول ستة آلاف فارس وثلاثة آلاف بعير لحمل الأثقال والعتاد، انطلق محمد بن القاسم ومعه اثنا عشر ألف مقاتل إلى الشرق، حتى وصل مكران، فأقام بها أيامًا، ثم توجه منها إلى فنزبور، ثم إلى أرمائيل، وهناك وصلت السفن.

حصار الديبل

نزل ابن القاسم بعد ذلك إلى أسوار الديبل، وحفر الخنادق، ورفع الرايات والأعلام، ونصب المنجنيقات، ونصب منجنيقًا يُعرف بالعروس، كان يعمل لتشغيله خمسمائة رجل، وكان في وسط الديبل معبد كبير للأصنام تتوسطه قبة عالية، ترفرف عليها راية خضراء، وكان ارتفاع المعبد أربعين ذراعًا، وسعة القبة أربعين ذراعًا، وارتفاع الراية مثلها، وكان للراية أربعة ألسن تتطاير في الهواء، ودعا ابن القاسم أمير جند منجنيق العروس، وقال له: «إذا أمكنك أن تكسر رأس معبد الأصنام هذا وعمود الراية التي ترفرف فوقه أعطيتك عشرة آلاف درهم».

المنجنيق يهدم معبد الديبل

وفي اليوم المحدد للقتال بدأ أمير المنجنيق الرمي، وطارت راية المعبد وبعض قاعدته، ثم رمى الحجر الثاني فأصاب قبة المعبد فانهارت تمامًا، وفي الحجر الثالث أصبح أنقاضًا مع الأرض سواء، ثم قرعت الطبول في الديبل، وبدأ هجوم الجيش هجمة واحدة، وثلم المنجنيقُ سور الديبل، فوصل المجاهدون إلى أعلى السور وأبراجه، ثم فتح أهل الديبل أبواب مدينتهم وطلبوا الأمان، فدخلها ابن القاسم واستباحها ثلاثة أيام، وتوجَّه إلى السجن الذي ضم الأسرى المسلمين، فحرَّرهم ووضع بدلاً منهم مجموعة من قراصنة الديبل، ثم حوَّل ابن القاسم الديبل إلى مدينة إسلامية، وأزال كل آثار البوذية بها، وبنى بها المساجد، وأسكنها ٤ آلاف مسلم.



استكمال الفتح

ثم توجَّه ابن القاسم إلى فتح نيرون (حيدر آباد حاليًا)، عبر مياه السند في ستة أيام، وحينما وصلها أرسل حاكمها رسولين محملين بالغذاء والأعلاف، وفتح لابن القاسم باب المدينة، وأخذ يبيع ويشتري البضائع مع جيش المسلمين، ودخل ابن القاسم المدينة، وهدم

معبد الأوثان، وبني مكانه مسجدًا، ثم سار إلى حصن سيوستان، وأراد أهلها الأمان، ولكن حاكم المدينة رفض بشدة واستعد للحرب، ونصب ابن القاسم المنجنيقات وبدأ الحصار، وحينما تيقَّن حاكم المدينة من الهزيمة، وضاق ذرعًا بالحصار فرَّ ليلاً، ثم فتحت المدينة أبوابها.

فتح السند

سار ابن القاسم نحو حصن سيويس وفتحه، ثم عاد إلى نيرون، واتخذ قراره بعبور نهر مهران؛ للقاء داهر ملك السند، وأرسل رسولين له لدعوته للطاعة فرفض، وعندئذٍ تخير ابن القاسم أفضل معابر النهر، وهيَّأ السفن لذلك، وخلال هذه المراسلات والاستعدادات التي استمرَّت خمسين يومًا نفدت أرزاق المسلمين، وقلَّت أعلاف الخيل والدواب، ونفق عدد من الخيل بعد إصابتها بالجذام، واشتكى الجيش من قلة الغذاء، فاضطر الجند إلى أكل لحوم الخيل المريضة، فكتب ابن القاسم رسالة للحجاج بالأوضاع، فأرسل له الحجاج ألفي حصان ملكًا للمجاهدين، وليست عارية مسترجعة.

ثم تجوَّل ابن القاسم ليرى أفضل وأضيق مكان للعبور على نهر مهران، ثم أمر بإحضار السفن وربط بعضها ببعض؛ ليصنع منها جسرًا للعبور، وتقدمت جماعة من جند داهر وقادته؛ ليمنعوا ابن القاسم من ربط أجزاء النهر، ولما وصلت طلائع السفن على مقربة من الساحل الشرقي بدأ المقاتلون المسلمون برمي السهام والرماح بكثافة؛ مما أدَّى إلى تراجع قوات داهر، مما سهل عبور الجيش المسلم، وفرَّ جند داهر، وسار ابن القاسم إلى منطقة جيور، ونزل بجيشه على مقربة من نهر ددهاواه، والتحم الجمعان من بداية الصباح وحتى المساء، ثم تراجع كلٌّ إلى موضعه، وكان عدد الفيلة ستين فيلاً، وقيل: مائة. وكان داهر على أكبرها، وقد عملت في المسلمين الأفاعيل.

وظلَّ الحال هكذا خمسة أيام، وفي اليوم السادس غير الجيشان تنظيم صفوفهما، وفي اليوم السابع شجع ابن القاسم رجاله وحرضهم على القتال، وبدأت سهام المسلمين المشتعلة بالنار تتساقط على هودج داهر، ورمى أحد الرماة بسهمه فأصاب قلب الهودج، وأشعل فيه النار، فعاد جيش داهر بفيله إلى الوراء وقد اشتعل بالنيران، وسقط معه في الماء، وعندها وصل الفرسان المسلمون إليه وقد تشرذم الجيش من حوله وحلَّت به الهزيمة، وحاول داهر الخروج من الماء فصوب إليه أحد الرماة المسلمين المهرة سهمًا فأصابه، ولكنه تحامل على نفسه وتمكن من

الظهور من الماء، فتقدَّم منه عمرو بن خالد الكلابي فعلاه بسيفه وضرب به رأس داهر، فشقَّه نصفين حتى الرقبة، وتتبع المسلمون فلول جيش داهر المقتول حتى حصن راؤر ففتحوه، ثم فتح ابن القاسم مدينة دهليلة، ثم توجه إلى برهمناباذ ففتحها، وأعطى أهلها الأمان الذي طلبوه، وفرض الجزية على مَنْ لم يُسْلم، ثم عين البراهمة في المناصب التي تناسبهم، وخصَّص لهم المال، وأجلسهم في المحافل في الأماكن التي كانت مخصصة لأمراء الهند وملوكها، وأعطى لعوام الناس الأمان في ممارسة طقوسهم الدينية، ثم واصل محمد بن القاسم جهاده؛ ففتح العديد من المدن بعضها صلحًا وبعضها عَنْوَةً، وكان أهمها مدينة ملتان؛ وهي أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه فامتنعت عليهم شهورًا نفدت خلالها مؤنهم، حتى أتاهم رجل مستأمن دَلهُم على مدخل الماء الذي يشرب منه السكان، فقطعوه عليهم، وقاتل الهنودُ المسلمين قتالاً شديدًا، استمرَّ سبعة أيام اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها وفتحوا الملتان، وكان في كل مدينة يفتحها يبني المساجد والمنابر، حتى وصلت فتوحاته إلى حدود كشمير، واستطاع أن يُخضع السند لحكم الخلافة الإسلامية في مدة لم تتجاوز ثلاث سنين فقط.

الغنائم

أصاب محمد بن القاسم مالاً كثيرًا وعظمت فتوحاته، فراجع الحجاج حساب نفقاته على هذه الحملة فكانت «٦٠» مليون درهم، فحمل إليه محمد بن القاسم ضعف هذا المبلغ «١٢٠» مليون درهم، فقال الحجاج: «شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر».

ولقد أنجز محمد بن القاسم الثقفي هذا الفتح كله بين سنتي (٨٩-٩٤ هـ)، فأي عظمة في هذا القائد؟! وأي عظمة في هؤلاء الجند الفاتحين؟! وأي سرٍّ في هذا الدين العظيم؟!

وبعد موت الحجاج فتح محمد بن القاسم أرض البيلمان وأسلم أهلها، وسالمه أهل سرست، وهي في بلاد الميد، وهم جماعة من أهل السند كانوا مهرة في الملاحة، وكانوا يتلصصون في البحر، فدخلوا في طاعة المسلمين.

وتقدم محمد بن القاسم في بلاد السند فوصل إلى إقليم الكيرج، وكان ملكه يُسمى دوهر، فهزمه محمد بن القاسم وقتله، ودخلت بلاد الكيرج في طاعة المسلمين.

***

معركة وادي لكة

التاريخ	٩٢هـ/ ٧١١م	
المكان	وادي برباط	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الأموية (مسلمون)	دولة القوط الغربيين (مسيحيون)
القادة	طارق بن زياد	لذريق
القوى والحشود	١٢ ألفًا من المشاة	١٠٠ ألف فارس
الخسائر	٣ آلاف شهيد	كثيرة جدًّا

معركة وادي لكة أو معركة وادي برباط أو معركة شذونة؛ هي معركة وقعت بين المسلمين بقيادة طارق بن زياد وجيش الملك القوطي الغربي رودريجو، الذي يُعرف في التاريخ الإسلامي باسم لذريق، انتصر المسلمون انتصارًا ساحقًا؛ أدَّى إلى سقوط دولة القوط الغربيين؛ وبالتالى سقوط معظم أراضي شبه الجزيرة الأيبيرية تحت سلطة الخلفاء الأمويين.

قبل المعركة

في شهر شعبان (٩٢هـ) تحرَّك جيش المسلمين المكون من سبعة آلاف مجاهد فقط، وعلى رأسه القائد طارق بن زياد، تحرَّك هذا الجيش وعَبَر مضيق جبل طارق، والذي سُمّي بهذا الاسم (مضيق جبل طارق) لأن طارق بن زياد حين عبر المضيق نزل عند هذا الجبل، وقد ظل إلى الآن حتى في اللغة الإسبانية يسمى جبل طارق ومضيق جبل طارق، ومن جبل طارق انتقل طارق بن زياد إلى منطقة واسعة تسمى الجزيرة الخضراء، وهناك قابل الجيش الجنوبي للأندلس، وهو حامية جيش النصارى في هذه المنطقة؛ فلم تكن قوة كبيرة، وكعادة الفاتحين المسلمين فقد عرض طارق بن زياد عليهم: «الدخول في الإسلام ويكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا ونترككم وأملاككم، أو دفع الجزية ونترك لكم -أيضًا- ما في أيديكم، أو القتال، ولن نؤخركم إلا لثلاث». لكن تلك الحامية أخذتها العزة وأبت إلا القتال، فكانت

الحرب وكانت سجالاً بين الفريقين، حتى انتصر عليهم طارق بن زياد، فأرسل زعيم تلك الحامية رسالة عاجلة إلى لذريق وكان في طليطلة عاصمة الأندلس، يقول له فيها: «أدركنا يا لذريق؛ فإنه قد نزل علينا قومٌ لا ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء؟!».

حقًّا فهم أناس غريبون، فقد كان من المعروف عندهم أن الفاتح أو المحتل لبلد آخر إنما تقتصر مهمته على السلب والنهب لخيرات البلد، والذبح والقتل في كثير من الأحيان، أما أن يجدوا أناسًا يعرضون عليهم الدخول في دينهم ويتركون لهم كل شيء، أو أن يدفعوا لهم الجزية وأيضًا يتركون لهم كل شيء، فهذا مما لم يعهدوه من قبل في تاريخهم وفي حياتهم، وفضلاً عن هذا فقد كانوا في قتالهم من المهرة الأكفاء، وفي ليلهم من الرهبان المصلين، فلم يدري قائد الحامية في رسالته إلى لذريق أهُم من أهل الأرض، أم هم من أهل السماء؟! وصدق وهو كذوب؛ فهم من جند الله ومن حزبه: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

التحرك للمعركة

حين وصلت رسالة قائد الحامية إلى لذريق جنَّ جنونه، وفي غرور وصلف جمَّع جيشًا قوامه مائة ألف من الفرسان، وجاء بهم من الشمال إلى الجنوب يقصد جيش المسلمين، كان طارق بن زياد في سبعة آلاف فقط من المسلمين، جُلُّهم من المشاة وعدد محدود جدًّا من الخيل، فلما أبصر أمر لذريق وجد صعوبة كبيرة في هذا القياس، سبعة آلاف أمام مائة ألف، فأرسل إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد، فبعث إليه طريف بن مالك على رأس خمسة آلاف آخرين من المشاة أيضًا، وصل طريف بن مالك إلى طارق بن زياد، وأصبح عدد جيش المسلمين اثني عشر ألف مقاتل، وبدأ طارق بن زياد يستعد للمعركة، فكان أول ما صنع بحث عن أرض تصلح للقتال، حتى هداه البحث إلى منطقة تسمى في التاريخ وادي البرباط، وتسمى في بعض المصادر وادي لُقَّة أو لِقة بالكسر، وتسميها بعض المصادر -أيضًا- وادي لُكَّة.

ولقد كان لاختيار طارق بن زياد لهذا المكان أبعاد إستراتيجية وعسكرية عظيمة؛ فقد كان من خلفه وعن يمينه جبل شاهق، وبه حمى ظهره وميمنته، فلا يستطيع أحد أن يلتف حوله، وكان في ميسرته -أيضًا- بحيرة عظيمة فهي ناحية آمنة تمامًا، ثم وضع على المدخل الجنوبي لهذا الوادي (أي في ظهره) فرقة قوية بقيادة طريف بن مالك؛ حتى لا يباغت أحد

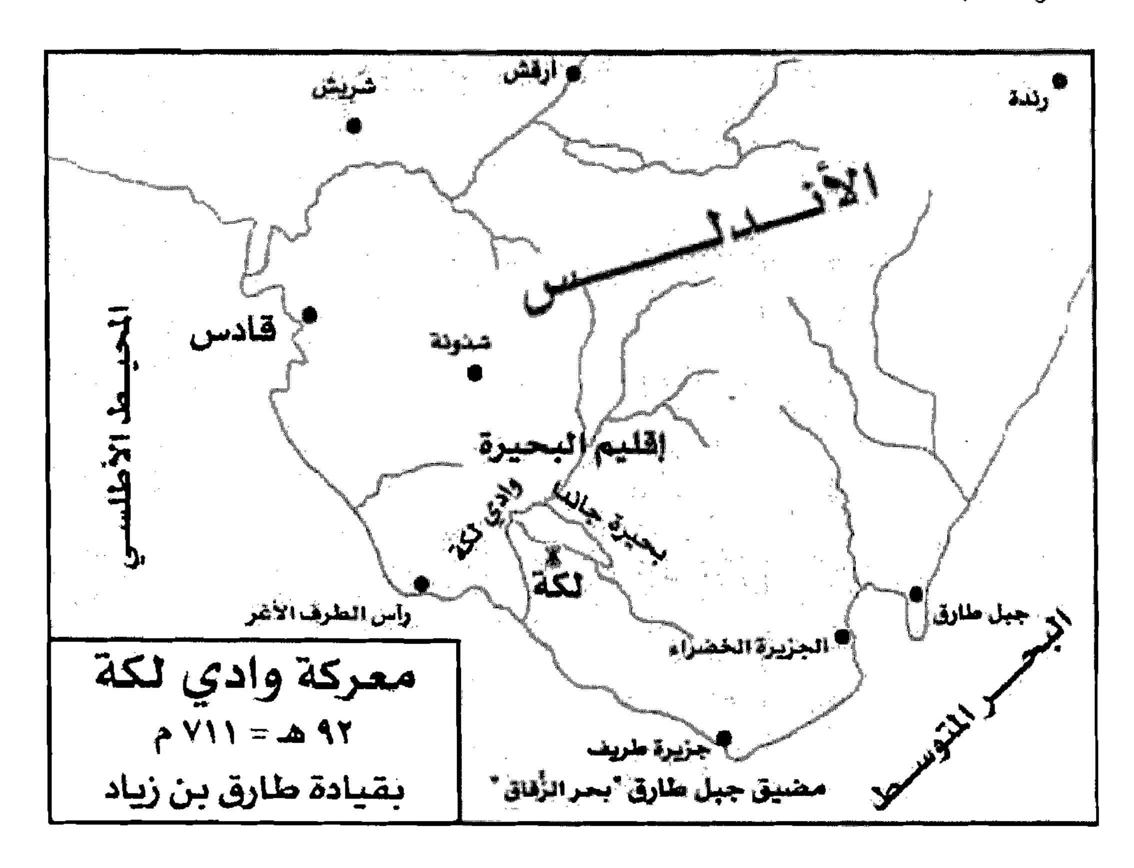
ظهر المسلمين؛ ومن ثَمَّ يستطيع أن يستدرج قوات النصارى من الناحية الأمامية إلى هذه المنطقة، ولا يستطيع أحد أن يلتف من حوله، ومن بعيد جاء لذريق في أبهى زينة، يلبس التاج الذهبي والثياب الموشاة بالذهب، وقد جلس على سرير محلًّى بالذهب يجره بغلان، فلم يستطع أن يتخلَّى عن دنياه حتى وهو في لحظات الحروب والقتال، وقدم على رأس مائة ألف من الفرسان، وجاء معه بحبال محملة على بغال؛ لتقييد المسلمين بها وأخذهم عبيدًا بعد انتهاء المعركة، وهكذا في صلف وغرور ظن أنه حسم المعركة لصالحه؛ فبمنطقه وبقياسه أن اثني عشر ألفًا يحتاجون إلى الشفقة والرحمة، وهم أمام مائة ألف من أصحاب الأرض مصدر الإمداد.

المعركة

في يوم (٢٨ رمضان ٩٢هـ/ ١٨ يوليو ٧١١م) تمَّ اللقاء في وادي برباط، وتدور معركة هي من أشرس المعارك في تاريخ المسلمين، وإن الناظر العادي إلى طرفي المعركة ليدخل في قلبه الشفقة حقًّا على المسلمين، الذين لا يتعدى عددهم الاثني عشر ألفًا، وهم يواجهون مائة ألف كاملة، فبمنطق العقل كيف يقاتلون فضلاً عن أن يَغلبوا؟!

ورغم المفارقة الواضحة جدًّا بين الفريقين إلا أن الناظر المحلل ليرى أن الشفقة كل الشفقة على جيش المائة ألف، فالطرفان ﴿خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] وشتان بين الخصمين! شتان بين فريق خرج طائعًا مختارًا، راغبًا في الجهاد، وبين فريق خرج مُكرهًا مضطرًّا مجبورًا على القتال! شتان بين فريق خرج مستعدًا للاستشهاد، مسترخصًا الحياة من أجل عقيدته، متعاليًا على كل روابط الأرض ومنافع الدنيا، أسمى أمانيه الموت في سبيل الله، وبين فريق لا يعرف من هذه المعاني شيئًا، أسمى أمانيه العودة إلى الأهل والمال والولد! شتان بين فريق يقف فيه الجميع صفًّا واحدًا كصفوف الصلاة، الغني بجوار الفقير، والكبير بجوار الصغير، والحاكم بجوار المحكوم، وبين فريق يمتلك فيه الناس بعضهم بعضًا، ويستعبد بعضهم بعضًا، فهذا فريق يقوده رجل رباني طارق بن زياد يجمع بين التقوى والحكمة، وبين الرحمة والقوة، وبين العزة والتواضع، وذاك فريق يقوده متسلط مغرور، يعيش مترفًا مُنَعَّمًا بينما شعبه يعيش في بؤس وشقاء وقد ألهب ظهره بالسياط، هذا جيش تُوَزَّع عليه أربعة أخماس الغنائم بعد الانتصار، وذاك جيش لا ينال شيئًا، وإنما يذهب كله إلى الحاكم المتسلط

المغرور وكأنها حارب وحده، هذا فريق ينصره الله ويؤيده ربه خالق الكون ومالك الملك ﷻ، وذاك فريق يحارب الله ربه، ويتطاول على قانونه وعلى شرعه ﷻ، وبإيجاز فهذا فريق الآخرة وذاك فريق الدنيا، فعلى مَنْ تكون الشفقة إذن؟! على من تكون الشفقة وقد قال ﷻ: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]؟! على من تكون الشفقة وقد قال ﷻ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؟! فالمعركة إذن باتت وكأنها محسومة سابقًا.



وادي لكة وشهر رمضان

هكذا وفي شهر رمضان بدأت معركة وادي لكة غير المتكافئة ظاهريًّا، المحسومة بالمنطق الرباني، بدأت في شهر الصيام والقرآن، الشهر الذي ارتبط اسمه بالمعارك والفتوحات والانتصارات، ولكن وللأسف تحول هذا الشهر الآن إلى موعد مع الزمن لإنتاج أحدث المسلسلات والأفلام وغيرها، تحول إلى نوم بالنهار وسهر بالليل لا للقرآن أو للقيام، ولكن لمتابعة أو ملاحقة المعروضات الجديدة على الفضائيات وغير الفضائيات، تحول إلى شهر

المراوغة من العمل، وقد كان المسلمون ينتظرونه للقيام بأشقِّ الأعمال وأكدِّها، تحول إلى شهر الضيق وافتعال المضايقات، وهو شهر الصبر والجهاد وتهذيب النفس، ففي هذا الشهر الكريم وقبل العيد بيوم أو يومين -وهكذا كانت أعياد المسلمين- وعلى مدى ثمانية أيام متصلة دارت رحى الحرب، وبدأ القتال الضاري الشرس بين المسلمين والنصارى، أمواج من النصارى تنهمر على المسلمين، والمسلمون صابرون صامدون: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وعلى هذا الحال ظل الوضع طيلة ثمانية أيام متصلة انتهت بنصر مؤزَّر للمسلمين بعد أن علم الله صبرهم وصدق إيمانهم، وقُتل لذريق وفي رواية أنه فر إلى الشمال، لكن اختفى ذكره إلى الأبد.

نتائج النصر

قد تمخض عن هذه المعركة عدة نتائج كان أهمها:

١- طوت الأندلس صفحة من صفحات الظلم والجهل والاستبداد، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الرقي والتحضر من تاريخ الفتح الإسلامي.

٢- غنم المسلمون غنائم عظيمة كان أهمها الخيول، فأصبحوا خيَّالة بعد أن كانوا رجَّالة.

٣- بدأ المسلمون المعركة وعددهم اثنا عشر ألفًا، وانتهت المعركة وعددهم تسعة آلاف، فكانت الحصيلة ثلاثة آلاف شهيد، رووا بدمائهم الغالية أرض الأندلس، فأوصلوا هذا الدين إلى الناس، فجزاهم الله عن الإسلام خيرًا.

* * *

معركة بلاط الشهداء

التاريخ	١١٤هـ/ ٧٣٢م	
المكان	قرب مدينة تولوز في فرنسا	
النتيجة	هزيمة المسلمين	
المتحاربون	الخلافة الأموية (مسلمون)	الدولة الميروفنجية الفرنجية بفرنسا (مسيحيون)
القادة	عبد الرحمن الغافقي	شارل مارتل
القوى والحشود	حوالي ٥٠ ألف مقاتل	من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ ألف مقاتل
الخسائر	أقل من عشرة آلاف شهيد	من ١٠ إلى ٢٠ ألف قتيل

معركة بلاط الشهداء أو معركة بواتييه بين قوات المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وقوات الإفرنج بقيادة شارل مارتل، هُزم المسلمون في هذه المعركة وقُتل قائدهم، وأوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوربا.

ما قبل المعركة

عُين عبد الرحمن الغافقي عام (١١٢هـ/ ٧٣٠م) واليًا على الأندلس، وقام بإخماد الثورات القائمة في الأندلس بين العرب والبربر، وعمل على تحسين وضع البلاد الأمني والثقافي.

غير أن هذا الاستقرار والنظام الذي حلَّ بالأندلس نغصه تحركات من الفرنج والقوط استعدادًا لمهاجمة المواقع الإسلامية في الشمال، ولم يكن لمثل الغافقي أن يسكت وهو رجل مجاهد عظيم الإيمان، لا تزال ذكريات هزيمة تولوشة تؤرق نفسه، وينتظر الفرصة السانحة لمحو آثارها، أما وقد جاءت فلابد أن ينتهزها ويستعد لها أحسن استعداد، فأعلن عزمه على الفتح، وتدفَّق إليه المجاهدون من كل جهة؛ حتى بلغوا حوالي خمسين ألف رجل.

خط سير الحملة

جمع عبد الرحمن جنده في «بنبلونة» شمال الأندلس، وعبر بهم في أوائل سنة (١١٤هـ/ ٧٣٢م) جبال ألبرت ودخل فرنسا (بلاد الغال)، واتجه إلى الجنوب إلى مدينة

«آرال» الواقعة على نهر الرون؛ لامتناعها عن دفع الجزية وخروجها عن طاعته، ففتحها بعد معركة هائلة، ثم توجه غربًا إلى دوقية أقطانيا «أكويتين»، وحقق عليها نصرًا حاسمًا على ضفاف نهر الدوردوني، ومزَّق جيشها شرَّ ممزق، واضطر الدوق «أودو» أن يتقهقر بقواته نحو الشمال تاركًا عاصمته بردال (بوردو) ليدخلها المسلمون فاتحين، وأصبحت ولاية أكويتين في قبضة المسلمين تمامًا، ومضى الغافقي نحو نهر اللوار، وتوجه إلى مدينة «تور» ثانية مدائن الدوقية، وفيها كنيسة «سان مارتان»، وكانت ذات شهرة فائقة آنذاك؛ فاقتحم المسلمون المدينة واستولوا عليها.

ولم يجد الدوق «أودو» بدًّا من الاستنجاد بالدولة الميروفنجية، وكانت أمورها في يد شارتل مارتل، فلبى النداء وأسرع بنجدته، وكان من قبل لا يُعنى بتحركات المسلمين في جنوب فرنسا؛ نظرًا للخلاف الذي كان بينه وبين أودو دوق أقطانيا.

استعداد الفرنجة

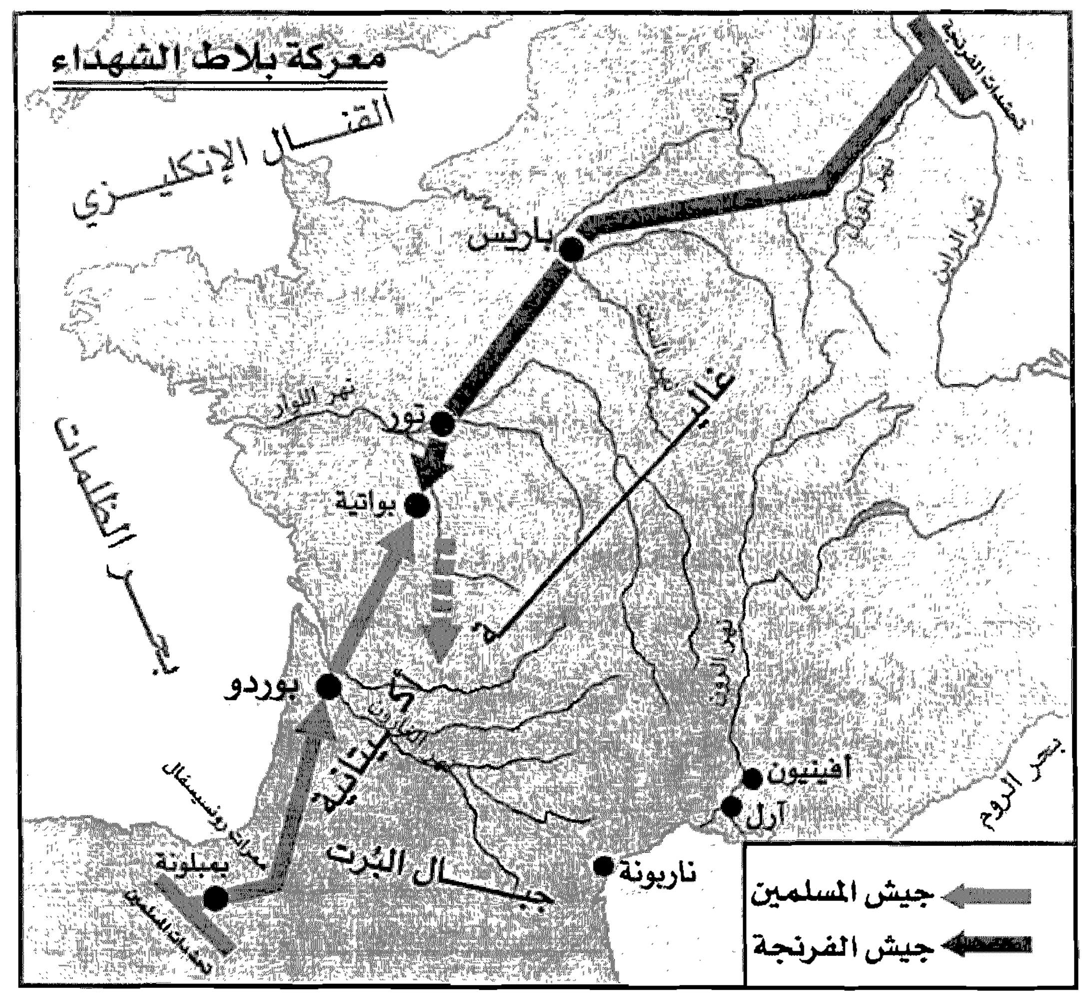
وجد شارل مارتل في طلب نجدته فرصة لبسط نفوذه على أقطانيا التي كانت بيد غريمه، ووقف الفتح الإسلامي بعد أن بات يهدده، فتحرك على الفور ولم يدخر جهدًا في الاستعداد، فبعث يستقدم الجند من كل مكان فوافته جنود أجلاف أقوياء يحاربون شبه عراة، بالإضافة إلى جنده وكانوا أقوياء لهم خبرة بالحروب والنوازل، وبعد أن أتم شارل مارتل استعداده تحرك بجيشه الجرار الذي يزيد في عدده على جيش المسلمين يهز الأرض هزًّا، وتُرَدِّد سهول فرنسا صدى أصوات الجنود وجلباتهم حتى وصل إلى مروج نهر اللوار الجنوبية.

المعركة

كان الجيش الإسلامي قد انتهى بعد زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي بواتييه وتور بعد أن استولى على المدينتين، وفي ذلك الوقت كان جيش شارل مارتل قد انتهى إلى اللوار دون أن ينتبه المسلمون بقدوم طلائعه، وحين أراد الغافقي أن يقتحم نهر اللوار لملاقاة خصمه على ضفته اليمنى قبل أن يكمل استعداده فاجأه شارل مارتل بقواته الجرارة التي تفوق جيش المسلمين في الكثرة، فاضطر عبد الرحمن إلى الرجوع والارتداد إلى السهل الواقع بين بواتييه وتور، وعبر شارل مارتل بقواته نهر اللوار، وعسكر بجيشه على أميال قليلة من جيش الغافقي.

وفي ذلك السهل دارت المعركة بين الفريقين، ولا يُعرف على وجه الدقة موقع الميدان

الذي دارت فيه أحداث المعركة، وإن رجحت بعض الروايات أنها وقعت على مقربة من طريق روماني يصل بين بواتييه وشاتلر، وفي مكان يبعد نحو عشرين كيلو مترًا من شمالي شرق بواتييه يسمَّى بالبلاط، وهي كلمة تعني في الأندلس القصر أو الحصن الذي حوله حدائق؛ ولذا سميت المعركة في المصادر العربية ببلاط الشهداء لكثرة ما استشهد فيها من المسلمين، وتسمَّى في المصادر الأوربية معركة «تور- بواتييه».



ونشب القتال بين الفريقين في أواخر (شعبان ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢م)، واستمرَّ تسعة أيام حتى أوائل شهر رمضان، دون أن يحقق أحدهما نصرًا حاسمًا لصالحه.

وفي اليوم العاشر نشبت معركة هائلة، وأبدى كلا الفريقين منتهى الشجاعة والجلد والثبات، حتى بدأ الإعياء على الفرنجة ولاحت تباشير النصر للمسلمين، ولقد عرف المسيحيون أن لدى الجيش الإسلامي غنائم كثيرة حصل عليها من معاركه أثناء تقدمه من الأندلس حتى بواتييه، وقد

أثقلت هذه الغنائم ظهور المسلمين، وكان من عادة العرب أن يحملوا غنائمهم معهم، فيضعونها وراء جيشهم مع حامية تحميها، وقد فهم النصارى هذا، ونجحوا في ضرب المسلمين عن طريق التركيز على هذا الجانب، لقد شغلوهم من الخلف من جانب الحامية المكلفة بحراسة الغنائم، ولم يفطن المسلمون للتخطيط النصراني، فاستدارت بعض فرقهم لحماية الغنائم، وبالتالي اختل نظام الجيش الإسلامي، ففرقة تستدير لحماية الغنائم وأخرى تقاتل النصارى من الأمام، واضطربت صفوف المسلمين، واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة.

وحاول الغافقي أن يُعيد النظام ويُمسك بزمام الأمور ويرد الحماس إلى نفوس جنده، لكن الموت لم يسعفه بعد أن أصابه سهم غادر أودى بحياته فسقط شهيدًا في الميدان، فازدادت صفوف المسلمين اضطرابًا وعمَّ الذعر في الجيش، ولولا بقية من ثبات راسخ وإيمان جياش، ورغبة في النصر لحدثت كارثة كبرى للمسلمين أمام جيش يفوقهم عددًا. وصبر المسلمون حتى أقبل الليل فانتهزوا فرصة ظلام الليل وانسحبوا إلى سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنيمة للعدو.

ولما لاح الصباح نهض الفرنجة لمواصلة القتال فلم يجدوا أحدًا من المسلمين، ولم يجدوا سوى السكون الذي يُطبق على المكان، فتقدموا على حذر نحو الخيام لعل في الأمر خديعة فوجدوها خاوية إلا من الجرحى العاجزين عن الحركة؛ فذبحوهم على الفور، واكتفى شارل مارتل بانسحاب المسلمين، ولم يجرؤ على مطاردتهم، وعاد بجيشه إلى الشمال من حيث أتى.

أسباب الهزيمة

تضافرت عوامل كثيرة في هذه النتيجة المخزية؛ منها:

١- أن المسلمين قطعوا آلاف الأميال منذ خروجهم من الأندلس، وأنهكتهم الحروب المتصلة في فرنسا، وأرهقهم السير والحركة، وطوال هذا المسير لم يصلهم مدد يُجدِّد حيوية الجيش ويُعينه على مهمته؛ فالمسافة بعيدة بينهم وبين مركز الخلافة في دمشق، فكانوا في سيرهم في نواحي فرنسا أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ، ولم تكن قرطبة عاصمة الأندلس يمكنها معاونة الجيش؛ لأن كثيرًا من العرب الفاتحين تفرقوا في نواحيها.

٢- حِرْص المسلمين على حماية الغنائم، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾** [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن

المسلمين قد اغتروا بهذه الدنيا، التي فُتحت عليهم فتنافسوها، وقد جاء عن رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «فَوَالله مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[١].

فسُنَّة الله تعالى في خلقه أنه إن فُتحت الدنيا على المسلمين وتنافسوها كما تنافسها من كان قبلهم من الأمم السابقة، فإنها ستهلكهم -أيضًا- كما أهلكت هذه الأمم السابقة؛ قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

نتائج المعركة

كثر الكلام حول هذه المعركة، وأحاطها المؤرخون الأوربيون باهتمام مبالغ، وجعلوها معركة فاصلة، ولا يخفى سرُّ اهتمامهم بها؛ فمعظمهم يعدُّها إنقاذًا لأوربا، فيقول إدوارد جيبون في كتاب «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية» عن هذه المعركة: «إنها أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال روما، وشدت بأزر النصرانية».

ويقول السير إدوارد كريزي: «إن النصر العظيم الذي ناله شارل مارتل على العرب سنة (٧٣٢م) وضع حدًّا حاسمًا لفتوح العرب في غرب أوربا، وأنقذ النصرانية من الإسلام».

ويرى فريق آخر من المؤرخين المعتدلين في هذا الانتصار نكبة كبيرة حلت بأوربا، وحرمتها من المدنية والحضارة، فيقول جوستاف لوبون في كتابه المعروف حضارة العرب، الذي ترجمه عادل زعيتر إلى العربية في دقة وبلاغة: «لو أن العرب استولوا على فرنسا؛ إذن لصارت باريس مثل قرطبة في إسبانيا، مركزًا للحضارة والعلم؛ حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ؛ بل ويقرض الشعر أحيانًا، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوربا لا يعرفون كتابة أسمائهم».

وبعد معركة بلاط الشهداء لم تسنح للمسلمين فرصة أخرى لينفذوا إلى قلب أوربا؛ فقد أُصيبوا بتفرقة الكلمة، واشتعال المنازعات، في الوقت الذي توحَّدت فيه قوى النصارى، وبدأت ما يُسمَّى عندهم بحركة الاسترداد والاستيلاء على ما في يد المسلمين في الأندلس من مدن وقواعد.

---

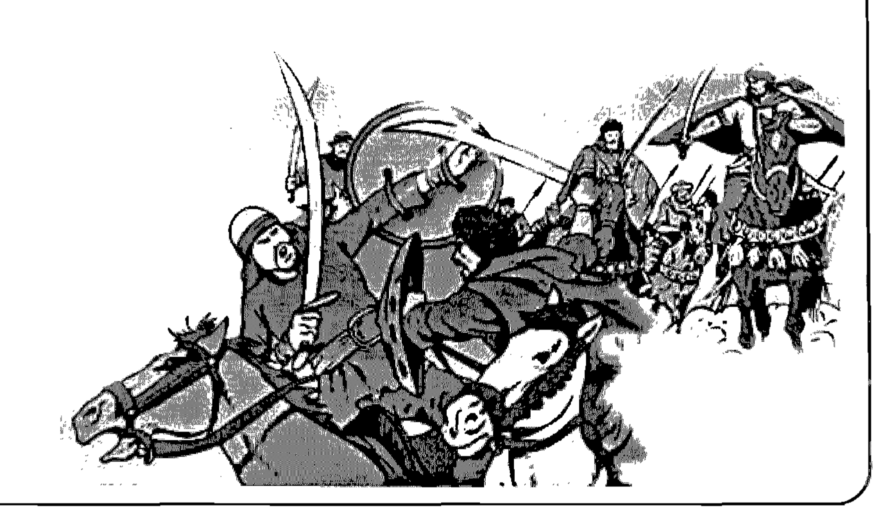
(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، (٦٠٦١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، (٢٩٦١).






الفصل الرابع

أيام لا تنسى في العهد العباسي




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معركة طلاس

التاريخ	١٣٣هـ/ يوليو ٧٥١م	
المكان	مدينة طلاس (تقع الآن في جمهورية قرغيزستان)	
النتيجة	هزيمة الصينيين وهروب جاو زيانزي من ساحة المعركة	
المتحاربون	الخلافة العباسية	أسرة تانج الحاكمة للصين
القادة	زياد بن صالح وأبو مسلم والى خراسان	جاو زيانزي لي ساي دوان زيوشي
القوى والحشود	غير معروفة	٣٠ ألفًا أو ١٠٠ ألف
الخسائر	غير معروفة	الآلاف من القتلى و٢٠ ألف أسير

تعتبر معركة طلاس التي حدثت في عام (١٣٣هـ/ يوليو ٧٥١م) أولى وآخر معركة بين العرب المسلمين والصينيين، حيث انتصرت فيها الجيوش الإسلامية على الجيوش الصينية؛ مما أدى إلى تثبيت أقدام الخلافة العباسية في آسيا الوسطى.

بداية الصراع

كان للصين على مرِّ التاريخ نفوذ كبير في منطقة آسيا الوسطى، والتي تضمُّ اليوم جمهوريات (أوزباكستان، تركمنستان، طاجكستان، قرغيزستان)، وكانت هذه المناطق مجالاً حيويًّا للصين منذ أقدم العصور، كما كانت لها أهميتها؛ لأنها تقع على طريق الحرير (وهو طريق قديم يربط الصين ودول آسيا الوسطى بدول أوربا والشرق الأوسط)، وقد سكنت تلك المناطق قبائل تركية كانت شبه مستقلة لكن كانت تدين بالولاء لإمبراطور الصين، وكانت تدفع له الجزية.

لكن منذ القرن السابع الميلادي ظهرت تطورات جديدة على الساحة العالمية، فقد ظهر الإسلام، وصاحب ذلك بداية الفتوحات الإسلامية، التي لم تهتم بها الصين في أول الأمر لعدة أسباب؛ منها بُعد الفتوحات الإسلامية عن الصين، ورغبة حكام الصين في التخلص

من ملوك فارس الساسانيين المنافس الأكبر لهم في آسيا الوسطى، بل إن حكام الصين تجاهلوا استغاثة ملك فارس بهم.

لكن بداية الصراع الحقيقية بدأت عندما أكمل المسلمون فتح إيران، وما تلى ذلك من تطلع المسلمين إلى فتح آسيا الوسطى لتأمين الفتوحات الإسلامية التي حققها المسلمون، ففتحت جيوش الدولة الأموية كابول وهرات وغزنة، وكلها تقع الآن في أفغانستان، وكان لولاة المسلمين على إقليم خراسان أثر بالغ الأهمية في التشجيع على الفتوحات؛ فقد كانت لمجهودات المهلب بن أبي صفرة والى خراسان أكبر الأثر في فتح ما يعرف الآن بأفغانستان.

وكذلك الدور الكبير الذي قام به الحجاج بن يوسف عندما حشد الجيوش وقال قولته المشهورة: «أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها». ووجد الحجاج في قتيبة بن مسلم الباهلي غايته فقد كان قائدًا بارعًا، ولاه الحجاج خراسان سنة (٨٥هـ/ ٧٠٤ م)، وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد؛ فأبلى بلاء حسنًا، ونجح في فتح العديد من النواحي والممالك والمدن الحصينة؛ مثل: بلخ، وبيكند، وبخارى، وشومان، وكش، والطالقان، وخوارزم، وكاشان، وفرغانه، والشاس، وكاشغر الواقعة على حدود الصين المتاخمة لإقليم ما وراء النهر، وانتشر الإسلام في هذه المناطق، وأصبح كثير من مدنها مراكز مهمة للحضارة الإسلامية؛ مثل: بخارى وسمرقند.

لم تستطع الصين وقف موجات الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى عسكريًا، واكتفت بدعم زعماء القبائل وتحريضهم على القتال ضد المسلمين دون أن تحقق نجاحًا يذكر. ففي هذا الوقت لم يكن بمقدور الصين مواجهة المسلمين عسكريًا؛ نظرًا للمشاكل والثورات التي عاشتها الصين في تلك الفترة، إضافة إلى سمعة الجيش المسلم الذي لا يُقهر، فقد هزم الفرس وأسقطوا دولتهم، كما قلموا أظافر الدولة الرومانية واستولوا على أكثر أملاكها، حتى بلاد الغال البعيدة (أي: فرنسا) لم تسلم من غزوات المسلمين.

قبل المعركة

على الرغم من استيلاء المسلمين على معظم مناطق آسيا الوسطى، إلا أن الصين احتفظت ببعض المناطق المهمة الباقية، والتي تتمثل في قرغيزيا.

لكن الصين كانت تطمح دائمًا في استعادة نفوذها المفقود، فاستغلت الأزمة التي تعيشها الدول الأموية وانشغالها بمقاومة الثورات والمعارضين، وقامت الصين بإرسال حملة عسكرية

بقيادة القائد جاو زيانزي، استطاعت تلك الحملة استرجاع بعض المدن المهمة من المسلمين؛ مثل: كش، والطالقان، وتوكماك، (وهي تقع الآن في جمهورية أوزبكستان)، بل وصل الأمر إلى تهديد مدينة كابول إحدى كبرى مدن المسلمين في آسيا الوسطى، وذلك في سنة (١٣٠هـ/ ٧٤٨م).

الجبهة الإسلامية

أدى وصول العباسيين إلى سدة الخلافة إلى استقرار الدولة الإسلامية؛ وبالتالي التفكير في تأمين حدودها، فأرسل الخليفة أبو جعفر المنصور إلى أبي مسلم واليه على خراسان بالتحضير بحملة؛ لاستعادة هيبة المسلمين في تركستان بآسيا الوسطى، فقام أبو مسلم بتجهيز جيش زحف به إلى مدينة «مرو»، وهناك وصلته قوات دعم من إقليم طخارستان (ويقع هذا الإقليم في أفغانستان الآن)، وسار أبو مسلم بهذا الجيش إلى سمرقند، وانضمَّ بقواته إلى قوات زياد بن صالح الوالي السابق للكوفة، وتولى زيادة قيادة الجيش.

في الوقت نفسه حشد الصينيون ٣٠ ألف مقاتل طبقًا للمصادر الصينية، و١٠٠ ألف مقاتل طبقًا للمصادر العربية، وكان جاو زيانزي على رأس الجيش الصيني.

أحداث المعركة

وفي (١٣٣هـ/ يوليو ٧٥١م) اشتبكت الجيوش الصينية مع الجيوش الإسلامية بالقرب من مدينة طلاس أو طرار، والتي تقع على نهر الطلاس بجمهورية قرغيزيا الآن، وحاصر فرسان المسلمين الجيش الصيني بالكامل، وأطبقوا عليه الخناق؛ مما أدى إلى سقوط الآلاف من القتلى الصينيين، وهرب جاو زيانزي من المعركة بعد أن خسر زهرة جنده، أما عن زياد بن صالح فقد أرسل الأسرى وكانوا ٢٠ ألف إلى بغداد وتم بيعهم في سوق الرقيق.

نتائج المعركة

كانت معركة طلاس أول وآخر صدام عسكري حدث بين العرب المسلمين والصينيين، كما أنها أنهت نفوذ الصين في آسيا الوسطى بعد أن سقطت قرغيزيا في أيدي المسلمين؛ حيث تمَّ صبغ منطقة آسيا الوسطى بصبغة إسلامية بعد أن أسلم أكثر قبائلها، وغدت مناطق إشعاع إسلامي وحضاري، وأنجبت علماء مسلمين عظام؛ كالإمام البخاري، والترمذي، وأبي حنيفة، وغيرهم، كما إنها أدَّت إلى وصول الورق الصيني إلى دول الشرق الإسلامي بعد أن أسر المسلمون عددًا كبيرًا من صناع الورق الصينيين، وتمَّ نقلهم إلى بغداد.

فتح عمورية

يعتبر فتح عمورية عام (٢٢٣هـ/ ٨٣٨م) من أعظم فتوح الخلافة العباسية في آسيا الوسطى، فعمورية تقع بعيدًا في جوف آسيا الصغرى؛ إذ اعتبرها الطبري: «من أعظم ما يُقصَد له من بلاد الروم».

أسباب الفتح

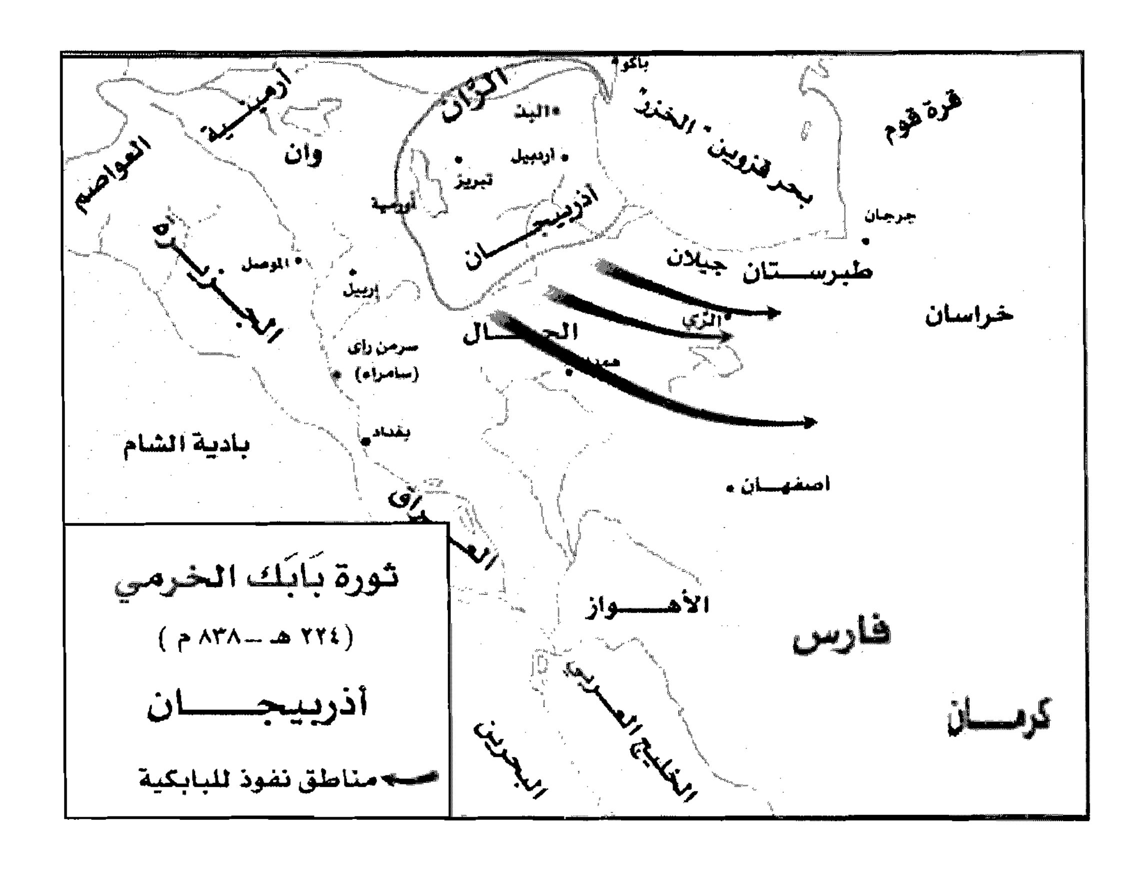
فتنة بابك الخُرَّمي

كانت وصية الخليفة المأمون لأخيه المعتصم وهو على فراش المرض، أن يقضي على فتنة بابك الخُرَّمي، وقد كان زعيم فرقة ضالة، تؤمن بالحلول وتناسخ الأرواح، وتدعو إلى الإباحية الجنسية، وبدأت تلك الفتنة تطل برأسها في أذربيجان، ثم اتسع نطاقها لتشمل همدان وأصبهان، وبلاد الأكراد وجرجان، وحاول المأمون أن يقضي عليها؛ فأرسل الحملات العسكرية لقمع تلك الفتنة، لكنه توفي دون أن يحقق نجاحًا، تاركًا للمعتصم مهمة القضاء عليها.

الإمبراطورية البيزنطية تستغل الموقف

ما إن تولى المعتصم الخلافة حتى وجه اهتمامه للقضاء على فتنة بابك الخرمي مهما كلفه الأمر، وخاصة بعد أن شغلت الخلافة سنوات طويلة، وأنهكت ميزانية الدولة، وأهلكت الرجال والأبطال، واستغلت الدولة البيزنطية انشغال الخليفة المعتصم بالقضاء على تلك الفتنة الهوجاء وراحت تعتدي على حدود الدولة العباسية، وجهزت لذلك جيشًا ضخمًا قاده إمبراطور الدولة ثيوفيل؛ حيث هاجم شمال الشام والجزيرة.

وكان بابك الخرمي حين ضاق عليه الحصار، واشتد الخناق عليه، وأيقن ألا مفر من الاستسلام، كان قد اتصل بإمبراطور الروم يحرضه على غزو الدولة العباسية؛ ليخف الحصار عليه، وزين له أمر الهجوم بأن معظم جيوش الدولة العباسية مشغولة بالقضاء عليه، ولم يبقَ في العاصمة قوة تدافع عنها، ووعده باعتناق المسيحية هو وأتباعه.



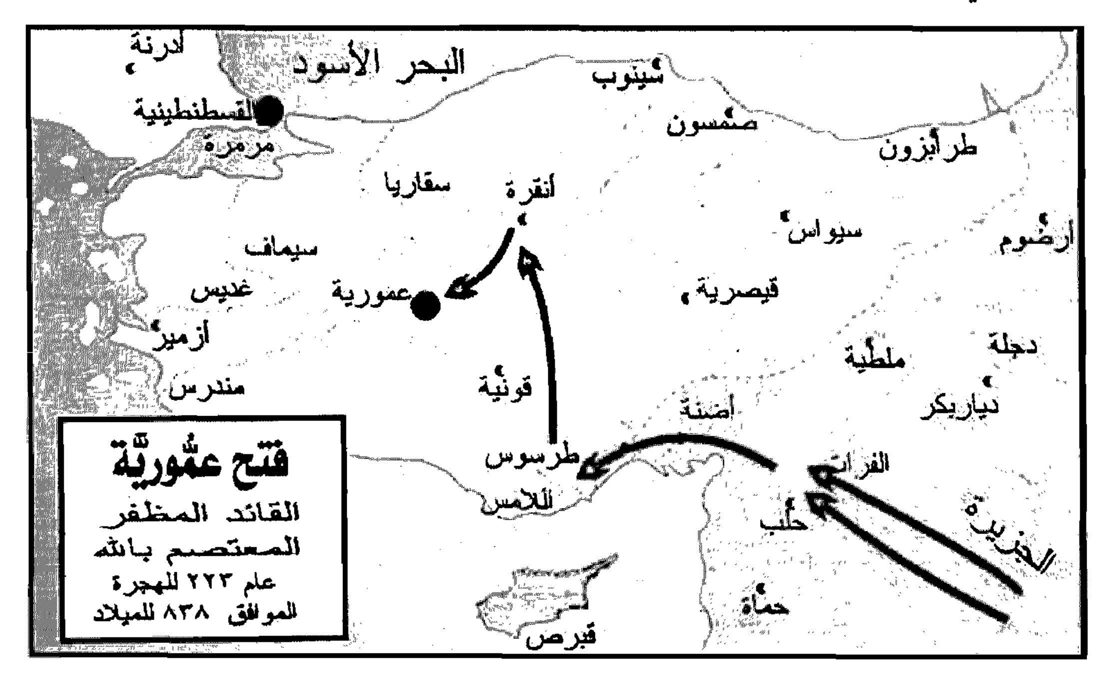
عزَّز ذلك الأمر من رغبة الإمبراطور ثيوفيل في الهجوم على الدولة العباسية، فأغار على منطقة أعالي الفرات؛ ليؤمن اتصالاً مع الخرمية في أرمينيا وأذربيجان، واستولى في طريقه على زبطرة مسقط رأس والدة الخليفة، كما هاجم سميساط، وملطية وأحرقها، ومَثَّل الجيش الرومي بمَنْ وقع في يده من المسلمين، وسمل أعينهم، وقطع آذانهم وأنوفهم، وسبى أكثر من ألف امرأة مسلمة، وصرخت امرأة مسلمة صرختها الشهيرة: «وامعتصماه». ورجع الجيش البيزنطي إلى القسطنطينية فرحًا بما حقق، واستُقبل من أهلها استقبالاً رائعًا.

موقف المعتصم والاستعداد للحرب

وصلت هذه الأنباء المروعة إلى أسماع الخليفة المعتصم، وكان قد أوشك على قمع فتنة بابك الخرمي، وحكى الهاربون الفظائع التي ارتكبها الروم مع المسلمين، فاستعظم الخليفة ما حدث، وأمر بعمامة الغزاة فاعتمَّ بها، ونادى لساعته بالنفير والاستعداد للحرب؛ حيث اعتبر المعتصم هذه الغارة البيزنطية تحديًا شخصيًّا له قبل أن تكون تحديًا للخلافة العباسية، فقبل

التحدي، وعزم على أن يثأر لزبطرة، فبعث بنجدة إلى أهل زبطرة بقيادة «عجيف بن عنبسة» استطاعت أن ترد إليها الهاربين من أهلها تطمئنهم، وفي هذه الأثناء تمكن «الأفشين» أبرع قادة المعتصم من القضاء على الفتنة، وألقى القبض على بابك الخرمي في (١٠ من شوال ٢٢٢هـ/ ١٦ من سبتمبر ٨٣٧م).

وكان المعتصم قد سأل: «أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟» فقيل: «عمورية؛ لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام وهي عين النصرانية». فسارع بتعبئة الحملة وتجهيز الجيش بكل ما يحتاجه، حتى قيل: «إنه لم يتجهز قبله مثله». وخرج إلى عمورية في (جمادى الأولى ٢٢٣هـ/ أبريل ٨٣٨م)، ولم تكن من عادة الحملات الكبرى الخروج في ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان متلهفًا للقاء، ورفض قبول توقيت المنجِّمين، الذين تنبئوا بفشل الحملة إذا خرجت في هذا التوقيت.



التحرك للفتح

غادر الخليفة بجيشه سامراء، وجعل أنقرة أول هدف للحملة، فعَيَّن أشناس التركي قائدًا للمقدمة، وإيتاخ قائدًا للميمنة، وجعفر بن دينار على الميسرة، وعجيف بن عنبسة على القلب، وشارك الأفشين في حملة على رأس فرقة عسكرية، وكتب على ألوية الجيش وتروسه عمورية، وقرر دخول الأراضي البيزنطية من ثلاثة محاور، فتوجه جيش الشرق بقيادة

الأفشين نحو مدينة سروج؛ ليدخل الأراضي البيزنطية في يوم محدد عن طريق درب الحدث، أما جيش الغرب بقيادة أشناس فكان عليه أن يتقدم عبر جبال طوروس إلى مدينة الصفصاف الواقعة قرب قلعة لؤلؤة على أن يلتقي بجيش الشرق في سهل أنقرة، وقاد الخليفة القسم الثالث من الجيش، وزحف مباشرة نحو أنقرة، ورسم الخليفة خطته التكتيكية على أن تجتمع الأقسام الثلاثة عند سهل أنقرة لمهاجمة المدينة.

تحركات البيزنطيين

غادر القسطنطينية في هذه الأثناء الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل، بعدما علم بما وضعه الخليفة من خطط عن أنقرة وعمورية، وتوقف في دوريليوم على بعد ثلاثة أيام من عمورية، وأمر بتحصين هذه الأخيرة، وبعث الإمدادات إليها، أما الخطة القتالية التي وضعها؛ فكانت تقضي بمهاجمة القوات الإسلامية أثناء زحفها نحو الشمال باتجاه أنقرة، ومن أجل ذلك عسكر على نهر هاليس، واستعدَّ لعبوره ليفاجئ المسلمين ظنًّا منه بأن هذه القوات سوف تجتاز درب كيليكيا في طريقها إلى أنقرة، ولم يكن يعلم شيئًا عن جيش الأفشين.

ثم حدث أن أصدر الخليفة أوامره بالتوقف ريثما يستطلع أخبار الجيش البيزنطي، وبعث برسالة إلى أشناس -وكان وقتئذٍ قد بلغ مرج الأسقف القريبة من لؤلؤة- يُبَلِّغه بتطورات الموقف العسكري، ويأمره بالتوقف حتى توافيه المؤخرة؛ لأنها تحمل العتاد الحربي.

ويبدو أن ثيوفيل علم بتقدم جيش الشرق بقيادة الأفشين فغيَّر خطته، واضطر أن يقسم جيشه إلى قسمين حيث تَرَأَّس هو القسم الأول ليواجه الأفشين، في حين ترك القسم الثاني من الجيش للتصدِّي لجيش الخليفة حتى يمنعه من التقدم؛ محاولاً بذلك منع التقاء الجيشين الإسلاميين.

فتح أنقرة

ولما وقف المعتصم على خطة ثيوفيل، أراد أن يُنذر الأفشين بمسير الإمبراطور إليه، لكن الأفشين كان قد توغَّل في آسيا الصغرى، فلم يبلغه أي كتاب، أما أشناس فقد تابع زحفه باتجاه أنقرة، وسار الخليفة وراءه، وكان بينهما مسيرة يوم واحد دون أن يعلما شيئًا عن مصير الأفشين.

وفي الوقت الذي كان فيه جيش الخليفة يقترب من أنقرة، كان الأفشين يجتاز سيواس إلى

توقات، فتحتم عليه عند ذلك أن يشتبك في معركة مع الإمبراطور، وابتدأت المعركة في ساعات الصباح الأولى من يوم الخامس والعشرين من شهر (شعبان ٢٢٣هـ/ يوليو ٨٣٨م)، وعلى الرغم من أن البيزنطيين أحرزوا نصرًا أوليًّا، إلا أن فرسان المسلمين حولوا الموقف من الهزيمة إلى النصر، ووقع الاضطراب في صفوف البيزنطيين عندما شاع خبر أن الإمبراطور لقي مصرعه أثناء المعركة؛ فانهزم البيزنطيون وهربوا، وترك الإمبراطور ساحة المعركة بعد قليل من العناء، وسار حتى بلغ مدينة خليوكومن شمالي أماسيا، حيث جمع فلول جيشه الهارب، وعاد إلى معسكره على نهر هاليس، وأرسل أحد معاونيه إلى أنقرة للدفاع عنه، لكنه وصل بعد فوات الأوان؛ ذلك أنه حدث أن اجتمعت الجيوش الإسلامية المتفرقة في سهل أنقرة، وأنزلوا بالمدينة الخراب والدمار.

الإمبراطور يطلب الصلح

لم يَسَعْ ثيوفيل بعد هزيمته وسقوط أنقرة، إلا أن يرسل إلى المعتصم يطلب الصلح؛ معتذرًا عن مذابح زبطرة، ومتعهدًا بإعادة بنائها، وإعادة السكان إليها، وإطلاق سراح من عنده من الأسرى المسلمين، إلا أن الخليفة رفض عرض الصلح، ولم يأذن للرسول بالعودة حتى أنجز فتح عمورية، وتابع الخليفة زحفه باتجاه عمورية، أما ثيوفيل فقد توجَّه نحو دوريليوم؛ منتظرًا ما سوف يحُلّ بعمورية من المصير المحتوم.

حصار عمورية

دخلت جيوش المعتصم أنقرة، التي كانت قد أخليت بعد هزيمة الإمبراطور، وتوجهت إلى عمورية وضربت عليها حصارًا شديدًا في (٦ رمضان ٢٢٣هـ/ ١ أغسطس ٨٣٨م)، وأحاطت الأبراج الحربية بأسوار المدينة، وفي هذا الوقت ابتدأت المناوشات بتبادل قذف الحجارة ورمي السهام، فقُتل كثيرون، وكان يمكن أن يستمر هذا الحصار مدة طويلة، لولا أن أسيرًا عربيًّا قد أسره الروم دَلَّ الخليفة المعتصم على جانب ضعيف في السور، فأمر المعتصم بتكثيف الهجوم عليه حتى انهار، وانهارت معه قوى المدافعين عنه بعد أن يئسوا من المقاومة، واضطر قائد الحامية «ياطس» إلى التسليم، فدخل المعتصم وجنده مدينة عمورية في (١٧ رمضان ٢٢٣هـ/ ١٢ أغسطس ٨٣٨م)، فأسر المسلمون كثيرًا من أهلها، وغنموا غنائم وفيرة، وهدم المعتصم أسوارها، وأمر بالمقابل بترميم زبطرة وتحصينها.

نتائج الفتح

كشفت حملة المعتصم عن ضعف الإمبراطورية البيزنطية؛ مما شجع الخليفة على مواصلة زحفه باتجاه القسطنطينية، التي بات الطريق إليها مفتوحة، إلا أنه اضطر للعودة إلى العراق؛ لأنه اكتشف مؤامرة دبرها بعض الجند.

وترتب على فتوحات المعتصم في آسيا الصغرى، وما جرى من تقدم مسلمي إفريقية في جزيرة صقلية، وما ألحقه المسلمون في جزيرة كريت بالإمبراطورية من هزائم، كل ذلك أقنع ثيوفيل بأن الإمبراطورية عاجزة عن مواجهة قوة المسلمين المتزايدة، فمال إلى الصلح، وأخيرًا تقررت الهدنة بين الطرفين في عام (٢٢٧هـ/ ٨٤٢م).

* * *

فتح سومنات بالهند

أسباب الفتح

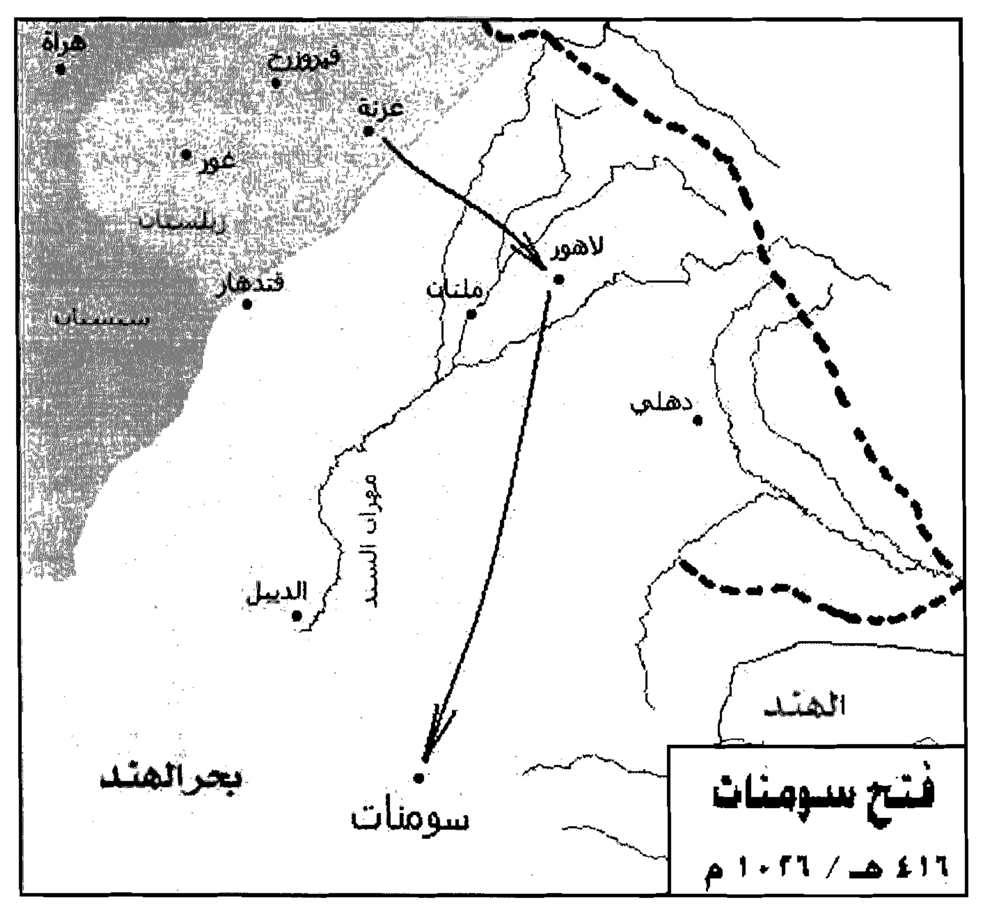
استمرَّ السلطان محمود بن سبكتكين في حملاته وفتوحاته لبلاد الهند، وكان كلما فتح بلدًا أو هدم صنمًا أو حطم معبدًا، قال الهنود: «إن هذه الأصنام والبلاد قد سخط عليها الإله سومنات، ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء». ولم يُعِر السلطان محمود الأمر اهتمامه حتى كثرت القالة، وأصبحت يقينًا عند الهنود، فسأل عن سومنات هذا، فقيل له: «إنه أعظم أصنام وآلهة الهنود، ويعتقد الهنود فيه أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على عقيدة التناسخ، فيعيدها فيمن شاء، وأن المد والجزر الذي عنده إنما هو عبادة البحر له».

وصف سومنات

يقع سومنات على بعد مائتي فرسخ من مصب نهر الجانج بإقليم الكوجرات في غرب الهند، ولهذا الصنم وقف عشرة آلاف قرية، وعنده ألف كاهن لطقوس العبادة، وثلاثمائة رجل يحلقون رءوس ولحى زواره، وثلاثمائة رجل وخمسمائة امرأة يُغنون ويرقصون على باب الصنم، وأما الصنم سومنات نفسه فهو مبنيٌّ على ست وخمسين سارية من الصاج المصفح بالرصاص، وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع، وليس له هيئة أو شكل، بل هو ثلاث دوائر وذراعان.

التحرك للفتح

عندما اطلع سلطان الإسلام السلطان محمود على حقيقة الأمر، عزم على غزوه وتحطيم الصنم وفتح معبده؛ ظنًّا منه أن الهند إذا فقدوه، ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام، فالسلطان محمود لا يبغي من جهاده سوى خدمة ونشر الإسلام، فاستخار الله ﷻ، وخرج بجيوشه ومن انضم إليه من المتطوعين والمجاهدين، وذلك في (١٠ شعبان ٤١٦هـ/ ٦ أكتوبر سنة ١٠٢٥م)، واخترق صحارى وقفار مهلكة لا ماء فيها ولا ميرة، واصطدم بالعديد من الجيوش الهندية وهو في طريقه إلى سومنات، مع العلم أنه أعلم الجميع بوجهته وهدفه، ليرى الهنود إن كان سومنات سيدفع عن نفسه أو غيره شيئًا.



بلغ السلطان محمود بجيوشه مدينة دبولواره على بعد مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها لقتال المسلمين؛ ظنًّا منهم أن إلههم سومنات يمنعهم ويدفع عنهم، فاستولى عليها المسلمون، وحطموها تمامًا، وقتلوا جيشها بأكمله، وساروا حتى وصلوا إلى سومنات يوم الخميس (١٥ ذي القعدة ٤١٦هـ/ ٧ يناير ١٠٢٦م)، فرأوا حصنًا حصينًا على ساحل النهر، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين، واثقين أن معبودهم سيقطع دابرهم ويهلكهم.

اقتحام أسوار سومنات

وفي يوم الجمعة (١٦ ذي القعدة ٤١٦هـ/ ٨ يناير ١٠٢٦م) وعند وقت الزوال كما هي عادة المسلمين الفاتحين، زحف السلطان محمود ومن معه من أبطال الإسلام، وقاتلوا الهنود بمنتهى الضراوة؛ بحيث إن الهنود صعقوا من هول الصدمة القتالية، بعدما ظنوا أن إلههم الباطل سيمنعهم ويهلك عدوهم، ونصب المسلمون السلالم على أسوار المدينة وصعدوا عليها، وأعلنوا كلمة التوحيد والتكبير، وانحدروا كالسيل الجارف داخل المدينة، وحينئذٍ

اشتد القتال جدًّا، وتقدَّمت جماعة من الهنود إلى معبدوهم سومنات، وعفروا وجوههم، وسألوه النصر، واعتنقوه وبكوا، ثم خرجوا للقتال فقتلوا جميعًا، وهكذا فريق تلو الآخر يدخل ثم يُقتل، وسبحانه من أضل هؤلاء حتى صاروا أضل من البهائم السوائم، قاتل الهنود على باب معبد الصنم سومنات أشد ما يكون القتال، حتى راح منهم خمسون ألف قتيل، ولما شعروا أنهم سيفنون بالكلية ركبت البقية منهم مراكب في النهر وحاولوا الهرب، فأدركهم المسلمون فما نجا منهم أحد، وكان يومًا على الكافرين عسيرًا، وأمر السلطان محمود بهدم الصنم سومنات، وأخذ أحجاره، وجعلها عتبة لجامع غزنة الكبير؛ شكرًا لله ﷻ.

أعظم مشاهد المعركة

إلى كل الطاعنين والمشككين في سماحة وعدالة الدين الإسلامي، وحقيقة الجهاد في سبيل الله، وأن هذا الجهاد لم يُرِدْ به المسلمون أبدًا الدنيا وزينتها، بل كان خالصًا لوجه الله، ولنشر دين الإسلام، وإزاحة قوى الكفر، وانطلاقًا من طريق الدعوة الإسلامية.

أثناء القتال الشرس حول صنم سومنات رأى بعض عقلاء الهنود مدى إصرار المسلمين على هدم سومنات، وشراستهم في القتال، حتى ولو قتلوا جميعًا عن بكرة أبيهم، فطلبوا الاجتماع مع السلطان محمود، وعرضوا عليهم أموالاً هائلة، وكنوزًا عظيمة في سبيل ترك سومنات والرحيل عنه؛ ظنًّا منهم أن المسلمين ما جاءوا إلاَّ لأجل الأموال والكنوز فجمع السلطان محمود قادته، واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه بقبول الأموال للمجهود الضخم والأموال الطائلة التي أُنفقت على تلك الحملة الجهادية، فبات السلطان محمود طوال ليلته يفكر ويستخير الله ﷻ، ولما أصبح قرر هدم الصنم سومنات، وعدم قبول الأموال، وقال كلمته الشهيرة: «**وإني فكرت في الأمر الذي ذُكر، فرأيت إذا نوديت يوم القيامة: أين محمود الذي كسر الصنم؟ أحب إليَّ من أن يقال: الذي ترك الصنم لأجل مال يناله من الدنيا**».

وهكذا نرى هذا الطراز العظيم من القادة الربانيين، الذين لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولا أموال الدنيا وكنوزها عن نشر رسالة الإسلام وخدمة الدعوة إليه، والذين ضربوا لنا أروع الأمثلة في بيان نصاعة وصفاء العقيدة الإسلامية، وأظهروا حقيقة الجهاد في سبيل الله وغاياته النبيلة.

* * *

معركة ملاذكرد

التاريخ	٤٦٣هـ/ ١٠٧١م	
المكان	ملاذكرد - تركيا	
النتيجة	انتصار المسلمين وأسر الإمبراطور البيزنطي	
المتحاربون	الدولة السلجوقية (الخلافة العباسية)	الإمبراطورية البيزنطية
القادة	ألب أرسلان	رومانوس ديوجينس
القوى والحشود	١٥ ألف مقاتل	٢٠٠ ألف مقاتل
الخسائر	غير معروفة	كثيرة جدًّا

وقعت معركة ملاذكرد بين السلاجقة بقيادة السلطان ألب أرسلان وبين البيزنطيين بقيادة الإمبراطور رومانوس ديوجينس في (ذي القعدة ٤٦٣هـ/ ٢٦ أغسطس ١٠٧١م)، انتصر فيها السلاجقة، وأُسر الإمبراطور البيزنطي بيد السلاجقة، وكانت هذه هي بداية انتهاء الدولة البيزنطية واندحارها، ولم يُخلِّص الإمبراطور البيزنطي نفسه إلا بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف مليون من الدينارات، وعقد الروم صلحًا مع السلاجقة مدته خمسون عامًا، واعترفوا بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلاد الروم.

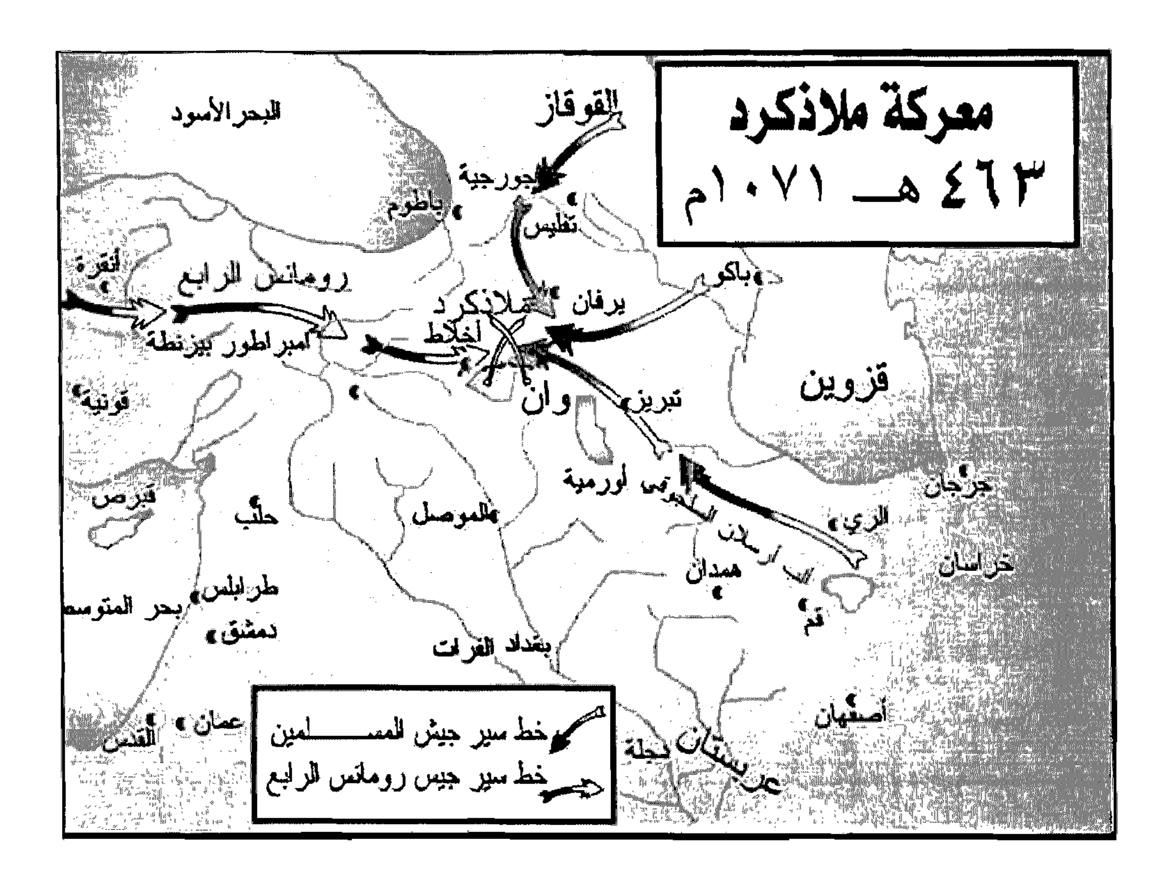
ألب أرسلان

تولى ألب أرسلان حكم دولة السلاجقة سنة (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) خلفًا لعمه طغرل بك، الذي أسس الدولة، ومدَّ سلطانها تحت بصره، حتى غدت أكبر قوة في العالم الإسلامي، وقضى ألب أرسلان السنوات الأولى من حكمه في المحافظة على ممتلكات دولته وتوسيع رقعتها، وتأمين حدودها من غارات الروم.

ثم تطلع ألب أرسلان إلى ضم المناطق المسيحية المجاورة لدولته؛ فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا، والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يُكثرون من الإغارة على إقليم أذربيجان، حتى صاروا مصدر إزعاج وقلق لسكانه، وهو ما

دفع السلطان السلجوقي إلى ضرورة كبح جماح هؤلاء الغزاة.

أزعجت هذه التوسعات السلجوقية إمبراطور الروم رومانوس ديوجينس، وأدرك أن التوسع السلجوقي لا يقف عند هذا الحدِّ، وأن خطره سيهدد بلاده، فعزم على تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده بالإغارة على بلاد الشام الشمالية، فهاجم مدينة «منبج»، ونهبها وقتل أهلها، غير أن ذلك لم يكن كافيًا لدفع خطر السلاجقة على بلاده، فأعد جيشًا كبيرًا لضرب السلاجقة، وتحجيم قوتهم وإضعافهم.



غرور القوة

جهَّز الإمبراطور البيزنطي رومانوس جيشًا ضخمًا؛ يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين وغيرهم، وتحرك بهم من القسطنطينية عاصمة دولته، ممنيًّا نفسه بنصر حاسم يقضي على خطر السلاجقة، فقد أطمعته قواته الغفيرة وعتاده الكثيف بأن النصر آتٍ لا ريب فيه، واتجه إلى ملاذكرد، حيث يعسكر الجيش السلجوقي.

أدرك ألب أرسلان حرج موقفه؛ فهو أمام جيش بالغ الضخامة كثير العتاد، في حين أن قواته لا تتجاوز خمسة عشر ألفًا، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم، ونجح في تحقيق نصر خاطف وكان غرض ألب أرسلان من هذا الهجوم أن يكون التفاوض مع إمبراطور الروم عادلاً؛ لأنه كان يُدرك صعوبة أن يدخل معركة ضد جيش الروم؛ فقواته الصغيرة لا قِبل لها بمواجهة غير مضمونة العواقب، فأرسل إلى الإمبراطور مبعوثًا من قِبَله ليعرض عليه الصلح والهدنة؛ فأساء الإمبراطور استقبال المبعوث، ورفض عرض السلطان، وأشاح بوجهه في غطرسة وكبرياء مُطمئنًا من الفوز والظفر، ولم ينتظر سماع كلام مبعوث السلطان، وطالبه أن يبلغه بأن الصلح لن يتم إلا في مدينة الري عاصمة السلاجقة.

الاستعداد للقاء

أيقن السلطان أنه لا مفرَّ من القتال؛ بعد أن فشل الصلح والمهادنة في دفع شبح الحرب؛ فعمد إلى جنوده يُشعل في نفوسهم روح الجهاد وحب الاستشهاد، وفضل الصبر والثبات، ووقف فقيه السلطان وإمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري يقول للسلطان مقويًا من عزمه: «**إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة**».

وحين دانت ساعة اللقاء في آخر ذي القعدة ٤٦٣هـ/ أغسطس ١٠٧١م صلَّى بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وتحنط، وقال: «إن قُتلت فهذا كفني».

ساعة اللقاء في ملاذكرد

أحسن السلطان ألب أرسلان خطة المعركة، وأوقد الحماسة والحمية في نفوس جنوده، حتى إذا بدأت المعركة أقدموا كالأسود الضواري تفتك بما يقابلها، وهاجموا أعداءهم في جرأة وشجاعة، وأمعنوا فيهم قتلاً وتجريحًا، وما هي إلا ساعة من نهار حتى تحقق النصر، وانقشع غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال.

ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيرًا في أيدي السلاجقة، وسيق إلى معسكر السلطان ألب أرسلان، الذي قال له: «ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني». فقال: «أفعل القبيح». فقال له

السلطان: «فما تظن أنني أفعل بك؟» قال: «إما أن تقتلني، وإما أن تشهر بي في بلاد الشام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال، واصطناعي نائبًا عنك». فقال السلطان: «ما عزمت على غير هذا».

إطلاق سراح الإمبراطور

أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفع فدية كبيرة تبلغ مليونًا ونصف مليون دينار، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم، وأن تعقد معاهدة صلح مدتها خمسون عامًا، يلتزم الروم خلالها بدفع الجزية السنوية، وأن يعترف الروم بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلادهم، وأن يتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات السلاجقة.

ثم أعاد السلطان غريمه وأسيره الإمبراطور البيزنطي إلى بلاده، وخلع عليه خلعة جليلة، وخصص له سرادقًا كبيرًا، وأعطاه قدرًا كبيرًا من المال لينفق منه في سفره، ثم أفرج عن عدد من ضباطه؛ ليقوموا بخدمته، وأمر عددًا من رجاله بصحبته حتى يصل إلى دياره سالمًا.

ولم تكد تصل أخبار الهزيمة إلى القسطنطينية، حتى أزال رعايا الإمبراطور اسمه من سجلات الملك، وقالوا: إنه سقط من عداد الملوك. وعُيِّن ميخائيل السابع إمبراطورًا؛ فألقى القبض على رومانوس الرابع الإمبراطور السابق، وسمل عينيه.

نتائج معركة ملاذكرد

كانت من نتائج هذه المعركة أن واصل الأتراك السلاجقة غزوهم لمناطق أخرى بعد ملاذكرد، حتى توغَّلُوا في قلب آسيا الصغرى، ففتحوا قونية وآق، ووصلوا إلى كوتاهية، وأسسوا فرعًا لدولة السلاجقة في هذه المنطقة عُرف باسم سلاجقة الروم، ظلَّ حكامه يتناوبون الحكم أكثر من قرنين من الزمان بعد انتصار السلاجقة في ملاذكرد، وأصبحت هذه المنطقة جزءًا من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا.

وتُعَدُّ معركة ملاذكرد من أيام المسلمين الخالدة، مثلها مثل بدر، واليرموك، والقادسية، وحطين، وعين جالوت، والزلاقة، وغيرها من المعارك الكبرى التي غيَّرت وجه التاريخ، وأثَّرت في مسيرته، وكان انتصار المسلمين في ملاذكرد نقطة فاصلة؛ حيث قضت على سيطرة دولة الروم على أكثر مناطق آسيا الصغرى وأضعفت قوتها، ولم تَعُدْ كما كانت من قبلُ شوكةً

في حلق المسلمين، حتى سقطت في النهاية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما أن هذه المعركة مهَّدت للحروب الصليبية بعد ازدياد قوة السلاجقة المسلمين وعجز دولة الروم عن الوقوف في وجه الدولة الفتية، وترتب على ذلك أن الغرب الأوربي لم يَعُدْ يعتمد عليها في حراسة الباب الشرقي لأوربا ضد هجمات المسلمين، وبدأ يُفَكِّر هو في الغزو بنفسه، وأثمر ذلك عن الحملة الصليبية الأولى.



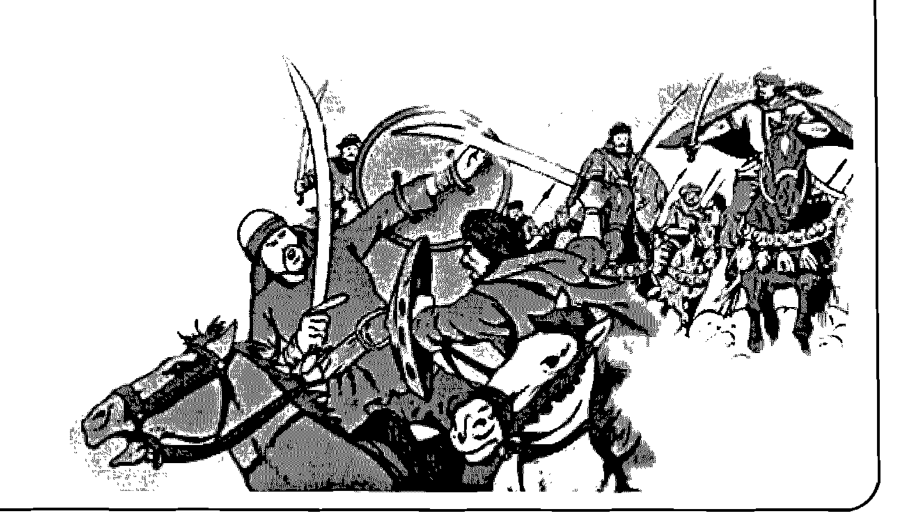
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الفصل الخامس

أيام لا تنسى في العهد الأندلسي





رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معركة الزلاقة

التاريخ	٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م	
المكان	سهل الزلاقة	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	دولة المرابطين	مملكة قشتالة
القادة	يوسف بن تاشفين	ألفونسو السادس
القوى والحشود	حوالي ٤٨ ألف مقاتل	أكثر من ٦٠ ألف مقاتل
الخسائر	عدة آلاف من الشهداء	مقتل أغلب الجيش، ونجاة أقل من ٥٠٠ فارس

معركة الزلاقة أو معركة سهل الزلاقة وقعت في (١٢ رجب ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م)، بين جيوش دولة المرابطين متحدة مع جيش المعتمد بن عباد، والتي انتصرت انتصارًا ساحقًا على قوات الملك القشتالي ألفونسو السادس.

وقعت المعركة في سهل في الجزء الجنوبي لبلاد الأندلس يقال له: الزلاقة. يقال: إن السهل سُمِّيَ بذلك نسبة لكثرة انزلاق المتحاربين على أرض المعركة بسبب كمية الدماء التي أريقت في ذاك اليوم وملأت أرض المعركة، وتُسَمَّى لدى المؤرخين الغربيين بالاسم العربي نفسه لها.

كان للمعركة تأثير كبير في تاريخ الأندلس الإسلامي؛ إذ إنها أوقفت زحف الصليبيين المطرد في أراضي ملوك الطوائف الإسلامية وقد أخرت سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس لمدة تزيد عن قرنين ونصف.

ما قبل المعركة

سقطت الدولة الأموية في الأندلس، وتفككت إلى ما عُرف باسم فترة ملوك الطوائف، والتي شهدت العديد من النزاعات والحروب بين العديد من ملوكها، هذا الذي أدى إلى إضعاف موقف المسلمين في الأندلس، وهو ما أدى إلى الضعف العسكري، وأعطى الفرصة

للنصارى المتربصين في الشمال أن يتوسعوا على حسابهم.

وفي مقابل التجزئة والفرقة الأندلسية في عصر الطوائف، كان النصارى يقيمون اتحادًا بين مملكتي ليون وقشتالة على يد فرديناند الأول الذي بدأ حرب الاسترداد، التي تعني إرجاع الأندلس إلى النصرانية بدلاً من الإسلام.

وواصل هذه الحرب من بعده ابنه ألفونسو السادس؛ حيث بلغت ذروتها مع استيلاء ألفونسو على مدينة طليطلة سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، أهم المدن الأندلسية، وأكبر قواعد المسلمين هناك، وكان سقوطها نذيرًا بأسوأ العواقب لبقية الأندلس؛ ذلك أن ألفونسو قال صراحة: «إنه لن يهدأ له بال حتى يسترد بقية الأندلس ويُخضع قرطبة لسلطانه؛ وينقل عاصمة ملكه إلى طليطلة».

وكان أسوأ ما في هذه الكارثة المروعة أن ملوك الطوائف المسلمين لم يهبُّوا لنجدة طليطلة أو مساعدتها، بل على العكس وقفوا موقفًا مخزيًا؛ حتى إن بعضهم عرض على ألفونسو تقديم العون والمساعدة، ورأى البعض الآخر أنه لكي يستمرَّ في حكم مملكته آمنًا يجب أن يوثق أواصر الصلة والمودة مع ألفونسو، ويحالفه ويقدم له الجزية السنوية، بل شاركت بعض قوات أمراء الطوائف في غزوة طليطلة، وقدَّم أحد هؤلاء الأمراء ابنته لتكون زوجة أو حظية لألفونسو!!

ورأى ألفونسو حالة الضعف والجُبن التي يعاني منها أمراء الطوائف، والتي تعود في الأساس إلى ترفهم وخواء نفوسهم، وكرههم للحرب والجهاد؛ حتى إن كان ذلك هو السبيل الوحيد للكرامة والحفاظ على البقية الباقية من الدين والمروءة؛ لذا رأى ألفونسو السادس ضرورة إضعاف ملوك الطوائف قبل القضاء عليهم نهائيًا؛ وكانت خطته في ذلك تقوم أولاً على تصفية أموالهم بفرض الجزية عليهم جميعًا، ثم تخريب أراضيهم وزرعهم ومحاصيلهم بالغارات المتتابعة، وأخيرًا اقتطاع حصونهم وأراضيهم كلما سنحت الفرصة.

ونجحت خطة ألفونسو في ذلك كل النجاح، وبدا ضعف ملوك الطوائف أمامه واضحًا ملموسًا؛ فاستهان بهم واحتقرهم، وقال عنهم: «كيف أترك قومًا مجانين تسمَّى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم، وكل واحد منهم لا يسلُّ للدفاع عن نفسه سيفًا، ولا يرفع عن رعيته ضيمًا ولا حيفًا؟!» وعاملهم معاملة الأتباع.

أصبح ألفونسو بعد استيلائه على طليطلة مجاورًا لمملكة إِشْبِيلِيَة وصاحبها المعتمد بن عباد، وعندها أدرك المعتمد فداحة خطئه في مصالحة ألفونسو ومحالفته، واستعدائه على أمراء الطوائف الآخرين، ولاحت له طوالع المصير المروِّع الذي سينحدر إليه إذا لم تتداركه يد العناية الإلهية بعون أو نجدة غير منتظرة؛ لذا كان من الطبيعي أن تتجه أنظار ابن عباد إلى دولة المرابطين القوية الفتية، بقيادة أميرها الباسل يوسف بن تاشفين؛ ليستنجد به، وطلب منه النصرة ضد هؤلاء النصارى، الذين تجمعوا من شمالي إسبانيا، فضلاً عن المتطوعين الصليبيين الذين قدموا من فرنسا وألمانيا وإيطاليا.

النزاع بين ألفونسو السادس والمعتمد

بدأ النزاع بين الملكين سنة (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) عندما وجَّه ألفونسو سفارته المعتادة إلى المعتمد، يطلب فيها الجزية السنوية، وكان على رأس السفارة يهودي يُدعى ابن شاليب؛ حيث رفض تسلم الجزية بحجة أنها من عيار ناقص، وهدَّد بأنه إذا لم يُقَدَّم له المال من عيار حسن فسوف تُحتل مدائن إِشْبِيلِيَة.

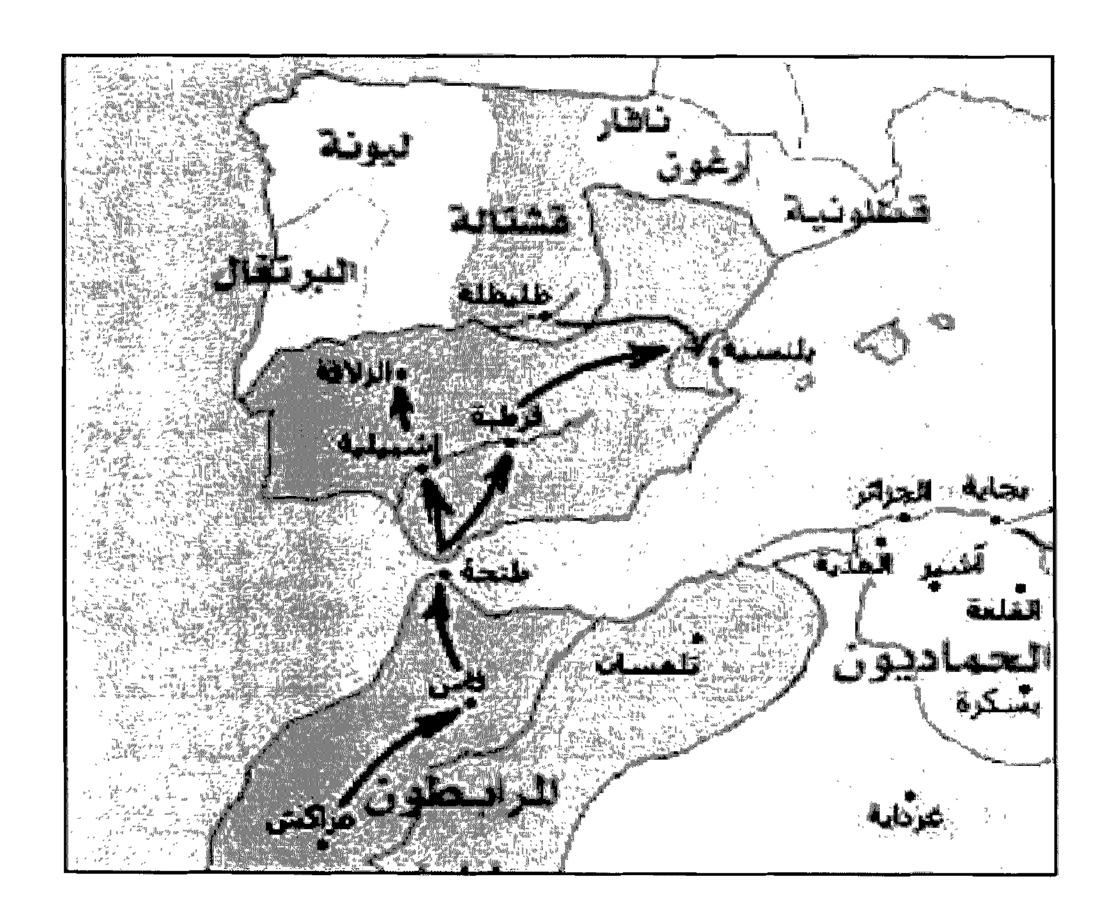
ولَمَّا علم المعتمد بما صدر عن اليهودي أمر بصلبه، وزجَّ بأصحابه من القشتاليين في السجن، وعندما استشار الفقهاء استحسنوا ذلك الأمر؛ مخافة أن يتراجع المعتمد عن قراره بالصمود في وجه النصارى؛ أما ألفونسو فقد استشاط غضبًا، وبعث سراياه وجنوده للانتقام والسلب والنهب، وأغار هو بجيشه على حدود إشبيلية وحاصرها ثلاثة أيام ثم تركها، والمعتمد يلتزم الدفاع طيلة هذه العاصفة الهوجاء من الغضب الصليبي.

الاستنجاد بالمرابطين

حشد المعتمد رجاله، وقوَّى جيشه، وأصلح حصونه، واتخذ كل وسيلة للدفاع عن أرضه بعدما أيقن أن ألفونسو يعتزم العمل على إبادتهم جميعًا، وأن المسلمين في إشبيلية بقدراتهم ومواردهم المحدودة لن يستطيعوا الدفاع؛ لذا قرر المعتمد أن يستنصر بالمرابطين في المغرب لمقاتلة هؤلاء النصارى، وكانت دولة المرابطين دولة جهاد وحرب، غير أن هذا الرأي واجه معارضة من بعض الأمراء، الذين رأوا في المفاوضات والصلح والمهادنة والسلام وسيلة للأمن والاستقرار، ورأوا في المرابطين عدوًّا جديدًا قد يسلب ملكهم، وقال الرشيد لأبيه المعتمد: **«يا أبت أتُدخِل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا»**. فَرَدَّ عليه

المعتمد: «أي بني؛ والله لا يسمع عني أبدًا أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة عليّ في الإسلام، مثلما قامت على غيري، رَعْيُ الجمال عندي والله خير من رعي الخنازير».

وناشد ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين لنجدتهم، بل إن المعتمد عبر إلى المغرب والتقى بابن تاشفين الذي وعده خيرًا، وأجابه إلى ما طلب واشترط لإجابة الدعوة والعبور إلى الأندلس أن يسلم إليه المعتمد ثغر الجزيرة الخضراء؛ ليكون قاعدة للمرابطين في الذهاب والإياب، فوافق المعتمد على ذلك.



العبور إلى الأندلس

حشد يوسف بن تاشفين جنده وعتاده، ثم بعث بقوة من فرسانه بقيادة داود ابن عائشة فعبرت البحر، واحتلت ثغر الجزيرة الخضراء، وفي (ربيع الآخر ٤٧٩هـ/ أغسطس ١٠٨٦م)

بدأت جيوش المرابطين تعبر من سبتة إلى الأندلس، وما كادت السفن تتوسط ماء مضيق جبل طارق حتى اضطرب البحر، وتعالت الأمواج، فنهض ابن تاشفين ورفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل عليَّ جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه عليَّ حتى لا أجوزه». فهدأت ثائرة البحر، وسارت السفن في ريح طيبة حتى رست على الشاطئ، وهبط منها يوسف، وخرَّ لله ساجدًا.

قوبل يوسف بن تاشفين بحفاوة بالغة هو وجنوده، وأمر قائده داود ابن عائشة بالتقدم أمامه إلى بَطَلْيُوس، كما أمر بأن توضع القوات الأندلسية كلها تحت قيادة المعتمد، وأن يكون لجند الأندلس محلتهم وللمرابطين محلتهم، وكان يوسف في تحركه شديد الحذر؛ لأنه لم يسبق له أن حارب جيشًا نصرانيًّا، كما أنه لم يكن واثقًا من حلفائه الأندلسيين؛ لذا رأى أن تكون المعركة في ناحية بطليوس، وألا يتوغل كثيرًا في أرض الأندلس.

الزلاقة والنصر المبين

ولما بلغ ألفونسو نبأ تقدُّم المسلمين لملاقاته، فك الحصار الذي كان يضربه حول مدينة سرقسطة، واستدعى قائده البرهانس من بلنسية، وبعث مستغيثًا بجميع النصارى في شمال إسبانيا وما وراء جبال البرانيس، فتقاطرت عليه فرسان الصليبيين من إيطاليا وفرنسا، واعتزم أن يلقى المسلمين في أرضهم حتى لا تخرب بلاده، وكانت قواته تفوق المسلمين عددًا وعدة، وقد استقرت هذه الجيوش الصليبية على بعد ثلاثة أميال من المعسكر الإسلامي ولا يفصل بينهم إلا نهر صغير يسمى «جريرو»، وانضم إلى القوات الصليبية الرهبان والقسس يحملون أناجيلهم وصلبانهم، محفزين بذلك جنود النصارى.

كانت قوات المسلمين تُقَدَّر بحوالي ثمانية وأربعين ألف مقاتل، تنقسم في وحدتين كبيرتين من قوات الأندلس، وتحتل المقدمة بقيادة المعتمد، أما القوات المرابطية فتحتل المؤخرة، وتنقسم إلى قسمين؛ يضمُّ الأول فرسان البربر بقيادة داود ابن عائشة، والقسم الثاني احتياطي، يقوده يوسف بن تاشفين.

ولبث الجيشان كل منهما في اتجاه الآخر ثلاثة أيام، وفشلت محاولة ألفونسو خديعة المسلمين في تحديد يوم المعركة، وانتهى الأمر بنشوب المعركة مع أول ضوء من صباح يوم الجمعة (١٢ رجب ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م) بهجوم خاطف شنَّه الفرسان الصليبيون

على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية، فاختلَّ توازن المسلمين وارتد فرسانهم نحو بطليوس، ولم يثبت إلا المعتمد بن عباد في مجموعة قليلة من الفرسان؛ حيث قاتلوا بشدَّة، وأُثخن المعتمد بالجراح، وكثر القتل في جند الأندلس، وكادت تحلُّ بهم الهزيمة، وفي الوقت نفسه هاجم ألفونسو مقدمة المرابطين وردَّها عن مواقعها.

وأمام هذه المحنة التي تعرضت لها القوات المسلمة دفع يوسف بقوات البربر التي يقودها أبرع قواده وهو سير بن أبي بكر اللمتوني؛ فتغير سير المعركة، واستردَّ المسلمون ثباتهم، وأثخنوا النصارى قتلاً، وفي تلك الأثناء لجأ ابن تاشفين إلى خطة مبتكرة؛ إذ استطاع أن يشق صفوف النصارى، ويصل إلى معسكرهم، ويقضي على حاميته، ويشعل فيه النار؛ فلما رأى ألفونسو هذه الفاجعة، رجع بسرعة شديدة، واصطدم الفريقان في قتال شرس، ودويُّ طبول المرابطين يصمُّ الآذان، وكثر القتل في الجانبين، خاصة في صفوف القشتاليين، ثم وجه ابن تاشفين ضربته الأخيرة إلى النصارى؛ إذ أمر حرسه الأسود -وقوامه أربعة آلاف مقاتل من ذوي البأس الشديد والرغبة في الجهاد- بالنزول إلى أرض المعركة، فأكثروا القتل في القشتاليين، واستطاع أحدهم أن يطعن ألفونسو في فخذه طعنة نافذة كادت تودي بحياته.

وأدرك ألفونسو أنه وقواته يواجهون الموت إذا استمروا في المعركة، فبادر بالهروب مع قلة من فرسانه تحت جنح الظلام لم يتجاوزوا الأربعمائة حيث كان معظمهم جرحى، فماتوا في الطريق، ولم ينجُ منهم إلا مائة فارس فقط.

ما بعد النصر

كان انتصار المسلمين في الزلاقة نصرًا عظيمًا ذاعت أنباؤه في الأندلس والمغرب، واستبشر المسلمون به خيرًا عظيمًا، غير أن المسلمين لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة فلول النصارى المتبقية والزحف إلى أراضي قشتالة، بل لم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها، وهي التي كانت السبب الرئيس في الاستعانة بالمرابطين، ويُقال: إن ابن تاشفين اعتذر عن مطاردة القشتاليين؛ لوصول أنباء إليه بوفاة أكبر أبنائه.

ونتج عن هذا المعركة الحاسمة توقُّف ملوك الطوائف عن دفع الجزية لألفونسو السادس، وأنقذ هذا النصر غرب الأندلس من الغارات المدمرة، وأفقد القشتاليين عددًا كبيرًا من قواتهم، وأنعش آمال الأندلسيين وحطم خوفهم من النصارى، ورفع الحصار عن

سرقسطة التي كادت أن تسقط في يد ألفونسو، وحالت هذه المعركة دون سقوط الأندلس كلها في يد النصارى، ومدَّت في عمر الإسلام بالأندلس حوالي القرنين ونصف القرن.

بعد النصر قام الأندلسيون بمعاودة ما كانوا يفعلونه قبل المعركة، فاقتتلوا فيما بينهم، وتنازعوا على السلطة، واستعانوا بالملوك النصرانيين في حروبهم ضد بعضهم، فقام ابن تاشفين باقتحام الأندلس؛ ليزيل الفتنة فيها ويضمها موحدة إلى دولته.

* * *

معركة الأرك

التاريخ	٥٩١هـ/ ١١٩٥م	
المكان	بالقرب من قلعة الأرك – جنوب طليطلة	
النتيجة	انتصار الموحدين المسلمين	
المتحاربون	دولة الموحدين	مملكة قشتالة
القادة	السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور	الملك ألفونسو الثامن
القوى والحشود	حوالي ٢٠٠ ألف مقاتل	حوالي ٢٢٥ ألف مقاتل
الخسائر	قليلة؛ حوالي بضعة آلاف	٤٦ ألف قتيل، وما بين ٢٠ و٣٠ ألف أسير

معركة الأرك هي معركة وقعت في (٩ شعبان ٥٩١هـ/ ١٨ يوليو ١١٩٥م)، بين قوات الموحدين بقيادة السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور وبين قوات ملك قشتالة ألفونسو الثامن، كان للمعركة دور كبير في توطيد حكم الموحدين في الأندلس، وتوسيع رقعة بلادهم فيها، وقد اضطر ألفونسو بعدها لطلب الهدنة من السلطان الموحدي أبي يوسف المنصور.

يعتبرها المؤرخون مضاهية لمعركة الزلاقة في وقع الهزيمة على مسيحيي أيبيريا، وقعت المعركة قرب قلعة الأرك، والتي كانت نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في ذلك الوقت؛ لذا ينسب المسلمون المعركة لهذه القلعة كما ينسب المسيحيون اسم المعركة -أيضًا- لهذه القلعة (Alarcos)، ويطلقون عليها كارثة الأرك؛ لعِظم ما أصابهم فيها.

ما قبل المعركة

قام ملك البرتغال سانشو الأول بغزو مدينة شلب المسلمة بمساعدة القوات الصليبية، وكان ذلك في عام (٥٨٧هـ/ ١١٩١م)، وعندما علم السلطان الموحدي يعقوب المنصور بذلك جهز، جيشه وعبر البحر لبلاد الأندلس، وحاصرها وأخذها، وأرسل في الوقت ذاته جيشًا من الموحدين والعرب فغزا أربع مدن مما بأيدي المسيحيين من البلاد التي كانوا قد

أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين عامًا؛ مما ألقى الرعب في قلوب ملوك أيبيريا، وخاصة ألفونسو الذي طلب من السلطان الهدنة والصلح، فهادنه ٥ سنين، وعاد إلى مراكش عاصمة بلاد المغرب.

لما انقضت مدة الهدنة أرسل ألفونسو جيشًا كثيفًا إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وعاثوا فسادًا في أراضيهم، وكانت هذه الحملة استفزازية وتخويفية، أتبعها ألفونسو بخطاب للسلطان يعقوب المنصور استهزاء به، وسخر منه ودعاه إلى مواجهته وقتاله، فلما قرأ السلطان المنصور الخطاب كتب على ظهر رقعة منه: «**ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، الجواب ما ترى لا ما تسمع**». واشتد حنق أبي يوسف، وأمر بالتأهب للحرب في الأندلس، وأن يُذاع الخطاب في جنود الموحدين ليُثير غيرتهم، فثار الناس للجهاد، ودوَّت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب ضد النصارى، وسَيَّر قواته إلى الأندلس، وعبر إلى الجزيرة الخضراء في (٢٠ رجب ٥٩١ هـ)، ولم يسترح بها إلا قليلاً، ثم بادر بالسير إلى قشتالة، وانضمَّت إليه الجيوش الأندلسية، فتجمع له جيش ضخم بلغ عدده ٢٠٠ ألف مقاتل، وانطلق المنصور بجيشه إلى بلاد الأندلس، ومكث في إشبيلية مدة قصيرة، نظَّم فيها جيشه وتزوَّد بالمؤن، وبادر بالسير إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة، فبلغه أن ألفونسو حشد قواته، فقد أعدَّ ألفونسو الثامن جيشه بعد أن استعان بمملكتي ليون ونافار، وبجيوش ألمانيا وإنجلترا وهولندا.. في قوة يبلغ قوامها ٢٢٥ ألف صليبي، وقد أحضروا معهم بعض جماعات اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم؛ ليبيعوهم بعد ذلك بدورهم في أوربا، وكان هذا الجيش في مكان بين قلعة رباح وقلعة الأرك، فغير المنصور مساره إلى هناك، وعسكر في مكان يبعد عن موضع جيش ألفونسو مسيرة يومين، ومكث يستشير وزراءه وقادة جيشه في خطط المعركة وكان ذلك في (٤ شعبان ٥٩١هـ/ ١٣ يونيو ١١٩٥م).

كان أبو عبد الله بن صناديد أحد قادة الحرب الأندلسيين، ومن أعقل وأخبر زعماء الأندلس بمكائد الحروب، فأشار على السلطان المنصور باختيار قائد موحَّد للجيش، كما أشار عليه بتقسيم الجيش إلى أجزاء على النحو التالي:

١ - الأندلسيون، ويقودهم أحد زعمائهم؛ حتى لا تضعف عزيمتهم عندما يُوَلَّى عليهم أحد ليس منهم، ويوضع في ميمنة الجيش.

٢- العرب والبربر، ويوضعون في الميسرة.

٣- الجيش الموحدي النظامي، ويوضع في القلب.

٤- المتطوعون من عرب وبربر وأندلسيين، ويوضعون في مؤخرة الجيش لضعف خبرتهم بالقتال.

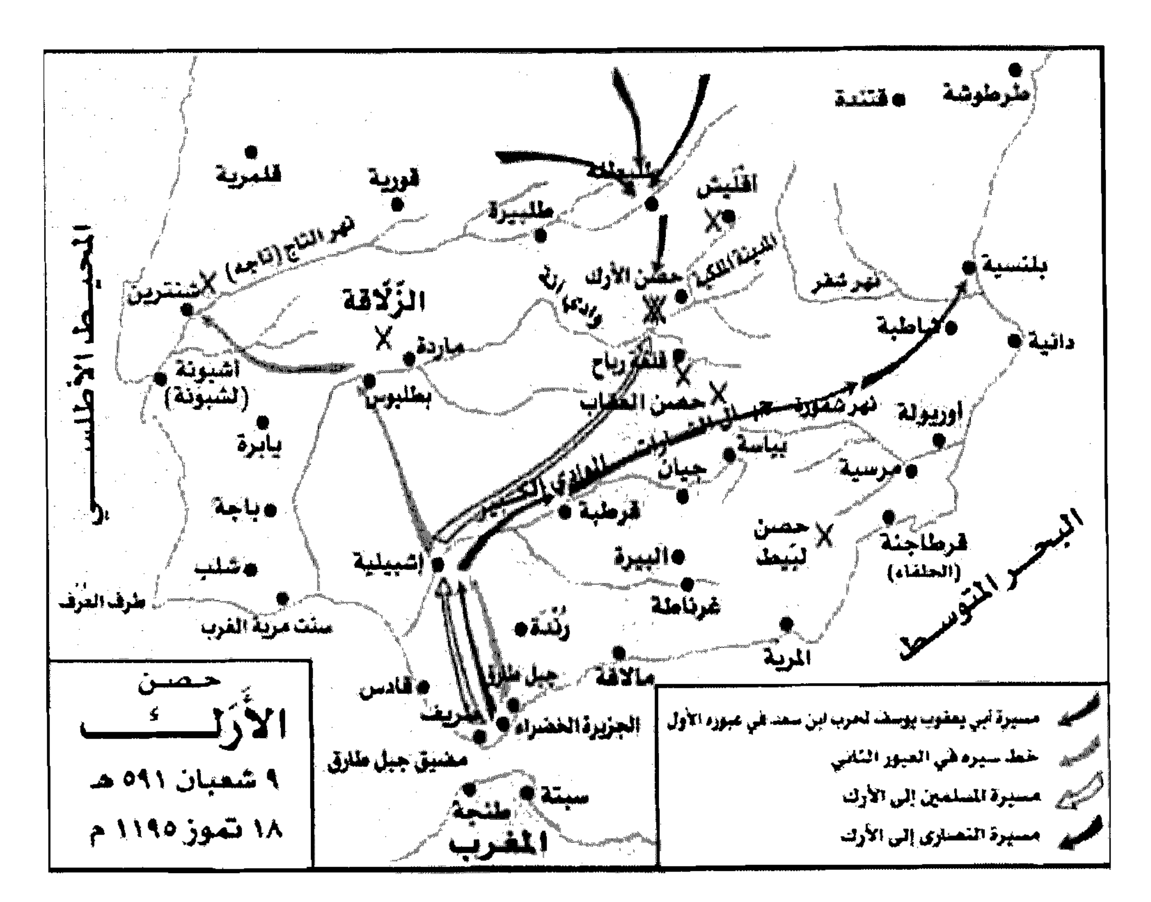
٥- السلطان المنصور وحرسه وجيشه الخاص وبعض المتطوعين كقوات احتياطية؛ تعسكر وراء التلال على مسافة قريبة من المعركة، ثم تنقض فجأة على العدو بهجوم مضادٍّ متى لزم الأمر.

استجاب السلطان لإشارة ابن صناديد وعينه قائدًا للجيش الأندلسي، واختار أحد وزرائه، وهو أبو يحيى بن أبي حفص كقائد عام، وكان السلطان يمرُّ على أفراد جيشه ويُحمِّسهم، ويبث فيهم الشجاعة والثقة بنصر الله، وراح بعد ذلك أبو يوسف يعقوب المنصور يُوَزِّع الخطباء على أطراف الجيش يحمِّسونه على الجهاد، وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال أرسل الأمير الموحدي رسالة إلى كل المسلمين يقول فيها: إن الأمير يقول لكم: اغفروا له؛ فإن هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم، وأخلصوا لله نياتكم. فبكى الناس جميعهم، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وعلموا أنه موقف وداع، وفي موقف مهيب التقى المسلمون بعضهم مع بعض، وعانقوا بعضهم بعضًا، وقد وَدَّعُوا الدنيا وأقبلوا على الآخرة.

المعركة

في تلك الموقعة كان موقع النصارى في أعلى تلٍّ كبير، وكان على المسلمين أن يقاتلوا من أسفل ذلك التل، لكن ذلك لم يَرُدّ المسلمين عن القتال.

وقد بدأ اللقاء، ونزل القشتاليون كالسيل الجارف المندفع من أقصى ارتفاع، فهبطوا من مراكزهم أسرابًا تتلوها أسراب، وأفواجًا تعقبها أفواج، وكانت الصدمة كبيرة جدًّا على المسلمين؛ فقد وقع منهم الكثير في تعداد الشهداء، ثم ثبتوا بعض الشيء ثم تراجعوا، وحين رأى المنصور ذلك نزل بنفسه إلى جيشه، وفي شجاعة نادرة قام يمرُّ على كل الفرق مناديًا بأعلى صوته في كل الصفوف: «جددوا نياتكم، وأحضروا قلوبكم». ثم عاد رحمه الله إلى مكانه من جديد.



استطاع المسلمون بعدها أن يردوا النصارى في هذا الهجوم، ثم ما لبث النصارى أن قاموا بهجوم آخر، وكان كسابقه، انكسار للمسلمين ثم ثبات من جديد وردٌّ للهجوم للمرة الثانية، ثم كان الهجوم الثالث للنصارى وكان شرسًا ومُركزًا على القلب من الموحدين، فسقط آلاف من المسلمين شهداء، واستشهد القائد العام للجيش أبو يحيى بن أبي حفص، وهنا ظن النصارى أن الدائرة قد دارت على المسلمين، وأن المعركة قد باتت لصالحهم، فنزل ملك قشتالة إلى الموقعة يحوطه عشرة آلاف فارس، عندئذٍ كانت قد تحركت ميمنة المسلمين من الأندلسيين وهجمت على قلب الجيش القشتالي مستغلَّة ضعفه في تقدُّم الفرسان القشتاليين نحو الموحدين في القلب، وهجمت بشدة على النصارى، واستطاعت حصار العشرة الآلاف الذين يحوطون ألفونسو الثامن.

حدث لذلك اضطراب كبير داخل صفوف الجيش القشتالي، واستمرت الموقعة طويلاً، وقد ارتفعت ألسنة الغبار الكثيف، وأصبح لا يُسمع إلا صوت الحديد وقرع الطبول

وصيحات التكبير من جيش المؤمنين، وبدأت الدائرة تدور تدريجيًّا على النصارى، فالتفوا حول ملكهم وقد تزعزعت قلوبهم.

وهنا وحين رأى ذلك أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي أمر جيشه الكامن خلف التلال بالتحرك، وقد انطلق معهم وفي مقدمة جيشه علم دولة الموحدين الأبيض، وقد نقش عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالب إلا الله. فارتفعت بذلك معنويات الجيش الإسلامي كثيرًا، وقد أسلم النصارى رقابهم لسيوف المسلمين فأعملوها فيهم قتلاً وتشريدًا، وانتصر المسلمون انتصارًا باهرًا في ذلك اليوم الموافق (٩ شعبان ٥٩١ هـ)، وأصبح يوم الأرك من أيام الإسلام المشهودة، قالوا عنه: مثل الزلاقة. وقالوا عنه: بل فاق الزلاقة. وقد هرب ألفونسو الثامن في فرقة من جنوده إلى طليطلة، وطارت أخبار النصر في كل مكان، ودوت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة، بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادة لا توصف، خاصة وأنها جاءت بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار المسلمين في حطين.

نتائج انتصار الأرك

تمخضت عن انتصار الأرك الكبير آثار ونتائج جمَّة وعظيمة؛ أهمها ما يلي:

أولا: الهزيمة الساحقة لقوات النصارى

كان من أهم آثار انتصار الأرك تبدد جيش النصارى بين القتل والأسر؛ فقد قُتل منهم في اليوم الأول فقط وعلى أقل تقدير ثلاثون ألفًا، وقد جاء في نفح الطيب للمقري أن عدد قتلى النصارى وصل إلى ستة وأربعين ألفًا ومائة ألف قتيل من أصل خمس وعشرين ألفًا ومائتي ألف مقاتل، وكان عدد الأسرى بين عشرين وثلاثين ألف أسير، وقد منَّ عليهم المنصور بغير فداء؛ إظهارًا لعظمة الإسلام ورأفته بهم، وعدم اكتراثه بقوة النصارى.

ثانيًا: النصر المادي

حصد المسلمون من الغنائم ما لا يُحْصَى، وقد بلغت ثمانين ألفًا من الخيول، ومائة ألف من البغال، وما لا يحصى من الخيام.

وقد وزَّع المنصور رحمه الله هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل رسول الله ﷺ؛

فوزَّع على الجيش أربعة أخماسها، واستغل الخمس الباقي في بناء مسجد جامع كبير في إشبيلية؛ تخليدًا لذكرى الأرك، وقد أنشأ له مئذنة يبلغ طولها مائتي متر، وكانت من أعظم المآذن في الأندلس في ذلك الوقت.

ثالثًا: النصر المعنوي

كان من نتائج موقعة الأرك -أيضًا- ذلك النصر المعنوي الكبير، الذي ملأ قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ فقد ارتفع نجم دولة الموحدين كثيرًا، وارتفعت معنويات الأندلسيين وهانت عليهم قوة النصارى، وارتفعت -أيضًا- معنويات المسلمين في كل بلاد العالم الإسلامي؛ حتى راحوا يُعتقون الرقاب ويخرجون الصدقات فرحًا بهذا الانتصار.

وكان من جرَّاء ذلك -أيضًا- أن استمرَّت حركة الفتوح الإسلامية، واستطاع المسلمون فتح بعض الحصون الأخرى، وضمُّوا الشمال الشرقي من جديد إلى أملاك المسلمين كما كان في عهد المرابطين، وحاصروا طليطلة سنوات عديدة، إلا أنها كانت من أحصن المدن الأندلسية؛ فلم يستطيعوا فتحها.

رابعًا: صراعات شتى بين ممالك النصارى

نتيجة لموقعة الأرك -أيضًا- حدثت صراعات شتى بين ليون ونافار من ناحية، وبين قشتالة من ناحية أخرى.. فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن ملك قشتالة مسئولية الهزيمة، وكان من نتائج ذلك -أيضًا- أن وقعت لهم الهزيمة النفسية، وترتب عليه أن أتت السفارات من بلاد أوربا تطلب العهد والمصالحة مع المنصور الموحدي، التي كان من أشهرها سفارة إنجلترا، تلك التي جاءت المنصور الموحدي في أواخر أيامه.

خامسًا: معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين

أيضًا كان من نتائج موقعة الأرك أن تمت معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين على الهدنة ووقف القتال مدة عشر سنوات، فقد أراد المنصور أن يُرَتِّب فيها الأمور من جديد في بلاد الموحدين.

* * *

معركة العقاب

التاريخ	٦٠٩هـ/ ١٢١٢م	
المكان	وادي نافاس - قرب بلدة تولوسا بالأندلس	
النتيجة	انتصار المسيحيين	
المتحاربون	دولة الموحدين	مملكة قشتالة - مملكة أراجون - مملكة البرتغال - مملكة نافار
القادة	السلطان الناصر محمد بن يعقوب	الملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة والملك سانشو السابع ملك نافار والملك ألفونسو الثاني ملك البرتغال والملك بيدرو الثاني ملك أراجون
القوى والحشود	٥٠٠ ألف وفي روايات ٢٠٠ ألف	٢٠٠ ألف وفي روايات ٦٠ ألفًا
الخسائر	٧٠ ألف شهيد	غير معروفة، ولكنها أقل من خسائر المسلمين

معركة العِقَاب هي معركة وقعت في (١٥ صفر ٦٠٩هـ/ ١٦ يوليو ١٢١٢م)، وقد شكَّلت نقطة تحوُّل في تاريخ الأندلس؛ حيث انتصرت قوات الملك ألفونسو الثامن على قوات الموحدين بقيادة السلطان الناصر.

وقعت المعركة في واد يسميه الإسبان نافاس قرب بلدة تولوسا وهذا سبب تسميتها بمعركة لاس نافاس دي تولوسا، ووقعت كذلك قرب حصن أموي قديم يسمى العقاب؛ ولذلك تسمى في التاريخ العربي باسم معركة العقاب، أو معركة حصن العقاب.

ما قبل موقعة العقاب

كان لهزيمة الملك القشتالي ألفونسو الثامن في معركة الأرك التي وقعت عام (٥٩٤هـ/ ١١٩٨م) الأثر الكبير في توطيد حكم المسلمين في الأندلس، وتوسعة أراضيهم

فيها؛ فقد استرجع المسلمون كلاًّ من مدن تروخلو وبلاسينسيا، وكوينكا وقلعة رباح وبينافينتي، والعديد من المدن والقلاع الأخرى، وقد تركت تلك المعركة أثرًا في قلب ألفونسو الثامن، الذي كانت تُحَدِّثه نفسه بالانتقام، على الرغم من أنه اضطر إلى عقد هدنة مع الموحدين بعد معركة الأرك.

استغلَّ الملك ألفونسو الهدنة في تحصين مملكته، وكذلك في تأليب بقية مسيحيي أوربا ضد المسلمين؛ فقد استطاع أن يجلب وُدَّ منافسيه السياسيين في أيبيريا من ملوك البرتغال ونافار وأراجون، بعد ذلك نقض ألفونسو الهدنة عام (٦٠٥هـ/ ١٢٠٩م) بقيامه باقتحام حصن رباح في وسط الأندلس، وأغار على جَيَّان وبَيَّاسة وأجزاء من مُرْسِيَة.

ولم يكن أمام سلطان الموحدين الناصر محمد بن يعقوب -الذي خلف والده المنصور- بدٌّ من التجهيز والإعداد للحرب، فاستنفر المسلمين للغزو والجهاد، فجاءته الجيوش من سائر أقطار المغرب الإسلامي، فتجمَّع المجاهدون من بلاد المغرب العربي والأندلس في جيش بلغ خمسمائة ألف مقاتل؛ أي إنه أكثر من ضعف جيوش النصارى مجتمعة، وكانت أقل الروايات قد ذكرت أن عدد المسلمين قد بلغ ستين ألفًا ومائتي ألف، وكانت هي نفسها التي ذكرت أن عدد النصارى لم يتجاوز ستين ألفًا ومائة ألف، فكان جيش المسلمين في كل الأحيان يزيد على جيش النصارى أكثر من مرة ونصف أو مرتين. وعبر السلطان الناصر بهذا الجيش البحر إلى الأندلس في (١٩ من ذي القعدة ٦٠٧هـ/ ٤ من مايو ١٢١١م)، ووصل إلى إشبيلية، وأقام بها لإعداد جيشه وتنظيم قوته، ثم تحرَّك في مطلع سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) صوب مملكة قشتالة، وحاصر قلعة سَلْبَطْرَة، وكانت قلعة كبيرة وحصينة جدًّا، وبها عدد قليل من النصارى، وكانت تقع في الجبل جنوب طليطلة، لكن حصانة القلعة أعجز المسلمين عن فتحها، وكان أن اجتمع قادة الأندلسيين وقادة الموحدين، وأشاروا على الناصر لدين الله بأن يترك حامية عليها، ثم يدعها ويتجه إلى جيش النصارى في الشمال؛ وذلك خوفًا من إنهاك قوتهم فيما لا طائل من ورائه، لكن الناصر لدين الله رفض هذا الأمر، واستمع لرأي وزيره الذي رأى أنه لا يجب أن تُجُوِّز هذه القلعة، فظلَّ يحاصرها طيلة ثمانية أشهر كاملة.

نتائج الاستبداد وملامح الهزيمة

كان من جرَّاء هذا العمل الذي قام به الناصر لدين الله أن حدث ما يلي:-

أولاً: إضاعة ثمانية أشهر كان من الممكن أن يستغلَّها في الشمال، والانتصار على النصارى هناك قبل أن يتجمعوا في كامل عدتهم.

ثانيًا: أكمل النصارى استعداداتهم خلال هذه الفترة الطويلة، واستطاعوا أن يستجلبوا أعدادًا أخرى كثيرة من أوربا.

ثالثًا: هلك الآلاف من المسلمين في صقيع جبال الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث كان الناصر لدين الله قد دخل بلاد الأندلس في شهر مايو، وقد كان مناسبًا جدًّا للقتال، إلا أنه ظل يحاصر سَلْبَطْرَة حتى قدم الشتاء القارس، وبدأ المسلمون يهلكون من شدَّة البرد وشدة الإنهاك في هذا الحصار الطويل.

المعسكر القشتالي

بعد حصار قلعة سَلْبَطْرَة استنفرَّ الملك القشتالي ألفونسو الثامن أوربا كلها ضد المسلمين في الأندلس، وبعث الأساقفة إلى البابا أنوسنت الثالث بروما يُنَاشده إعلان الحرب الصليبية في أوربا، وحثَّ أهلها وشعوبها على السير إلى إسبانيا لقتال المسلمين، وعقد مؤتمرًا لتوحيد جهود الإمارات المسيحية في إسبانيا لقتال الموحدين، وأطلق صيحته المشهورة: «كلنا صليبيون». فتوافدت على طليطلة جموع الصليبيين المتطوعين من كافة أنحاء المدن الإسبانية، يقودهم القساوسة والأساقفة.

وقد أثمرت جهود ألفونسو الثامن في استنفار أوربا كلها ضد المسلمين؛ حيث أنذرهم البابا بتوقيع عقوبة الحرمان الكنسي على كل ملك أو أمير يتأخَّر عن مساعدة ملك قشتالة، كما أعلن الحرب الصليبية، وتوافدت جحافل الصليبيين من كل أنحاء أوربا استجابة لدعوة البابا، واجتمع منهم نحو سبعين ألف مقاتل؛ حتى إن طليطلة لم تتسع لهذه الجموع الجرارة، فأقام معظمهم خارج المدينة.

تحركت هذه الجيوش الجرارة التي تجاوزت مائة ألف مقاتل تحت قيادة ألفونسو الثامن من مدينة طليطلة في (١٧ المحرم سنة ٦٠٩هـ/ ٢ يونيو ١٢١٢م)، فاخترقت حدود الأندلس، وضربت حصارًا حول قلعة رباح، وكانت حاميتها صغيرة نحو سبعين فارسًا، دافعوا عن موقعهم بكل شجاعة وبسالة، واستنجد قائد الحامية أبو الحجاج يوسف بن قادس بالسلطان

الناصر الموحدي، لكن رسائله لم تكن تصل إلى الخليفة؛ فلما طال الحصار، ورأى أبو الحجاج يوسف بن قادس استحالة المقاومة مع فناء الأقوات وقلة السلاح، ويئس من انتظار وصول المدد، فصالح ألفونسو على تسليم الحصن له، على أن يخرج المسلمون آمنين على أنفسهم.

وحين عاد أبو الحجاج يوسف بن قادس إلى الناصر لدين الله، وعندما علم منه أنه قد ترك قلعة رباح وسلَّمها بالمؤن والسلاح إلى النصارى، أشار عليه الوزير السوء أبو سعيد بن جامع بقتله بتهمة التقاعس عن حماية القلعة، ولم يتردَّد الناصر لدين الله، وفي ميدان موقعة العقاب يُمسك بالقائد المجاهد أبي الحجاج يوسف بن قادس ثم يقتله.

وإن هذا وبلا شك ليُعَدُّ خطأ كبيرًا من الناصر لدين الله، وعملاً غير مبرر، ويضاف إلى جملة أخطائه السابقة؛ وذلك للآتي:

أولاً: أن أبا الحجاج يوسف بن قادس لم يخطئ بانسحابه هذا، بل كان متحرفًا لقتال، ومتحيزًا إلى الجيش المتأهِّب للحرب، كما أنه لو مكث لهلك، ولو لم يهلك لكانت قد حُيِّدت قواته عن الاشتراك في الموقعة بسبب الحصار المفروض عليها.

ثانيًا: وعلى فرض أن أبا الحجاج يوسف بن قادس قد أخطأ، فلم يكن عقاب هذا الخطأ على الإطلاق هو القتل، خاصة وأنه لم يتعمده بل كان اجتهادًا منه.

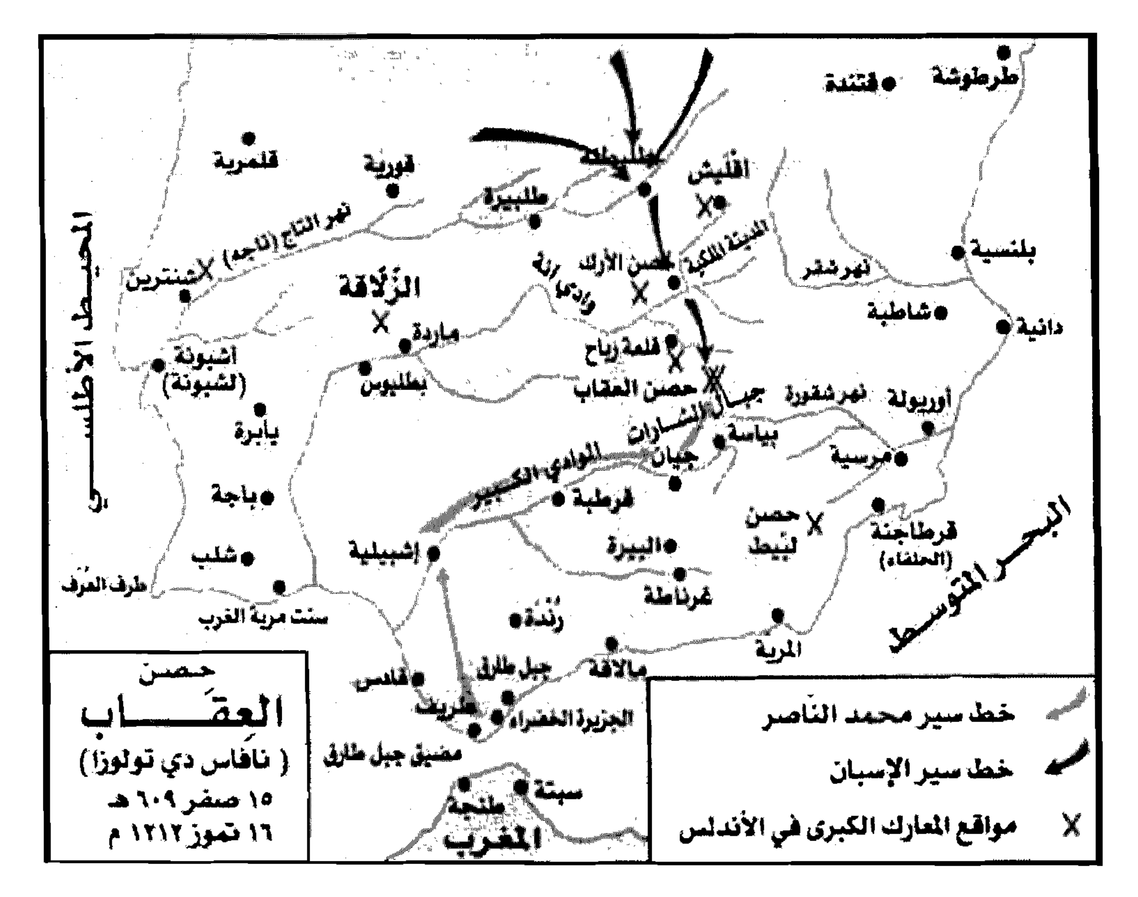
خطة الناصر لدين الله ومتابعة الأخطاء

وتكملة للأخطاء السابقة فقد وضع الناصر لدين الله خطة شاذَّة في ترتيب جيشه وتقسيمه؛ حيث لم يَسِرْ فيها على نهج السابقين، ولم يقرأ التاريخ كما قرأه المنصور الموحدي ويوسف بن تاشفين.. فقد قسم جيشه إلى فرقة أمامية وفرقه خلفية، لكنه جعل الفرقة الأمامية من المتطوعين، وعددهم ستين ألفًا ومائة ألف متطوع، وضعهم في مقدمة الجيش ومن خلفهم الجيش النظامي الموحدي.

وإنْ كان هؤلاء المتطوعة الذين في المقدمة متحمسين للقتال بصورة كبيرة، فليست لهم الخبرة والدراية بالقتال كما هو الحال بالنسبة لتلك الفرقة المنتخبة من أجود مقاتلي الصليبيين، والتي هي في مقدمة جيشهم، فقد قُسِّم الجيش الصليبي القادم من الشمال إلى ثلاثة جيوش كبيرة؛ فالجيش الأول هو الجيش الأوربي، والجيش الثاني هو جيش إمارة أراجون، والجيش الثالث هو جيش

قشتالة والبرتغال وليون ونافار، وهو أضخم الجيوش جميعها.

فكان من المفترض أن يضع الناصر لدين الله في مقدمة الجيش القادرين على صدِّ الهجمة الأولى للنصارى؛ وذلك حتى يتملَّك الخطوات الأولى في الموقعة، ويرفع بذلك من معنويات المسلمين، ويحطّ من معنويات النصارى، لكن العكس هو الذي حدث؛ حيث وضع المتطوعين في المقدمة.



ولقد زاد من ذلك -أيضًا- فجعل الأندلسيين في ميمنة الجيش، وما زال الألم والحرقة تكمن في قلوبهم من جرَّاء قتل قائدهم الأندلسي المجاهد المغوار أبي الحجاج يوسف بن قادس، فكان خطأ كبيرًا -أيضًا- أن جعلهم يتلقَّون الصدمة الأولى من النصارى.

العقاب.. والعقاب المر

تمامًا وكما كانت حُنين في الماضي، تتكرر حُنين -أيضًا- مع الناصر لدين الله في موقعة العقاب، وهو في أعظم قوة للموحدين، وفي أكبر جيش للموحدين على الإطلاق، بل وفي أكبر جيوش المسلمين في بلاد الأندلس منذ أن فتحت في سنة (٩٢ هـ).

ولتوالي الأخطاء السابقة كان طبيعيًّا جدًّا أن تحدث الهزيمة، ففي (١٥ صفر ٦٠٩هـ/ ١٦ يوليو ١٢١٢م) هجم المتطوعون من المسلمين على مقدمة الصليبيين؛ لكنهم ارتطموا ارتطامًا شديدًا بقلب قشتالة المدرَّب على القتال، فصدُّوهم بكل قوَّة ومزَّقُوا مقدمة المسلمين وقتلوا منهم الآلاف في الضربة الأولى لهم.

واستطاعت مقدمة الصليبيين أن تخترق فرقة المتطوعة بكاملها، والبالغ عددهم ستين ألفًا ومائة ألف مقاتل، وقد وصلوا إلى قلب الجيش الموحدي النظامي، الذي استطاع أن يصد تلك الهجمة، لكن كانت قد هبطت وبشدَّة معنويات الجيش الإسلامي نتيجة قتل الآلاف منهم، وارتفعت كثيرًا معنويات الجيش الصليبي للنتيجة نفسها.

وحين رأى ألفونسو الثامن ذلك أطلق قوات المدد المدرَّبة لإنقاذ مقدِّمة النصارى، وبالفعل كان لها أثر كبير، وعادت من جديد الكرَّة للنصارى.

في هذه الأثناء حدث حادث خطير في جيش المسلمين، فحين رأى الأندلسيون ما حدث في المتطوعين المسلمين واستشهاد الآلاف منهم، إضافة إلى كونهم يُقاتلون مرغمين مع الموحدين، وأيضًا كونهم يعتقدون بالعدد وليس في الثقة بالله ﷻ، كل هذه الأمور اعتملت في قلوبهم، ففروا من أرض القتال.

وحين فرَّت ميمنة المسلمين من أرض الموقعة التفَّ النصارى حول جيش المسلمين، وبدءوا بالفتك بهم، فقُتل الآلاف من المسلمين بسيوف النصارى في ذلك اليوم، والذي سُمِّيَ بيوم العقاب أو معركة العقاب.

قُتل سبعون ألفًا من مسلمي دولة الموحدين ومن الأندلسيين.. قُتلوا على يد الصليبيين، وفرَّ الناصر لدين الله من أرض الموقعة ومعه فلول الجيش المنهزم المنكسر والمصاب في كل أجزاء جسده الكبير، وقد قال الناصر لدين الله وهو يفرُّ: صدق الرحمن وكذب الشيطان. حيث دخل الموقعة وهو يعلم أنه منصور بعدده، فعلم أن هذا من إلقاء الشيطان وكذبه، وصدق الرحمن: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥]، فولى الناصر لدين الله مدبرًا.

ومما زاد من مرارة الهزيمة أنه ارتكب خطأ آخر لا يقلُّ بحال من الأحوال عن هزيمته المنكرة السابقة وفراره من أرض المعركة، وهو أنه لم يمكث بعد موقعة العقاب في المدينة التي تلي مباشرة

مدينة العقاب، وهي مدينة بَيَّاسة، بل فرَّ وترك بَيَّاسة ثم ترك أُبَّذة، ترك كلتيهما بلا حامية وانطلق إلى مدينة إِشْبِيلِيَة، وما زالت قوَّة النصارى في عظمها، وما زالت في بأسها الشديد.

الفواجع بعد العقاب

انطلقت قوة النصارى فحاصرت بيَّاسة، وكانت مأوى للمرضى والنساء والأطفال، فجمعوهم في المسجد الجامع الكبير في المدينة، وقاموا بقتلهم جميعهم بالسيف، ثم انطلقوا إلى مدينة أُبَّذة، وهناك حاصروها ثلاثة عشر يومًا، ثم أَعْطَوْا أهلها الأمان على أن يخرجوا منها، وعند خروجهم أمر القساوسة الملوك بقتلهم وعدم تركهم، فقُتل من المسلمين في مدينة أُبَّذة وفي يوم واحد ستون ألف مسلم، وكان ذلك أعقاب موقعة العقاب.

وعلى جبهة أخرى قام ملك أراجون وكونت برشلونة جيمس الأول بالتوسع في مملكته؛ فقام باسترداد جزر البليار بين عامي (٦٢٥-٦٢٩هـ/ ١٢٢٨-١٢٣٢م)، ومدينة بلنسية عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م).

أسباب الهزيمة

اعتبر الإسبان يوم ١٦ يوليو عيدًا عُرف باسم عيد انتصار الصليب، ولقد تضافرت عدة عوامل ساعدت في وقوع هذه النكبة، ونستطيع حصر أخطاء الناصر لدين الله وهو في طريقه نحو العقاب على النحو التالي:

١- حصار قلعة سَلْبَطْرَة طيلة ثمانية أشهر كاملة.

٢- الاستعانة ببطانة السوء الممثلة في الوزير السوء أبي سعيد بن جامع.

٣- قتل القائد الأندلسي المشهور أبي الحجاج يوسف بن قادس.

٤- تنظيم الجيش وتقسيمه الخاطئ في أرض الموقعة.

٥- أمر في غاية الخطورة؛ وهو الاعتقاد في قوة العدد والعدة، فقد دخل الناصر لدين الله الموقعة وهو يعتقد أنه لا محالة منتصر؛ فجيشه أضعاف الجيش المقابل، ومن هنا تتبدى في الأفق سحائب حنين جديدة، يخبر عنها ﷻ بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

***


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com




الفصل السادس

أيام لا تنسى في العهد الأيوبي




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معركة حطين

التاريخ	٥٨٣هـ/ ١١٨٧م	
المكان	تلال حطين قرب طبرية	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الدولة الأيوبية	مملكة بيت المقدس (صليبيون)
القادة	صلاح الدين الأيوبي	جاي لوزجنان ملك بيت المقدس
القوى والحشود	حوالي ١٢ ألف مقاتل	قيل: ٥٠ ألفًا. وقيل: ٦٣ ألف مقاتل
الخسائر	غير معروفة	٣٠ ألف قتيل، و٣٠ ألف أسير

معركة حطين هي معركة فاصلة بين الصليبيين وقوات صلاح الدين الأيوبي المسلمة، قامت في (٢٤ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٤ من يوليو ١١٨٧م)، قرب قرية وتلال حطين بين الناصرة وطبرية، حيث انتصر فيها المسلمون؛ فقد وضع فيها الصليبيون أنفسهم في وضع غير مريح إستراتيجيًّا في داخل طوق من قوات صلاح الدين، فأسفرت عن هزيمتهم وسقوط مملكة القدس، وتحرير معظم الأراضي التي احتلها الصليبيون من قبل.

بناء الوحدة الإسلامية

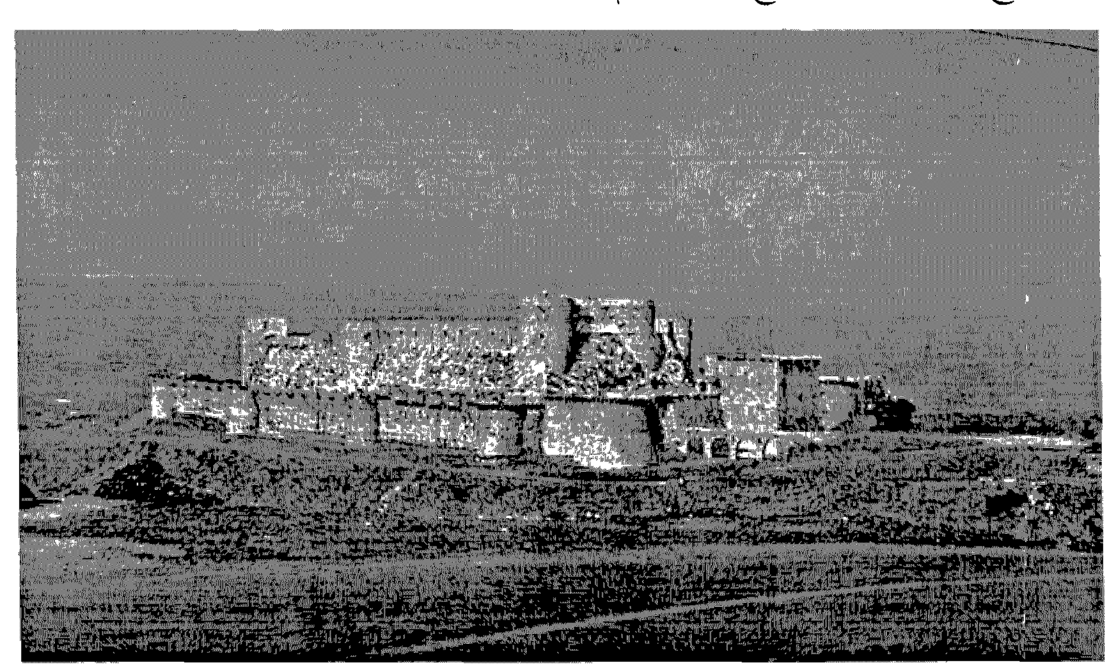
كانت وفاة نور الدين محمود سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) نقطة تحوُّل في حياة صلاح الدين؛ إذ أصبحت الوحدة الإسلامية التي بناها نور الدين محمود البطل العظيم مُعَرَّضة للضياع، ولم يكن هناك مَنْ يملأ الفراغ الذي خلا بوفاته، فتقدَّم صلاح الدين ليُكمل المسيرة، ويُقَوِّيَ البناء، ويُعيد الوحدة، وكان الطريق شاقًّا لتحقيق هذا الهدف وإعادة الأمل؛ فقد توفي نور الدين محمود وترك ولدًا صغيرًا لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، فشبَّ نزاع بين الأمراء على مَنْ يقوم بالوصاية على الأمير الصغير، وانفرط عقد الدولة النورية، وكان صلاح الدين في مصر يراقب ما يحدث في الشام عن كثب، ينتظر الفرصة المواتية لتوحيد الجبهة الإسلامية، ولم يَطُل انتظاره حيث جاءته دعوة من أمراء دمشق لتَسَلُّمِهَا، فهبَّ إليها على الفور، واستقبله

أهلها استقبالاً حسنًا، وتسلَّم المدينة وقلعتها في سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)، ثم اتجه إلى حمص فاستولى عليها، ثم عرج على حماة فضمها -أيضًا- إلى دولته، وأصبح على مشارف حلب نفسها، وحاول أن يفتحها لكنها استعصت عليه بعد أن استنجد قادتها بالصليبيين؛ فتركها وفي أعماقه أنه سيأتي إليها مرَّة أخرى، ولكن تأخَّرت عودته ثماني سنوات، حتى تمكن من فتحها وضمها في (٥٧٩هـ/ ١١٨٣م)، وكان استيلاء صلاح الدين على حلب وما حولها خطوة هائلة في بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، التي امتدَّت تحت زعامته من جبال طوروس شمالاً حتى بلاد النوبة جنوبًا.

لم يَعُدْ أمام صلاح الدين لاستكمال الوحدة سوى مدينة الموصل، فحاصرها أكثر من مرة، إلى أن تم الصلح، بعد أن سعى إليه واليها عز الدين مسعود، قبل أن يكون تابعًا لصلاح الدين، واتفقا على ذلك في صفر سنة (٥٨٢هـ/ ١١٨٦م).

الجبهة الصليبية

في أثناء الفترة التي عمل فيها صلاح الدين على إحياء الدولة الإسلامية المتحدة؛ استعدادًا لخطة الجهاد التي رسمها لطرد الصليبيين، ارتبط بعقد هدنة مع هؤلاء الصليبيين مدته أربع سنوات؛ حتى يتفرغ تمامًا لتنظيم دولته وترتيب أوضاعها الداخلية.



حصن الكرك

غير أن أرناط (رينالد دوشاتيون) حاكم الكرك شاء بحماقته ألا يترك الصليبيين ينعمون بتلك الهدنة؛ حيث أقدم على عمل طائش نقض الهدنة وأشعل الحرب، فاستولى على قافلة تجارية متجهة من مصر إلى دمشق، وأسر حاميتها ورجالها، وألقى بهم أسرى في حصن الكرك.

حاول صلاح الدين أن يتذرَّع بالصبر فبعث إلى أرناط مقبحًا فعله، ويُهَدِّده إذا لم يَرُدّ أموال القافلة ويُطلق سراح الأسرى، وبدلاً من أن يستجيب أرناط أساء الردَّ، واغترَّ بقوته، وردَّ على رسل صلاح الدين بقوله: «قولوا لمحمد يُخَلِّصكم».

ولما حاول ملك بيت المقدس أن يتدارك الموقف أصرَّ أرناط على رأيه، ورفض إعادة أموال القافلة وإطلاق الأسرى، فزاد الأمر تعقيدًا، ولم يبق أمام صلاح الدين سوى الحرب والقصاص.

العمليات العسكرية التي سبقت حطين

عبّأ صلاح الدين قواه واستعد لمنازلة الصليبيين وخوض معركة الجهاد الكبرى، التي ظلَّ يُعِدُّ لها مدَّة عشر سنوات منتظرًا الفرصة المواتية لإقدامه على مثل هذا العمل، وغادرت قوات صلاح الدين التي تجمَّعت من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر من مدينة دمشق في (المحرم ٥٨٣هـ/ مارس ١١٨٧م)، واتجهت إلى حصن الكرك، فحاصرته ودمرت مزارعه، ثم اتجهت إلى الشوبك، ففعلت به مثل ذلك، ثم قصدت بانياس بالقرب من طبرية لمراقبة الموقف.

وفي أثناء ذلك تجمعت القوات الصليبية تحت قيادة ملك بيت المقدس جاي لوزجنان في مدينة صفورية، وانضمت إليها قوات ريموند الثالث أمير طرابلس ناقضًا الهدنة التي كانت تربطه بصلاح الدين، مفضلاً مناصرة قومه، على الرغم من الخصومة المتأججة بينه وبين ملك بيت المقدس.

قال ابن كثير: «وكان جملة مَنْ مع صلاح الدين من المقاتلة اثني عشر ألفًا غير المتطوعة، فتسامعت الفرنج بقدومه فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهم، وصالح قومس طرابلس وبرنس الكرك الفاجر، وجاءوا بحدِّهم وحديدهم، واصطحبوا معهم صليب الصلبوت يحمله منهم عباد الطاغوت وضلال الناسوت، في خلق لا يعلم عدتهم إلا الله ﷻ، يقال: كانوا خمسين ألفًا، وقيل: ثلاثًا وستين ألفًا».

وكان صلاح الدين يرغب في إجبار الصليبيين على المسير إليه، ليلقاهم وهم متعبون في الوقت الذي يكون هو فيه مدخرًا قواه، وجهد رجاله، ولم يكن من وسيلة لتحقيق هذا سوى مهاجمة طبرية؛ حيث كانت تحتمي بقلعتها زوجة ريموند الثالث، فثارت ثائرة الصليبيين وعقدوا مجلسًا لبحث الأمر، وافترق الحاضرون إلى فريقين: أحدهما يرى ضرورة الزحف إلى طبرية لضرب صلاح الدين، على حين يرى الفريق الآخر خطورة هذا العمل؛ لصعوبة الطريق وقلة الماء، وكان يتزعم هذا الرأي ريموند الثالث، الذي كانت زوجته تحت الحصار، لكن أرناط اتهم ريموند بالجبن والخوف من لقاء المسلمين، وحمل الملك على الاقتناع بضرورة الزحف إلى طبرية.

الجبهة الصليبية

بدأت القوات الصليبية الزحف في ظروف بالغة الصعوبة في (٢١ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ١ من يوليو ١١٨٧م)، تلفح وجوهها حرارة الشمس، وتعاني قلة الماء ووعورة الطريق، الذي يبلغ طوله نحو ٢٧ كيلو مترًا، في الوقت الذي كان ينعم فيه صلاح الدين وجنوده بالماء الوفير والظلِّ المديد، مدَّخرين قواهم لساعة الفصل، وعندما سمع صلاح الدين بشروع الصليبيين في الزحف، تقدَّم بجنده نحو تسعة كيلو مترات، ورابط غربي طبرية عند قرية حطين.

أدرك الصليبيون سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين في (٢٣ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٣ من يوليو ١١٨٧م)، وهي منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر، ولها قمتان تشبهان القرنين، وهو ما جعل العرب يطلقون عليها اسم «قرون حطين». وصعدوا إلى ذلك الجبل لكي يعصمهم من المهالك؛ ومن ثم المبيت في جوٍّ معتدل يخفف عنهم شدة الحرارة والعطش، وعلى الرغم من أوامر الملك جاي التي كانت تقضي بأن يندفعوا إلى أسفل التل؛ ليؤدوا واجبهم نحو الصليب، إلا أنهم اعتذروا بشدة العطش، فاستغلَّ صلاح الدين ذلك، ورتَّب جيشه ورسم له الخطط، وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها.

وقد حرص صلاح الدين على أن يحول بين الصليبيين والوصول إلى الماء، في الوقت الذي اشتدَّ فيه ظمؤهم، فقضى الصليبيون ليلة سيئة يعانون العطش والإنهاك، وهم يسمعون تكبيرات المسلمين وتهليلهم الذي يقطع سكون الليل، ويهزُّ أرجاء المكان، ويُثير الفزع في قلوبهم.

المعركة

وعندما أشرقت شمس يوم السبت (٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٤ يوليو ١١٨٧م) اكتشف الصليبيون أن صلاح الدين استغلَّ ستر الليل ليضرب حصارًا حولهم، وأنهم بعيدون عن المياه، في ذلك الوقت أكمل الجيش الإسلامي استعداداته للمعركة الفاصلة وفي المقابل تحرك الجيش الصليبي واضعًا في ذهنه الوصول إلى طبرية لعله يصل إلى الماء، إلا أن صلاح الدين ببراعته الحربية أدرك مقصودهم، ووقف بعسكره في وجوههم وأخذ صلاح الدين يطوف بين الصفوف يُحرِّض الرجال على الجهاد، ويأمرهم بما ينفعهم، وينهاهم عما يضرهم، وهم له طائعون.

- **بداية الهجوم الإسلامي:** وبدأ الهجوم الإسلامي على الصليبيين فاستماتَ المسلمون في القتال، وشدَّدوا هجماتهم على الأعداء، مدركين أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد الروم، وأنهم لا يُنجيهم إلا الله. وأمام ذلك الهجوم الإسلامي الرهيب، أدرك الصليبيون أن نهايتهم قد حانت، وأنه لا ينجيهم من صلاح الدين سوى الفرار أو الاستسلام، ولم يستطع النجاة سوى ريموند أمير طرابلس، الذي رأى عجز الصليبيين عن مقاومة الجيش الإسلامي، فاتفق مع جماعة من أصحابه وهجموا على مَنْ يليهم من المسلمين، ففتح المسلمون لهم طريقًا يخرجون منه، وبعد خروجهم التام أعاد المسلمون حصار الصليبيين مرة أخرى، وقصد صلاح الدين بذلك إدخال الضعف واليأس في نفوس الصليبيين؛ عندما يعلمون

بهروب ريموند وجموعه، مما دفع ببعض الصليبيين إلى إلقاء أسلحتهم، وجاءوا إلى معسكر المسلمين مستسلمين، ومما زاد الطين بلة، أنه في الوقت الذي تخلَّى فيه ريموند عن أبناء ملته، كان بعض المتطوعين المسلمين قد أشعلوا النيران في الأعشاب والأشواك اليابسة التي تكسو تلك المنطقة، وكانت الريح تهب باتجاه الصليبيين، فاجتمع على الصليبيين العطش وحر الزمان وحر النار، والدخان، وشدَّة القتال، هذا ما اضطر معه الصليبيون إلى التراجع إلى أعلى الجبل، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به، فاشتد عليهم القتال من سائر الجهات، ومُنعوا عما أرادوا ولم يتمكَّنُوا من نصب خيمة واحدة سوى خيمة الملك.

- **الحرب النفسية عند صلاح الدين:** ويبدو أن صلاح الدين كان في تلك المعركة الحاسمة يعمد إلى القضاء على الصليبيين وإدخال الوهن في نفوسهم بكل الوسائل، ولم يكن همه مقصورًا على القتال المباشر فقط، بل كان يستخدم الحرب النفسية للتأثير على العدو، والدليل على ذلك أنه بعد أن حصر الصليبيين في أعلى جبل حطين، ركز اهتمامه على الاستيلاء على صليبهم الأعظم، الذي يسمونه صليب الصلبوت، والذي يذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صُلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم؛ لأنه كان يعلم أن الاستيلاء عليه يُعَدُّ أعظم سلاح لتحطيمهم نفسيًّا ومعنويًّا، وقد غَلَّفوا هذا الصليب بالذهب واللآلئ والجواهر النفيسة، وبالفعل، فما أن تمكن من أخذه حتى حل بالصليبيين البوار، وأيقنوا بالهلاك، وتقدَّم المسلمون نحو قمة الجبل والصليبيون يتراجعون أمامهم، ويتساقطون أسرى وقتلى، حتى لم يبقَ مع الملك الصليبي الذي وصل إلى أعلى التل سوى فئة قليلة، لا يتجاوز عددها مائة وخمسين فارسًا من الفرسان المشهورين الشجعان، فمنح الله المسلمين النصر في هذه المعركة، وقُتل من الصليبيين ثلاثون ألفًا في ذلك اليوم، وأُسر ثلاثون ألفًا من شجعانهم وفرسانهم، وكان في جملة مَنْ أُسر جميع ملوكهم سوى أمير طرابلس الذي انسحب في أول المعركة.

معاملة الملوك الأسرى

أُحضر ملوك الصليبيين وأمراؤهم وقادتهم إلى خيمة صلاح الدين، حيث استقبلهم استقبالاً حسنًا، وأجلس الملك جاي إلى جانبه، وأجلس البرنس أرناط صاحب الكرك إلى جانب الملك، وبادر صلاح الدين بتقديم إناء به ماء مثلج للملك جاي، فشرب منه وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب، وعندئذٍ غضب صلاح الدين من ذلك، وخاطب الملك مؤكدًا له بأن

أرناط لم يشرب الماء بإذنه فينال أمانه، ثم التفت إليه وذَكَّره بجرائمه وخيانته، وقال له: «كم تخلف وتنكث؟» فقال الترجمان عنه أنه يقول: «قد جرت عادة الملوك بذلك». فأوقف السلطان صلاح الدين وقال: «هأنذا استنصر لمحمد». ثم عرض عليه الإسلام فأبى، فاستلَّ صلاح الدين سلاحه فضرب عنقه، وقال: «**كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القوافل غدرًا**». ولما رأى ملك بيت المقدس جاي لوزجنان ذلك المنظر، خاف وظنَّ أن صلاح الدين سوف يقتله، ولكن السلطان استحضره، وطيَّب قلبه، وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حدَّه فجرى ما جرى».

نتائج حطين

لم تكن هزيمة الصليبيين في حطين هزيمة طبيعية، وإنما كانت كارثة حلَّت بهم؛ حيث فقدوا زهرة فرسانهم، وقُتلت منهم أعداد هائلة، ووقع في الأسر مثلها؛ حتى قيل: إن مَنْ شاهد القتلى قال: ما هناك أسير. ومَنْ عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل.

وبعد المعركة سرعان ما احتلَّت قوات صلاح الدين وأخيه الملك العادل المدن الساحلية كلها تقريبًا جنوبي طرابلس: عكا، بيروت، صيدا، يافا، قيسارية، عسقلان. وقطع اتصالات مملكة القدس اللاتينية مع أوربا، وفي النصف الثاني من سبتمبر (١١٨٧م) حاصرت قوات صلاح الدين القدس، ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة أن تحميها من ضغط ٦٠ ألف رجل، فاستسلمت بعد ستة أيام، وفي (٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ أكتوبر ١١٨٧م) فُتحت الأبواب، ورفعت راية السلطان صلاح الدين الصفراء فوق القدس.

وعامل صلاح الدين القدس وسكانها معاملة أرقَّ وأخفَّ بكثير مما عاملهم الغزاة الصليبيون حين انتزعوا المدينة من حكم مصر قبل ذلك بمائة عام تقريبًا، فلم تقع حوادث قتل وسلب ونهب وتدمير للكنائس، وأدَّى سقوط مملكة القدس إلى دعوة روما إلى بدء التجهيز لحملة صليبية ثالثة لاسترداد القدس، ولكنها باءت بالفشل.

* * *

فتح بيت المقدس

الطريق إلى بيت المقدس

بعد هزيمة الصليبيين في حطين أضحى الموقف العسكري شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس، وإمارتي طرابلس وأنطاكية؛ إذ لم يبقَ أمام صلاح الدين بعد أن دمَّر أعداءه إلا أن يفتح حصون الأرض المقدسة، وبخاصة أنه نتج عن خسارة الصليبيين -الذين ألقوا بكل ثقلهم في معركة حطين- أن وقع عدد كبير من أمرائهم وقوادهم وفرسانهم في الأسر، وعلى رأسهم الملك جاي لوزجنان ملك بيت المقدس؛ حتى لم يبقَ لديهم مَنْ يصلح للقيادة، يُضَافُ إلى ذلك أن الغرب الأوربي لم ينتبه إلى الخطر قبل عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)؛ لذا فإن احتمال مجيء حملة صليبية سوف يستغرق زمنًا؛ لذلك شرع صلاح الدين يفتح المدن والحصون الصليبية واحدة بعد أخرى، فتحًا سريعًا ومتواصلاً، مُرَكِّزًا ضرباته المباشرة على الموانى المهمة.

والواقع أن عملية الفتح لم تكن حربًا بالمعنى العسكري المفهوم للكلمة، بل أشبه بنزهة عسكرية؛ إذ كانت المقاومة ضعيفة؛ مما سَهَّل للمسلمين الانتشار والتقدُّم، فكانت المدينة أو القلعة تسارع إلى الاستسلام لمجرد وصول المسلمين إليها؛ وذلك لعدم وجود قوة تدافع عنها، وإذا قاومت فإن مقاومتها تبدو ضئيلة، وقد قام صلاح الدين في هذا الوقت بفتح قلعة طبرية، وفتح عكا، ومدن الجليل، والمدن الساحلية، والواقع أنه لم يَنْقَضِ شهر جمادى الآخرة حتى لم يَبْقَ للنصارى جنوبي طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة، وبضع قلاعٍ معزولة، إضافة إلى بيت المقدس.

ويبدو أن صلاح الدين تخلَّى عن حذره هذه المرة أيضًا، حين منح الصليبيين بعد أن فتح المدن والحصون المشار إليها حرية البقاء فيها أو الخروج منها، فذهب معظمهم إلى صور؛ ذلك أنه سرعان ما أدرك أن أمر هذه المدينة غدا صعبًا فتركها، وآثر الانصراف إلى غيرها؛ فقام بفتح عسقلان.

فتح بيت المقدس

بعد أن فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والمدن المجاورة، تطلَّع إلى تحقيق هدفه الذي

طالما جال بخاطره، وعمل له، وهو تحرير بيت المقدس؛ تمهيدًا لطرد الصليبيين من المنطقة؛ فأخذ يستعدُّ لتنفيذ هذه الخطوة، وحتى يقطع الطريق على احتمال هجوم صليبي بحري على الساحل الشامي أثناء حصاره لبيت المقدس؛ أرسل إلى قائد أسطوله في مصر حسام الدين لؤلؤ أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطئ، وقطع الطريق على مراكب الصليبيين والاستيلاء عليها.

وبذلك يكون قد ضمن حماية مؤخرة جيشه البري، وأقفل حلقة الحصار على المدينة المقدسة؛ ومن ثَمَّ دعا أهلَها إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة.

ويبدو أن سكان بيت المقدس قد أدركوا بعد تساقط المدن والمعاقل الداخلية والساحلية بيد صلاح الدين أنهم أضحوا محاصرين فعلاً؛ فأرسلوا إليه وفدًا اجتمع به أمام عسقلان، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الصليبية؛ أي: يُؤَمِّنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، وأن يسمح لمن يشاء بالخروج من المدينة سالمًا، ولكن سكان بيت المقدس رفضوا أن يُسَلِّموا المدينة، عندئذٍ أقسم صلاح الدين أنه سوف ينالها بحدِّ السيف.

ثم كرَّر صلاح الدين عرضه على سكان بيت المقدس؛ وذلك رغبة منه في عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها وقدسيتها عند المسلمين والنصارى على السواء، لكنهم أَصَرُّوا على موقفهم الرافض؛ عندئذٍ قرَّر صلاح الدين اقتحام المدينة عَنْوَة.

واجتمع داخل المدينة ما بلغ ستين ألفًا بين فارس وراجل سوى النساء والأطفال، بل إن الصليبيين قاوموا الجيش الأيوبي الزاحف، واستطاعوا قتل أحد الأمراء وجماعة ممن كانوا معه.

وقد وصل صلاح الدين إلى المدينة في (١٥ رجب ٥٨٣هـ/ ٢٠ من سبتمبر ١١٨٧م)، وعسكر أمام أسوارها الشمالية، والشمالية الغربية، وشرع في مهاجمتها؛ لكنه جُوبِهِ باستحكامات هذا الجوانب المتينة المشحونة بالمقاتلين، إضافة إلى أشعة الشمس التي كانت تواجه عيون قواته فحجبت عنهم الرؤية الضرورية للقتال حتى بعد الظهر؛ لذلك طاف حول المدينة مدة خمسة أيام يبحث عن مكان يصلح للجيش أن يعسكر فيه، إلى أن عثر على

موضع في الجانب الشمالي نحو العمود وكنيسة صهيون؛ حيث الأسوار أقل متانة، فانتقل إلى هذه الناحية في (٢٠ رجب/ ٢٥ سبتمبر)، وحينما حَلَّ الليلُ بدأ بنصب المجانيق.

وتراشق الطرفان بقذائف المجانيق، وقاتل أهل بيت المقدس بحميَّة وكذلك المسلمون، حيث كان كل فريق يرى ذلك دَينًا عليه، وحتمًا واجبًا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني.

ولما رأى الصليبيون شدَّة القتال، وشعروا بأنهم أشرفوا على الهلاك؛ عقدوا اجتماعًا للتشاور، فاتفقوا على طلب الأمان؛ فأرسلوا وفدًا إلى صلاح الدين من أجل هذه الغاية، واشترطوا احترام مَن في المدينة من الصليبيين، والسماح لمن يشاء بمغادرتها.

كانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين أن عرضها عليهم من قَبْلُ، لكنه رفض قبولها الآن؛ لأنه أوشك أن يفتح المدينة عَنْوَةً، وقال: «لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها».

وازداد موقف الصليبيين في الداخل سوءًا، وراحوا ينظرون بقلق إلى المصير الذي ينتظرهم، ولم يسعهم إلا أن يحاولوا مرَّة أخرى إقناع صلاح الدين بالعفو عنهم، ولكن صلاح الدين سبق له أن أقسم بأنه سوف يفتح بيت المقدس بحدِّ السيف، ولن يُحِلَّه من قسمه سوى إذعان المدينة بدون قيد أو شرط.

في ذكرى الإسراء تم الفتح

وأمام هذا الإصرار، وبعد أن استشار مجلس حربه في الموقف، تقرَّر السماح للصليبيين بمغادرة المدينة مقابل عشرة دنانير عن الرجل يستوي فيها الغني والفقير، وخمسة دنانير عن المرأة، وديناران عن الطفل، ومَنْ بقي فيها يقع في الأسر، واشترط أن يُدْفَعَ الفداءُ المفروضُ في مدى أربعين يومًا، ومَنْ لم يُؤَدِّ فداءَه خلال تلك المدة يُصبح مملوكًا، لكن تبين أن في المدينة نحو عشرين ألف فقير ليس بحوزتهم المبلغ المقرَّر للفداء؛ فوافق صلاحُ الدين أن يدفع باليان مبلغًا إجماليًّا قدره ثلاثون ألف دينارٍ عن ثمانية عشر ألف منهم.

ودخل صلاح الدين المدينة يوم الجمعة (٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ أكتوبر ١١٨٧م)، وشاءت الظروف أن يصادف ذلك اليوم في التاريخ الهجري، ذكرى ليلة الإسراء والمعراج.

سماحة القائد أم سماحة الإسلام

ومن الأمور اللافتة ما حدث من طلب العادل من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير من الفقراء؛ على سبيل المكافأة عن خدماته له، مظهرًا بذلك تسامحًا كبيرًا، فوهبهم له؛ وإذ ابتهج البطريرك لذلك، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الفقراء ليطلق سراحهم، فاستجاب لطلبه، ثم أعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز، كما ذهب بعيدًا حين وعد نساء الصليبيين بأن يُطلق سراح كُلِّ مَنْ في الأسر من أزواجهن، ومنح الأرامل واليتامى العطايا من خزائنه كل واحد بحسب حالته.

والواقع أن عطف صلاح الدين وسماحته كانت على نقيض أفعال الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى؛ إذ كان مثالاً للمسلم المتسامح الذي يعفو من موضع القوة عمَّن أساء إليه، بل ويُحسن إليه.

ثم عمل صلاح الدين على محو الآثار النصرانية في المدينة؛ فأعاد قبة الصخرة والمسجد الأقصى إلى سابق عهدهما، وأنزل الصليب الكبير الذي أقامه الصليبيون في أعلى قبة الصخرة، في حين غُسِلَتِ الصخرة بماء الورد وبُخِّرَت، ثم دخل صلاح الدين إلى المسجد الأقصى يوم الجمعة (٤ شعبان ٥٨٣هـ/ ٩ أكتوبر ١١٨٧م)، وصَلَّى فيه، وشكر اللهَ على توفيقه ونصره.

أصداء فتح بيت المقدس تهز أوربا

ما كاد القتال ينتهي في حطين، وتتحقق خسارة الصليبيين، حتى أسرعت الرسل إلى غرب أوربا لإعلام ملوكها وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين في الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسلٌ آخرون عقب فتح بيت المقدس.

والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أحدثا ردَّ فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي ذُعِرَ لنبأ الكارثتين، واعتقد النصارى في الغرب أنهما جاءتا نتيجة إهمالهم في الاستجابة للاستغاثات المتكررة، التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السنوات الأخيرة.

وأدرك مَنْ اجتمع في مدينة صور من الصليبيين أنه ما لم تصلهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بالمدينة ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي فقدوها، ولم يلبث (كونراد دي مونتفيرات) أن أرسل (جوسياس) رئيس أساقفة صور إلى غرب أوربا في

منتصف عام ٥٨٣هـ/ أواخر صيف عام ١١٨٧م؛ ليطلب من البابا وملوك أوربا وأمرائها النجدة العاجلة.

فأسفرت تلك الجهود عن قيام حملة صليبية ضخمة؛ هي الحملة الصليبية الثالثة التي باءت محاولاتها لإعادة احتلال بيت المقدس بالفشل، وفي (٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر ١١٩٢م) عُقد الصلح بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، واحتفظ الصليبيون بشريط ساحلي يمتد من صور إلى يافا، وسمح صلاح الدين للحجاج والتجار بزيارة مدينة القدس والأماكن المقدسة.



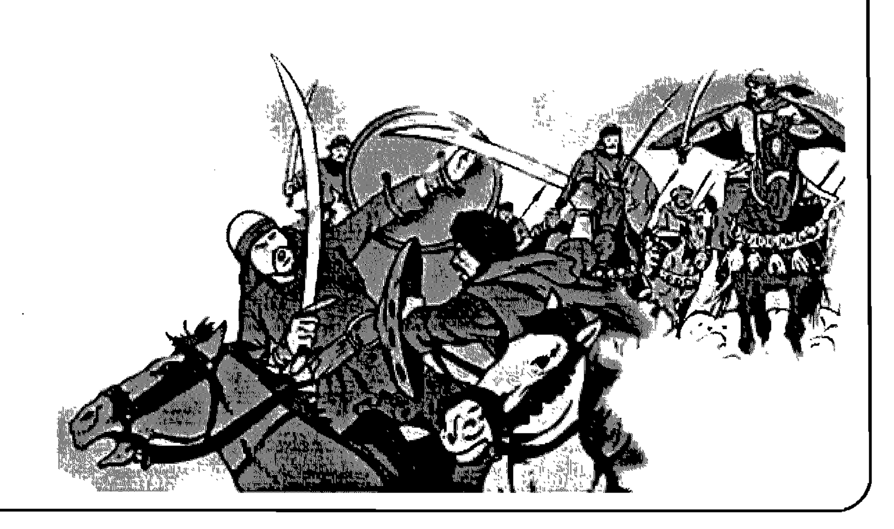






الفصل السابع

أيام لا تنسى في العهد المملوكي





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معركة عين جالوت

التاريخ	٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م	
المكان	عين جالوت عند مدينة بيسان ونابلس بفلسطين	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الدولة المملوكية	إمبراطورية المغول
القادة	سيف الدين قطز	كتبغا نوين النسطوري
القوى والحشود	حوالي ٢٠ ألف مقاتل	حوالي ٢٠ ألف مقاتل
الخسائر	غير معروفة	تدمير كامل القوات

تُعَدُّ معركة عين جالوت التي وقعت في (٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م) من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ العالم الإسلامي؛ فقد انتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا على المغول، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان، أدَّت المعركة لانحسار نفوذ المغول في بلاد الشام، وخروجهم منها نهائيًّا، وإيقاف المد المغولي المكتسح الذي أسقط الخلافة العباسية سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، كما أدت المعركة إلى تعزيز موقع دولة المماليك كأقوى دولة إسلامية في ذاك الوقت لمدة قرنين من الزمان إلى أن قامت الدولة العثمانية، وقعت المعركة في منطقة تسمى عين جالوت عند مدينة بيسان ونابلس بفلسطين.

الاجتياح المغولي للعالم الإسلامي

اجتاح المغول العالم الإسلامي في بدايات القرن السابع الهجري بقيادة جنكيز خان، وكان من أول ما واجهوا في طريقهم دولة الخوارزميين في بلاد فارس وما وراء النهرين، فاكتسحوها وخرَّبوا فيها مدنًا، وقتلوا خلقًا كثيرًا، بعد ذلك حكم مونكو خان إمبراطورية المغول عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)، فكان الفعل مشابهًا تمامًا في الدولة العباسية حتى سقوط بغداد في أيديهم

في (٤ صفر ٦٥٦هـ/ ١٠ فبراير ١٢٥٨م)، وانطلق بعدها المغول بجيش ضخم قوامه ١٢٠ ألف مقاتل نحو الشام بقيادة هولاكو، ومعه حلفاؤه من أمراء جورجيا وأرمينيا وابتدءوا بمدينة ميافارقين بديار بكر، التي كان يحكمها الكامل محمد الأيوبي، قاومت ميافارقين المغول مقاومة عنيفة؛ إذ استمرَّ الحصار عامين، حتى استسلم أهلها بعد نفاذ المؤن وموت معظم السكان، وعدم وصول الدعم من المسلمين، فدخلوها وارتكبوا مجازر تقشعر منها الجلود؛ حيث قبضوا على الكامل محمد الأيوبي وقطعوا جلده وأعطوه له ليأكله إلى أن مات، فقطعوا رأسه وحملوه على أسنة رماحهم؛ تشفيًا وانتقامًا منه لصموده وبطولته.

اتجه المغول بعدها إلى مدينة حلب فدخلوها بعد حصارها، وعاثوا فيها فسادًا خلال سبعة أيام، ثم توجهوا نحو دمشق في (ربيع الأول ٦٥٨هـ/ مارس ١٢٦٠م)، وفي هذا الوقت وصل بالبريد خبر موت الخاقان الأعظم للمغول منكو خان في قراقورم، واستدعي أولاد وأحفاد جنكيز خان إلى مجلس الشورى المغولي (الكوريل تاي Kuriltai)؛ لانتخاب الخان الأعظم الجديد للإمبراطورية؛ فرجع هولاكو (الذي هو أخو منكو خان) وأحد المؤهَّلين للعرش بمعظم جيشه إلى فارس؛ ليتابع أمور العاصمة المغولية، وترك في بلاد الشام جيشًا من المغول عدده يزيد على عشرين ألف جندي، بقيادة أحد أبرز ضباطه واسمه كتبغا نوين النسطوري، وهو قائد عسكري محنك من قبيلة النايمان التركية.

دخل كتبغا بجيشه دمشق في (١٥ ربيع الأول ٦٥٨هـ/ ١ مارس ١٢٦٠م) بعد أن أعطوا الأمان لأهلها؛ ولكنهم خربوها وكان حاكمها الناصر يوسف الأيوبي، وانطلق المغول بعد السيطرة على دمشق جنوبًا في بلاد الشام، حتى استولوا على بيت المقدس وغزة، والكرك والشوبك، بعد أن تحالف حاكمها المغيث عمر مع المغول.

الوضع في مصر

كان يحكم دولة المماليك في ذاك الوقت المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك، وهو صبي صغير يبلغ من العمر ١٥ سنة، قام السلطان المظفر سيف الدين قطز -وهو من المماليك البحرية- بخلعه بعد إقناع بقية أمراء ووجهاء الدولة بأنه فعل ذلك للتجهيز والتوحد ضد الخطر المحدق بالدولة المملوكية بشكل خاص والمسلمين بشكل عام، وقد كان الوضع النفسي للمسلمين سيئًا للغاية، وكان الخوف من التتار مستشريًا في جميع طبقات المجتمع

الإسلامي، وقد أدرك قطز ذلك، فعمل على رفع الروح المعنوية لدى المسلمين، واستمال قطز منافسيه السياسيين في بلاد الشام، وحاول ضمهم إلى صفوفه، وكان ممن انضم معه بيبرس البندقداري، الذي كان له دور كبير في قتال التتار فيما بعد.

رسالة هولاكو لقطز

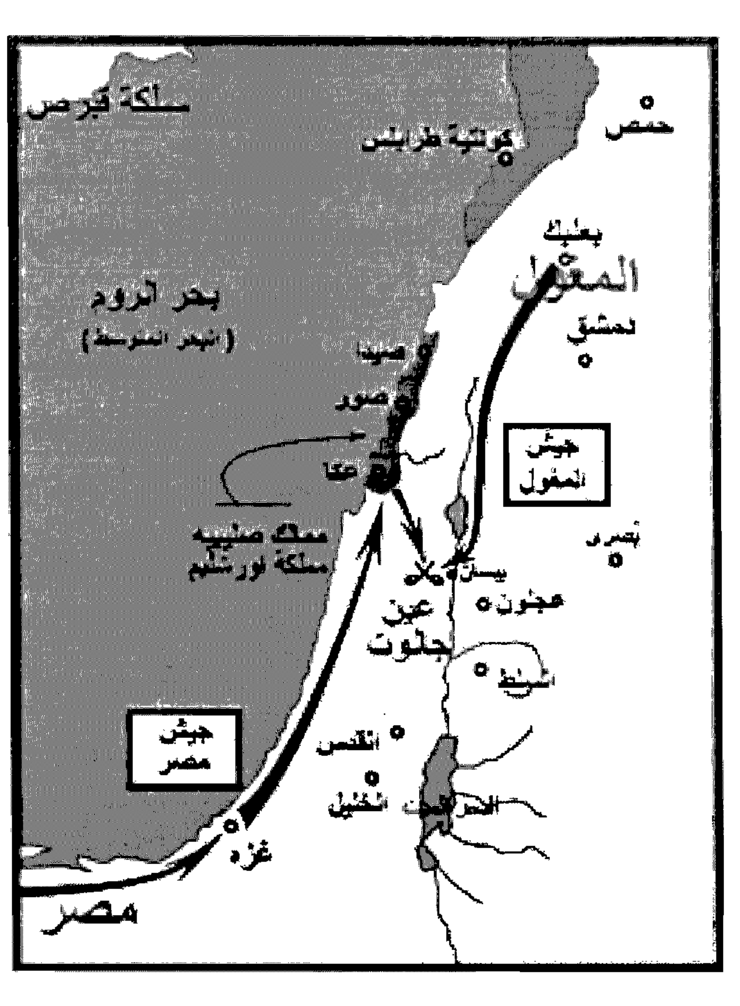
قبل مغادرة هولاكو من بلاد الشام أرسل رسلاً لقطز يحملون كتابًا كان مما فيه: «مِن ملك الملوك شرقًا وغربًا، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلَّطنا على مَنْ حلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبَر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، ويعود عليكم الخطأ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب؛ فأي أرض تأويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال؛ فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع، فمَنْ طلب حربنا ندم، ومَنْ قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذَّر مَنْ أنذر، فلا تُطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرب الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًّا ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذَّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم».

موقف قطز

عقد سيف الدين قطز اجتماعًا مع وجهاء الدولة وعلمائها، كان من بينهم العز بن عبد السلام، وتم الاتفاق على التوجه لقتال التتار؛ إذ لا مجال لمداهنتهم، وكان العز بن عبد السلام قد أمر أمراء ووجهاء الدولة أن يتقدموا بنفائس أملاكهم؛ لدعم مسيرة الجيش الإسلامي، فطلب قطز الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل، ولما وجد منهم هذا التخاذل والتهاون ألقى كلمته المأثورة: «**يا أمراء المسلمين؛ لكم زمان تأكلون أموال**

بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مُطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين». وقد اختلى قطز ببيبرس البندقداري، الذي كان أمير الأمراء، واستشاره في الموضوع، فأشار عليه بقتل الرسل، والذهاب إلى كتبغا متضامنين: فإن انتصرنا أو هزمنا، فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين. فاستصوب قطز هذا الكلام، وقام بقتل رسل المغول؛ لإيصال رغبته في قتالهم، وأنه جادٌّ بذلك، وقد زاد من عزيمة المسلمين وصول رسالة من صارم الدين أزبك بن عبد الله الأشرفي -وقد وقع أسيرًا في يد المغول أثناء غزوهم الشام، ثم قبل الخدمة في صفوفهم- أوضح لهم فيها قلّة عددهم، وشجَّعهم على قتالهم وأن لا يخافوا منهم.

موقف الصليبيين



حاول المغول عبر كتبغا النسطوري التحالف مع مملكة بيت المقدس الصليبية، ولكن بابا الفاتيكان منع وحرَّم التحالف مع المغول، ثم أتت حادثة قتل ابن أخي كتبغا بواسطة الفرسان الصليبيين بصيدا، فاكتسح صيدا عقابًا على ذلك، أما الصليبيون في عكا فقد اتجه قطز إلى مسالمتهم ومهادنتهم، واستأذنهم بعبور جيشه الأراضي التي يحتلونها، وطلب منهم الوقوف على الحياد من

الحرب ما بين المماليك والمغول، وأقسم لهم أنه متى تبعه فارس منهم أو رجل يُريد أذى عسكر المسلمين إلا رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار، إلا أن الصليبيين سلموا بأن المسألة هي مسألة وقت ثم يكتسحهم المغول ويدمرونهم كما دمروا غيرهم؛ فلذلك غضُّوا الطرف على عبور المماليك أراضيهم ولم يتصدَّوْا لهم، وقد بَرَّ الصليبيون بوعدهم فلم يغدروا بالمعسكر الإسلامي من الخلف.

التحرك للحرب

في يوم الاثنين (١٥ شعبان ٦٥٨هـ/ أغسطس ١٢٦٠م) خرج قطز يسبقه بيبرس البندقداري بجميع عسكر مصر ومَن انضمَّ إليهم من عساكر الشام ومن العرب والتركمان، وغيرهم من قلعة الجبل في القاهرة، وواجهت سرية بيبرس طلائع جنود المغول في منطقة قرب غزة، كان قائد المغول في غزة هو بايدر أخو كتبغا، الذي أرسل له كتابًا يُعْلِمه فيه بتحرُّك المسلمين، أخذ بيبرس في مناوشة وقتال المغول حتى انتصر عليهم، واتجه بعدها قطز إلى غزة، ومنها عن طريق الساحل إلى شمال فلسطين، وفي تلك الأثناء اجتمع كتبغا الذي كان في بعلبك بالبقاع مع وجهاء جيشه، فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير بن الزكي، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يعود سيده هولاكو خان، ومنهم مَنْ أشار إليه -اعتمادًا على قوة المغول التي لا تقهر- أن ينطلق لقتالهم، فاختار كتبغا أن يتجه لقتالهم فجمع جيشه وانطلق باتجاه جيش المسلمين، حتى لاقاهم في المكان الذي يُعرف باسم عين جالوت.

المعركة

التقى الفريقان في المكان المعروف باسم عين جالوت في فلسطين في (٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م) -ووقت وصول الجيشين تحديدًا مختلف فيه- قام سيف الدين قطز بتقسيم جيشه فجعل المقدمة بقيادة بيبرس، وبقية الجيش يختبئ بين التلال وفي الوديان المجاورة؛ كقوات دعم أو لتنفيذ هجوم مضاد أو معاكس، وكان قطز قد اجتمع بالأمراء، فحضهم على قتال التتار، وذَكَّرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوَّفهم وقوع مثل ذلك، وحضَّهم على استنقاذ الشام من التتار، ونصرة الإسلام والمسلمين، فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد.

قامت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس بهجوم سريع، ثم انسحبت متظاهرة بانهزام مزيف؛

هدفه سحب خيالة المغول إلى الكمين، في حين كان قطز قد حشد جيشه استعدادًا لهجوم مضاد كاسح، ومعه قوات الخيالة الفرسان الكامنين فوق الوادي.

وانطلت الحيلة على كتبغا، فحمل بكل قواه على مقدمة جيش المسلمين واخترقه، وبدأت المقدمة في التراجع إلى داخل الكمين، وفي تلك الأثناء خرج قطز وبقية مشاة وفرسان الجيش، وعملوا على تطويق ومحاصرة قوات كتبغا؛ حيث كان المماليك ينزلون من فوق تلال الجليل، والمغول يصعدون إليهم، ثم هجم كتبغا بعنف شديد إلى درجة أن مقدمة جيش المسلمين أزيحت جانبًا، فاستبسل كتبغا في القتال، فاندحر جناح ميسرة عسكر المسلمين، وإن ثبت الصدر والميمنة، وعندئذٍ ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته: «**واإسلاماه**». وحمل بنفسه وبمَنْ معه حتى استطاعوا أن يشقوا طريقهم داخل الجيوش المغولية؛ مما أصابها بالاضطراب والتفكك، ولم يمضِ كثير من الوقت حتى هُزم الجيش المغولي، ونصح بعض القادة كتبغا بالفرار، فأبى الهوان والذُّلَّ، وقُتل بعض أصحابه وجرت بينه وبين رجل يدعى العرينان مبارزة، حيث لم يمضِ وقت طويل عليها حتى سقط كتبغا صريعًا على الأرض، وكان انتصارًا كبيرًا للمسلمين، وسجل التاريخ في هذه المعركة تمكّن فرسان الخيالة الثقيلة للمماليك المسلمين من هزيمة نظرائهم المغول بشكل واضح في القتال القريب؛ وذلك لم يُشهد لأحد غيرهم من قبل.

ما بعد المعركة

المماليك:

بعد المعركة قام ولاة المغول في الشام بالهرب، فدخل قطز دمشق في (٢٧ رمضان ٦٥٨هـ)، وبدأ في إعادة الأمن إلى نصابه في جميع المدن الشامية، وتعيين ولاة لها، واستأمن الأشرف صاحب حمص وكان مع التتار، وقد جعله هولاكو خان نائبًا على الشام كله، فأَمَّنه الملك المظفر، ورد إليه حمص، وكذلك ردَّ حماة إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، واتبع الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعانِ المغولَ يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب مَنْ بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان، فتبعهم المسلمون

من دمشق يقتلون فيهم، ويُحرِّرون الأسرى من أيديهم، وكان قطز قد أرسل بيبرس البندقداري ليطرد المغول عن حلب.

كانت النتيجة النهائية لهذه المعركة هي توحيد الشام ومصر تحت حكم سلطان المماليك على مدى ما يزيد على نحو مائتي وسبعين سنة حتى قام العثمانيون بالسيطرة على أراضيهم في عهد سليم الأول.

المغول:

يعد المؤرخون هذه المعركة ونتائجها بداية النهاية للإمبراطورية المغولية؛ إذ لم يُهزموا في معركة قط قبلها، فقد أرسل هولاكو جيشًا إلى بلاد الشام ليستعيدها بقيادة ابنه «يشموط»، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل؛ حيث كان قد أقام حفلاً وكان في حالة ثمالة، فانتهز جند بيبرس هذه الفرصة، فانقضُّوا على معسكرهم وأفنوهم عن كاملهم، وتركوا بعضهم لينقلوا خبر الهزيمة إلى هولاكو، ومعهم رأس ابنه، فما كان من هولاكو إلا أن قتل بقية الناجين من المذبحة.

* * *

فتح عكا

المسير إلى عكا

قرَّر الأشرف صلاح الدين بن قلاوون مواصلة العمل الذي كان أبوه قلاوون قد بدأه ولم يُنهه؛ بسبب وفاته، ألا وهو القضاء على آخر ممالك ومعاقل الصليبيين في الشام، ففي عام (٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م) قضى السلطان قلاوون على كونتية طرابلس الصليبية، وحرَّر طرابلس من قبضة الصليبيين، ثم قرَّر في العام التالي تحرير ثغر عكا، الذي كان من بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية، إلا أنه توفي في شهر نوفمبر قبل أن يبدأ بالمسير، فلما تولَّى الأشرف خليل السلطنة، قرَّر المسير إلى عكا لفتحها وإنهاء الاحتلال الصليبي لها، فأرسل إلى «وليام أوف بوجيه» رئيس طائفة فرسان المعبد (الداوية) بعكا، يُعلمه بأنه قد قرَّر الهجوم عليها، وطلب منه عدم إرسال رسل أو هدايا إليه؛ لأن ذلك لن يُثنيه عن مهاجمة المدينة، إلا أن عكا أرسلت إلى القاهرة وفدًا محملاً بالهدايا يرأسه فيليبماينبوف؛ لاسترجاع الأشرف بالعدول عن خطته وضرورة الحفاظ على المعاهدة، فرفض الأشرف خليل مقابلتهم وقام بحبسهم.

قام الأشرف بتعبئة جيوشه من مصر والشام، التي كانت تضمُّ أعدادًا كبيرة من المتطوعين، وآلات الحصار التي كانت تشمل اثنين وتسعين منجنيقًا، وبعض العرادات الضخمة، التي كانت تحمل أسماءً؛ مثل: «المنصوري»، و«الغاضبة»، وكانت هناك مجانيق أصغر حجمًا، وكان منها ذات قوة تدميرية هائلة؛ مثل: «الثيران السوداء».

احتشدت الجيوش عند قلعة الحصن في جبال الساحل السوري ثم انضم إليها جيش مصر، الذي خرج به الأشرف خليل من القاهرة، وانضمت أربعة جيوش يقودها نواب السلطان؛ جيش دمشق يقوده حسام الدين لاجين، وجيش من حماة يقوده المظفر تقي الدين، وجيش من طرابلس يقوده سيف الدين بلبان، أما الجيش الرابع فقد كان من الكرك، وكان على رأسه الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار، وقد كان في جيش حماة أمير مؤرخ آخر هو أبو الفداء.

كان الصليبيون في عكا يُدركون منذ فترة خطورة موقفهم، وكانوا قد أرسلوا إلى ملوك وأمراء أوربا يطلبون منهم العون والمساعدة، إلا إنه لم يصلهم من أوربا دعم يُذكر، ما عدا ما

قام به ملك إنجلترا إدوارد الأول بإرسال بعض الفرسان، وقد كان الدعم الوحيد الذي كان ذا أهمية هو ما جاء من هنري الثاني ملك قبرص، الذي قام بتحصين أسوار عكا، وأرسل قوة عسكرية على رأسها أخوه «أماليك».

كانت عكا محمية برًّا عن طريق سورين مزدوجين سميكين، واثنا عشر برجًا شيدها الملوك الأوربيون وبعض أثرياء حجاج بيت المقدس، وكانت الأسوار مقسمة على الطوائف والفرق الصليبية؛ بحيث تكون كل طائفة (فرسان المعبد، الاسبتارية، فرسان التيوتون الألمان وغيرهم) مسئولة عن حماية قسمها.

حصار عكا

غادر الأشرف خليل القاهرة في (٣ ربيع الأول ٦٩٠هـ/ ٦ مارس ١٢٩١م)، وبحلول الخامس من أبريل كان جيشه يقف بمواجهة عكا، ثم نصب الأشرف دهليزه الأحمر فوق تله مواجهة لبرج المندوب البابوي على مسافة غير بعيدة من شاطئ البحر، وانتشر جيش مصر من نهاية سور مونتموسارت حتى خليج عكا، واتخذ جيش حماة مواقعه عند البحر وعلى ساحل عكا، وفي اليوم التالي انطلقت عرادات جيش المسلمين ومناجيقه تلقي بالأحجار الضخمة والنيران على أسوار عكا، وراح رماة السهام من المسلمين بإمطار المدافعين من الصليبيين المتمركزين فوق أبهاء الأبراج وأفاريزها بسهامهم، وبعد ثمانية أيام من الدكِّ والمناوشات والاشتباكات تقدم الفرسان والمهندسون المسلمون وقد تغطوا بالدروع في موجات متلاحقة نحو سور عكا، حتى سيطروا على حافته دون أن يتمكن المدافعون الصليبيون من إيقاف موجات زحفهم؛ لكثرة أعدادهم وتلاحق موجاتهم بامتداد الأسوار. واستخدم المسلمون سلاحًا يدويًّا صغيرًا يُطلق نيرانًا كثيفة وسريعة، أطلق عليه الصليبيون اسم «كارابوها»، وقد أحدث هذا السلاح أضرارًا بالغة بالمقاتلين الصليبيين، وصعب عليهم التقدم نحو المهاجمين المسلمين، وتمكن المسلمون من إحداث أضرار وثقوب في الأجزاء الضعيفة من الأسوار.

على الرغم من استمرار وصول الإمدادات والتعزيزات العسكرية من قبرص إلى عكا عن طريق البحر، إلا أن الصليبيين المحاصرين فيها كانوا يدركون أنهم غير قادرين على التصدي لجيش المسلمين، وفي الخامس عشر من أبريل تحت ضوء القمر قامت قوة صليبية من

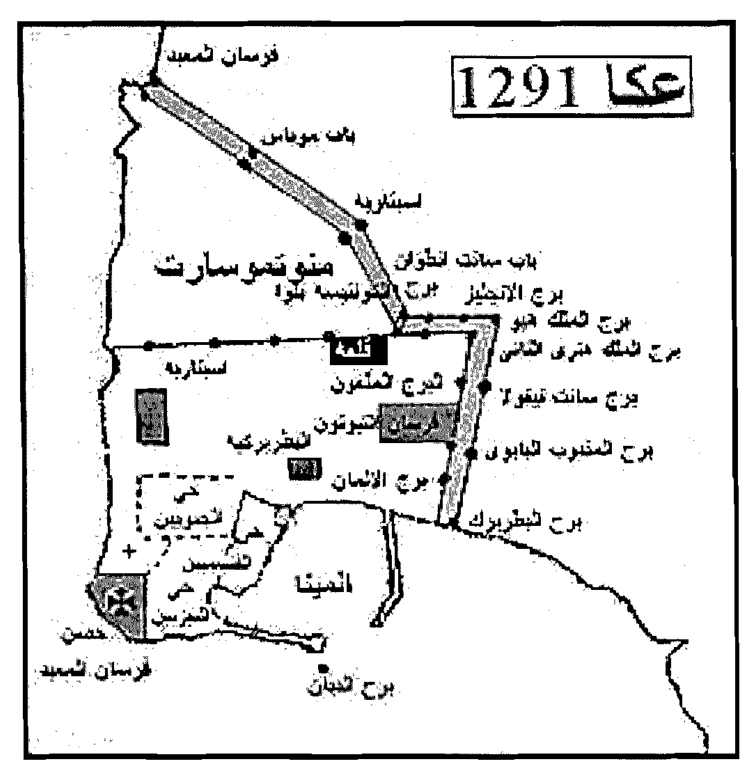
فرسان المعبد بغارة مفاجئة على معسكر جيش حماة، بهدف إحراق إحدى عرادات المسلمين، إلا أنه ولسوء حظهم، تعثرت أرجل خيولهم في حبال خيام المقاتلين المسلمين؛ مما أدَّى إلى انكشاف أمرهم، ومقتل وأسر العديد منهم، وتمكن عدد منهم من الفرار ببعض طبول ودروع المسلمين، وبعد بضعة أيام شن فرسان الاسبتارية غارة أخرى على معسكر للمسلمين، وكانت تلك المرة في الظلام الدامس، ولكن غارتهم انتهت هي الأخرى بالفشل، بعد أن انكشف أمرهم وأشعل المسلمون المشاعل وتصدوا لهم فلاذوا بالفرار بجرحاهم.

في الرابع من شهر مايو استرد الصليبيون المحاصرون بعض الثقة والأمل؛ حينما وصل الملك هنري الثاني من قبرص، وفي صحبته أربعون سفينة محملة بالمقاتلين والعتاد، وقد تولى هنري قيادة الدفاع، ولكن سرعان ما أدرك هنري قلة حيلته في مواجهة الأشرف خليل، فأوفد إليه فارسين من فرسان المعبد لطلب السلام وإعادة الهدنة، وسألهما الأشرف عما إذا كانا قد أحضرا معهما مفاتيح المدينة، فلما أجابا بالنفي، قال لهما: «إن كل ما يهمه هو امتلاك المدينة وإنه لا يهمه مصير سكانها، ولكن تقديرًا منه لشجاعة الملك هنري ولصغر سنه وقدومه لتقديم المساعدة وهو مريض، فإنه على استعداد أن يُبقي على حياة السكان في حال تسليم المدينة له دون قتال». فأجابا بأنهما لم يأتيا إليه للاستسلام، ولكن فقط لطلب رحمته على السكان، وبينما الفارسان يستعطفان الأشرف إذ بعرادة صليبية تُلْقِي من داخل عكا بحجر يسقط بالقرب من دهليز الأشرف، فظنَّ أنها مؤامرة صليبية لقتله، وأراد قتل الفارسين، إلا أن الأمير سنجر الشجاعي شفع فيهما، فسمح الأشرف لهما بالعودة إلى عكا.

فتح عكا

بداية من اليوم الثامن من شهر مايو بدأت أبراج عكا تُصاب بأضرار بالغة؛ نتيجة لدكها المستمر بالمجانيق، وتنقيبها عن طريق المهندسين المسلمين، فانهار برج الملك هيو، وتبعه البرج الإنجليزي، وبرج الكونتيسة دو بلوا، وفي السادس عشر من مايو قام المسلمون بهجوم مُركز على باب القديس أنطوان تصدى له فرسان المعبد والإسبتارية.

وفي فجر يوم الجمعة (١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/ ١٨ مايو ١٢٩١م) سمع صليبيو عكا دقات طبول المسلمين، وبدأ المسلمون بالزحف الشامل على عكا بامتداد الأسوار، تحت هدير دقات الطبول التي حُملت على ثلاثمائة جمل؛ لإنزال الرعب في صدور الصليبيين داخل عكا.



اندفع جنود جيش الأشرف وجيش حماة، وهم يكبرون لمهاجمة تحصينات المدينة تحت قيادة الأمراء المماليك الذين ارتدوا عمائم بيضاء، ووصل المقاتلون إلى البرج الملعون، وأجبروا حاميته على التراجع إلى جهة باب القديس أنطوان، واستماتت فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية في الدفاع عن البرج والباب، ولكن المقاتلين المسلمين الذين كانت نار الإغريق من ضمن أسلحتهم، قد تمكنوا من الاستيلاء عليهما، وراحت قوات جيش المسلمين تتدفق إلى شوارع المدينة، حيث دار قتال عنيف بينهم وبين الصليبيين، وقُتل مقدم فرسان المعبد «وليم أوف بوجوه»، وتبعه «ماثيو أوف كليرمونت»، وجُرح مقدم الاسبتارية «جون فيلييه» جرحًا بالغًا، فحُمل إلى سفينته وبقي فيها.

ورفعت الصناجق الإسلامية على أسوار عكا، وأيقن الملك هنري أنه لا طاقة للصليبيين بجيش الأشرف، وأن عكا ستسقط في يد الأشرف لا محالة، فأبحر عائدًا إلى قبرص ومعه «جون فيلييه» مقدم الاسبتارية وقد تعرض الملك هنري فيما بعد للاتهام بالتخاذل والجُبن.

سادت عكا حالة من الفوضى العارمة والرعب الهائل، واندفع سكانها المذعورين إلى الشواطئ؛ بحثًا عن مراكب تنقلهم بعيدًا عنها، ولا يدري أحد بالتحديد كم منهم قُتل على الأرض، أو كم منهم ابتلعه البحر، وقد تمكن بعض الأثرياء من النبلاء من الفرار من عكا في

مراكب الكاتلاني «روجر فلور» مقدم المرتزقة وفارس المعبد، مقابل أموال دفعوها له، وقد تمكن «روجر دو فلور» من استغلال الموقف فابتز الأثرياء والنبيلات وكون ثروة طائلة.

وقبل أن يحلَّ الليل كانت مدينة عكا قد صارت في يد المسلمين، فيما عدا حصن فرسان المعبد، الذي كان مشيدًا على ساحل البحر في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، وعادت عكا إلى المسلمين بعد حصار دام أربعة وأربعين يومًا، وبعد أن احتلها الصليبيون مائة عام.

بعد أسبوع من فتح عكا تفاوض السلطان خليل مع «بيتر دو سيفري» رئيس حصن فرسان المعبد، وتم الاتفاق على تسليم الحصن مقابل السماح بإبحار كل مَنْ في الحصن إلى قبرص، وبعد وصول رجال السلطان إلى الحصن للإشراف على تدابير الإخلاء تعرضوا لبعض النسوة في الحصن، أو أرادوا أخذهن؛ مما أدى إلى غضب فرسان المعبد، فانقضوا عليهم وقتلوهم، وأزالوا صنجق المسلمين الذي كان قد رُفع على الحصن من قبل، واستعدوا لمواصلة القتال.

وفي الليل تحت جنح الظلام غادر«تيبالد غودين» مقدم فرسان المعبد الجديد الحصن إلى صيدا في صحبة عدد من المقاتلين ومعه أموال الطائفة، وفي اليوم التالي ذهب «بيتر دو سيفري» إلى السلطان خليل ومعه بعض الفرسان للتفاوض من جديد، فقبض الأشرف عليهم، وأعدمهم انتقامًا لرجاله الذين قتلهم الفرسان في الحصن، فلما رأى بقية الفرسان المحاصرين في الحصن ما حدث لبيتر دو سيفري ورفاقه واصلوا القتال، وفي الثامن والعشرين من مايو بعد أن حفر المهندسون نقبًا تحت الحصن، دفع الأشرف بألفي مقاتل للاستيلاء عليه، وبينما هم يشقون طريقهم داخله انهار البناء وهلك كل من كان بداخل الحصن من مدافعين ومهاجمين.

أفراح النصر

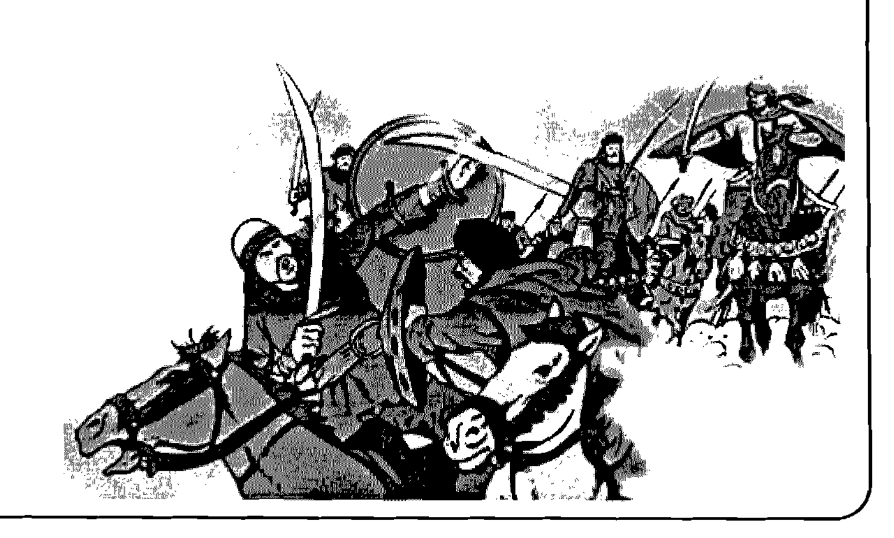
وصلت أنباء انتصار جيش المسلمين وتحريره عكا إلى دمشق والقاهرة ففرح الناس وزينت المدن، ودخل السلطان خليل دمشق ومعه الأسرى الصليبيين مقيدين بالسلاسل وقوبل جيش المسلمين بالاحتفالات ورفع رايات النصر، وزُيِّنت دمشق، وعمَّت البهجة بين الناس، وبعد أن دخل القاهرة وتزينت وفرشت فيه الشقق الحرير تحت حافر فرسه، وبعد أن زار قبر أبيه الملك المنصور، صعد إلى قلعة الجبل وخلع على الأمراء الخِلَع، أمر الأشرف بإطلاق سراح «فيليب ماينبيف» وزملائه الصليبيين الذين كان قد قبض عليهم قبل مسيره إلى عكا، وقام الأشرف بنقل بوابة كنيسة القديس أندرياس من عكا إلى القاهرة؛ لاستخدامها في استكمال مسجده.





الفصل الثامن

أيام لا تنسى في العهد العثماني





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معركة قوصوة

التاريخ	٧٩١هـ/ ١٣٨٩م	
المكان	قوصوة – كوسوفوا	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة العثمانية (مسلمون)	الصرب والبوسنيون والبلغار (مسيحيون)
القادة	السلطان مراد الأول	ملك الصِّرْب لازار جريلينا نوفتش
القوى والحشود	من ٢٧ إلى ٤٠ ألف مقاتل	من ١٢ إلى ٣٠ ألف مقاتل
الخسائر	غير معروفة	خسائر فادحة

معركة قوصوة هي معركة وقعت سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) بين جيش العثمانيين بقيادة السلطان مراد الأول، وبين جيوش الصليبيين المكونة من الجيش الصربي والألباني بقيادة ملك الصِّرْب لازار جريلينا نوفتش، حدثت المعركة في مكان يسمى قوصوة (كوسوفوا حاليًا).

قبل المعركة

بعد أن خضعت معظم بلاد البلغار للعثمانيين، وقضي بالتالي على الطرف البلغاري في الحِلْف الصليبي، أراد السلطان مراد أن يقضي على بقيَّة أعضاء الحلْف، الذين كونوا بمجموعهم تكتُّلاً صليبيًّا ضخْمًا، وعلى الرغم من أن البلغار ليسوا ضمنه، وكان جيشهم يفوق الجيش العثماني كثيرًا، فقد عقدوا العزْم على استِئْصال شأْفَة العثمانيين من أوربا، واتَّجهوا إلى ميدان قوصوة؛ وإدراكًا من السلطان مراد لخطر هذا التحالُف، وتلافِيًا لِمِثْل ما حدث في بلوشنيك، فإن السلطان مراد لم يكل قيادة الجيش العثماني إلى أحد مِن قادته بل قادَهُ بنفسه، وزحف بجيشه لِمُواجَهة قائد التَّكتُّل الصليبي ملك الصِّرْب لازار جريلينا نوفتش، واجتهد السلطان في تعقب هذا الحلف فأدركهم في مكان تجمُّعهم في قوصوة سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م)، ومن الأحداث التي تُذكر أن وزير السلطان مراد الذي كان يحمل معه

مصحفًا، فتحه على غير قصد فوقع نظره على هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فاستبشر بالنصر واستبشر معه المسلمون.

دعاء السلطان مراد قبل اندلاع معركة قوصوة

كان السلطان مراد يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده؛ لذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه، ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية؛ يقول السلطان مراد في مناجاته لربه: «**يا الله؛ يا رحيم؛ يا رب السموات؛ يا مَنْ تتقبل الدعاء لا تخزني، يا رحمن يا رحيم؛ استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة، أرسل السماء علينا مدرارًا، وبدِّد سحب الظلام فنرى عدونا، وما نحن سوى عبيدك المذنبين، إنك الوهاب ونحن فقراؤك، ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع، وأنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدور، ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة، ولا يحملني طلب المغنم، فأنا لا أطمع إلا في رضاك يا الله يا عليم يا موجود في كل الوجود، أفديك روحي فتقبَّل رجائي، ولا تجعل المسلمين يبؤ بهم الخذلان أمام العدو، يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلني سببًا في موتهم، بل اجعلهم المنتصرين، إن روحي أبذلها فداءً لك يا رب إني وددت وما زلت دومًا أبغي الاستشهاد من أجل جند الإسلام، فلا تُرني يا إلهي محنتهم، واسمح لي يا إلهي هذه المرة أن أستشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك...**».

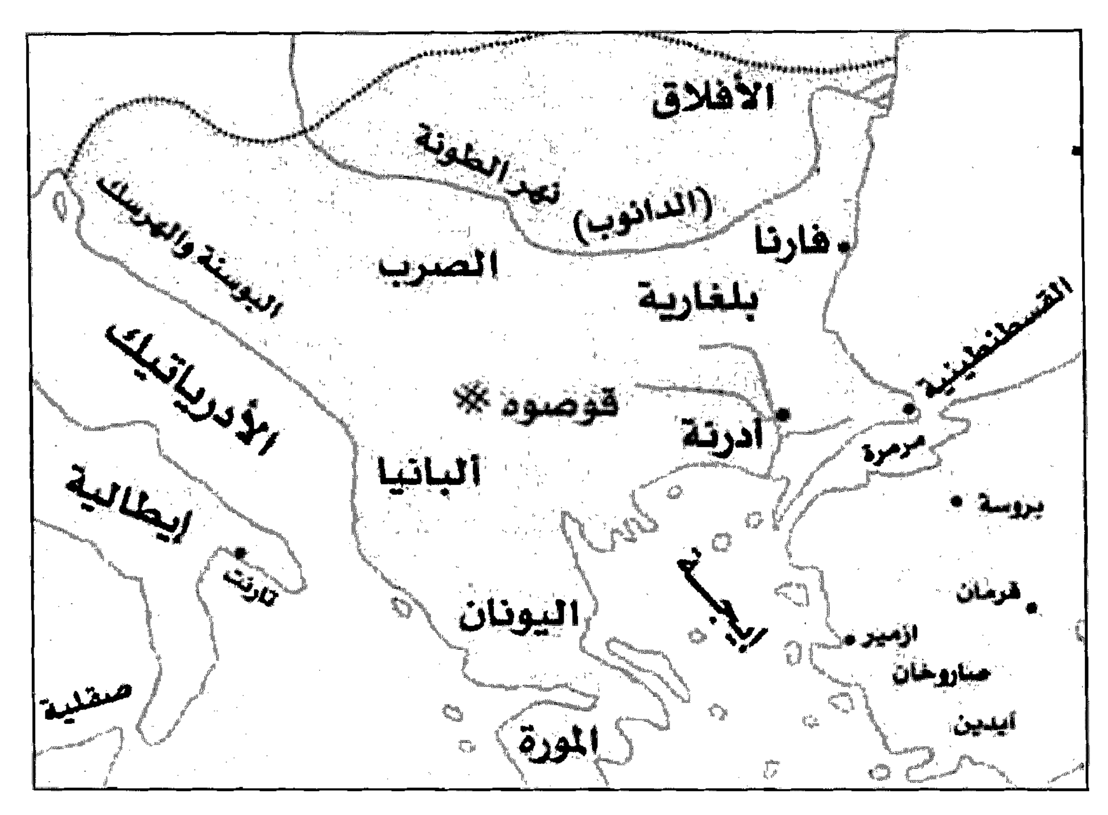
المعركة

دارت المعركة بعنف وحمى الوطيس، وتطايرت الرءوس ونشب قتالٌ مريرٌ بين الجانبين؛ تبادلا فيها النصر أكثر من مرة، واستبسلا في المعركة؛ اعتقادًا منهما أنها الحاسمة والمقررة للمصير، وقد أُصيب العثمانيون بخسائر كبيرة لكن ذلك لم يفت في عضدهم، ومن هنا فلم يكسب أحدٌ منَ الفريقَيْن النصر الحاسم في المراحل الأولى للمعركة.

استشهاد السلطان مراد الأول

وفي مرحلة من مراحل القتال، وبينما كان السلطان مراد يتفَقَّد مواقع القتال، إذا برجل صربي يُدعى ميلوك كوبلوفتش يتقدَّم من السلطان، وكأنه يُريد تقديم شكوى له، فسمح له السلطان بالقرب منه؛ لكنه كان يُخفي في برديه خنجرًا طعن به السلطان مرادًا طعنةً أردتْه

قتيلاً، فتكالب على القاتل الانكشارية فقتلُوه، وكان ذلك في (١٥ شعبان ٧٩١هـ/ ٣٠ يوليو ١٣٨٩م).



وتشير إحدى الروايات أن ميلوك هذا كان أحد الجند الصرب ومن نبلائهم، وأنه أُصيب بجراح في المعركة فاستشاط غضبًا، وأخذ عهدًا على نفسه ليقتلنَّ مرادًا، فانطرح في الميدان كأنه من القتلى، وتحيَّن فرصة مرور السلطان مراد في ميدان القتال لتفقُّد القتلى فقتَلَهُ.

كما تُشير إحدى الروايات الصربية التي يتداولها الصرب فيما بينهم: «أن السلطان مرادًا قد قُتل بخناجر اثني عشر مقاتلاً صربيًّا، كانوا قد أخذوا على أنفسهم عهْدًا بقتلِه متى ما تحيَّنَت الفرصة لهم، وأنهم اتجهوا إليه في خيمته على حين غفلة من حرسه فيما يبدو، فأردوه صريعًا». ويحرص الصِّرب إلى الآن على تداوُل هذه الروايات ضِمْن ملاحِم صربيَّة عن هذه المعركة، واصفة هؤلاء الجُنْد بالأبطال.

المرحلة الحاسمة لهذه المعركة

لم تُؤَثِّر وفاة السلطان مراد في سَيْر المعركة لصالح العثمانيين؛ لأنَّها حدثت بعد أن حقق

العثمانيون انتصارًا حاسِمًا في جَوْلة أخرى لهذه المعركة، وزاد في تلافِي أثر هذه الوفاة على الجيش العثماني تولِّي السلطان بايزيد الأول الحكم بعد استشهاد والده، كما تَوَلَّى قيادة الجيش العثماني في قوصوة؛ وبذلك جنى ثمار النصر الذي دفع أبوه حياته ثَمَنًا له، وكان قائدًا للجناح الأَيْسر، فلَمَّ شعث القوات العثمانية التي شدَّدتْ حملتها على القوَّات الصربية، وكان مما ساعد العثمانيين على استعادَة قوَّتهم، وتنظيم جيشهم انحياز صهر ملك الصرب المدعو فوك برانكوفيتش، ومعه عشرة آلاف فارس، والْتَحَق بالجيش العثماني، وهذا بِدَوْره أدَّى إلى ضعف الجيش الصليبي، وشل حركته، واختلال نظامه؛ فلما حدثت المرحلة الأخيرة الحاسمة في هذه المعركة انْهَزَم الصليبيون هزيمة ساحقة، وأُسر ملك الصرب بعد أن جُرح مع غيره من القادة والأمراء، وانفَضَّ عنهم أتباعهم، فأمر السلطان بايزيد بقتلهم جميعًا، على أن هناك رواية تقول: «إن جرح ملك الصِّرب وبعض القادة وأسرهم كان قَبْل مقتل السلطان مراد، وأن الأمر بقتلهم كان قد صدر منه، وهو في النزع الأخير». وإن لم يتم ذلك إلا على يد ابنه السلطان بايزيد.

الكلمات الأخيرة للسلطان مراد

«لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله، إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية، ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولا تُعَذِّبوا الأسرى، ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة، وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله؛ فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء». لقد استشهد هذا السلطان العظيم بعد أن بلغ من العمر ٦٥ عامًا.

نتائج معركة قوصوة

١- انتشار الإسلام في منطقة البلقان، وتحوَّل عدد كبير من الأشراف القدامى والشيوخ إلى الإسلام بمحض إرادتهم.

٢- اضطرت العديد من الدول الأوربية إلى أن تخطب ودَّ الدولة العثمانية، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم، وقام البعض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم.

٣- امتدت سلطة العثمانيين على أمراء المجر ورومانيا، والمناطق المجاورة للبحر الأدرياتيكي، حتى وصل نفوذهم إلى ألبانيا.

معركة نيكوبوليس

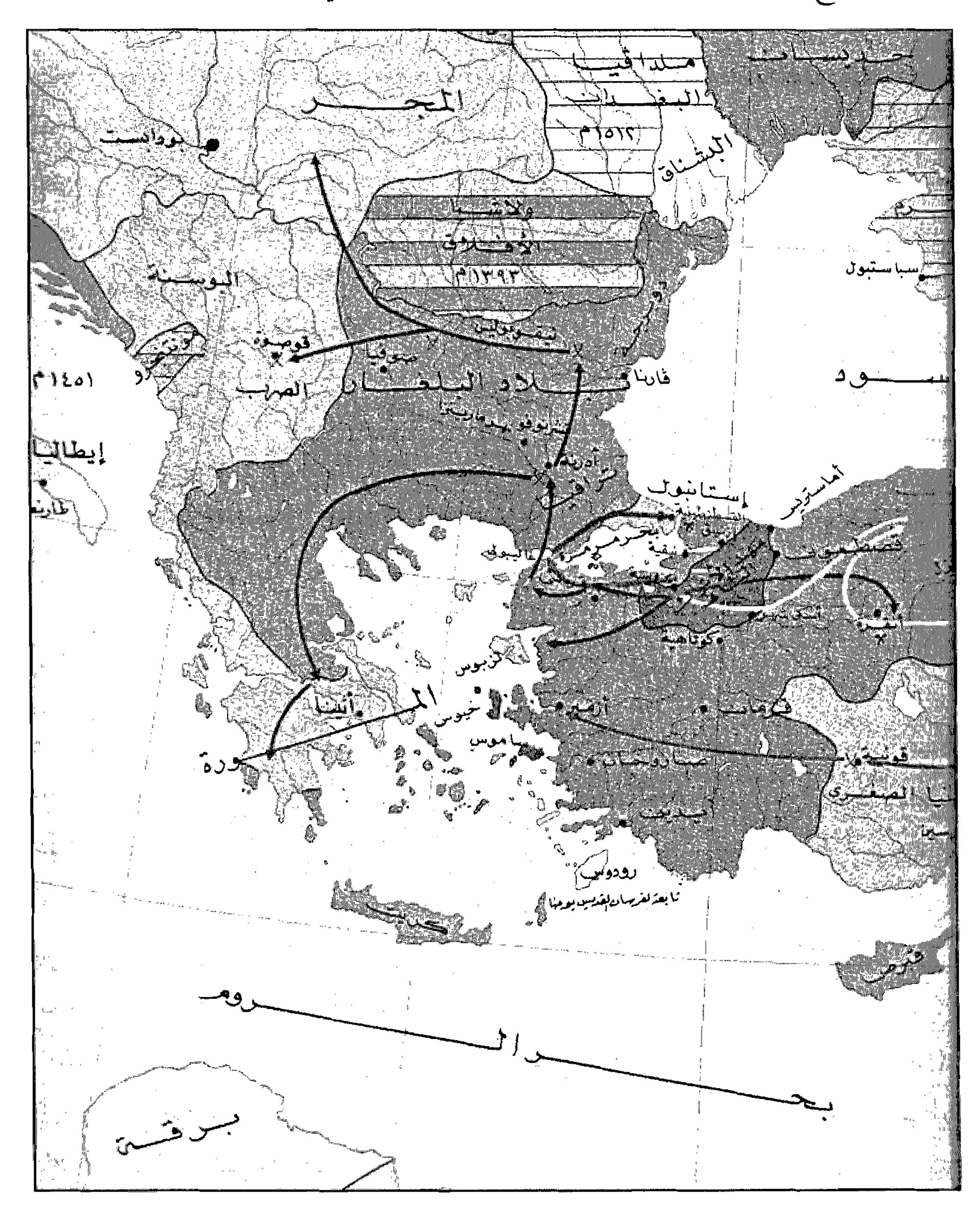
التاريخ	٨٠٠هـ/ ١٣٩٦م	
المكان	مدينة نيكوبوليس في شمال البلقان	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة العثمانية (مسلمون)	تحالف صليبي من المجر، ألمانيا، فرنسا، إنجلترا، أسكتلندا، سويسرا وإيطاليا (مسيحيون)
القادة	السلطان بايزيد الأول	سيجسموند ملك المجر
القوى والحشود	١٠٠ ألف مقاتل	١٢٠ ألف مقاتل
الخسائر	٣٠ ألف شهيد	غير معروفة ولكنها كثيرة جدًّا

هي معركة وقعت سنة (٨٠٠هـ/ ١٣٩٦م) بين العثمانيين بقيادة السلطان بايزيد الأول وبين التحالف الصليبي بقيادة الملك سيجسموند ملك المجر، وكان النصر فيها لصالح المسلمين.

قبل المعركة

كان لسقوط بلغاريا عام (٧٩٧هـ/ ١٣٩٣م) في يد السلطان العثماني بايزيد الأول صدى هائل في أوربا وانتشر الرعب والفزع والخوف في أنحائها، وتحركت القوى المسيحية الصليبية للقضاء على الوجود العثماني في البلقان؛ خاصة ملك المجر سيجسموند والبابا بونيفاس التاسع، فقد اتفق عزم الرجلين على تكوين حلف صليبي جديد؛ لمواجهة الصواعق العثمانية المرسلة، واجتهد سيجسموند في تضخيم حجم هذا الحلف وتدويله، باشتراك أكبر قدر ممكن من الجنسيات المختلفة، وبالفعل جاء الحلف ضخمًا يضم مائة وعشرين ألف مقاتل من مختلف الجنسيات؛ مثل: ألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا، وأسكتلندا، وسويسرا، وإيطاليا، ويقود الحلف سيجسموند ملك المجر، وتحرَّكت الحملة الصليبية الجرارة عام (٨٠٠هـ/ ١٣٩٦م) إلى المجر، ولكن بوادر الوهن والفشل قد ظهرت على الحملة مبكرًا؛ ذلك لأن سيجسموند قائد الحملة كان مغرورًا أحمقًا، لا يستمع لنصيحة أحد من باقي قواد الحملة، وقد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال: «لو انقضت السماء علياءها لأمسكناها بحرابنا». وحدث خلاف شديد على إستراتيجية القتال، فسيجسموند يُؤْثِر الانتظار حتى تأتي القوات

العثمانية، وباقي القواد يرون المبادرة بالهجوم، وبالفعل لم يستمعوا لرأي سيجسموند، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى مدينة نيكوبوليس في شمال البلقان.



المعركة

بدأ الصليبيون في حصار مدينة نيكوبوليس، وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية، ولم يكد الصليبيون يدخلون المدينة حتى ظهر بايزيد ومعه مائة ألف مقاتل، كأنما الأرض قد انشقت عنهم، وكان هذا العدد يقل قليلاً عن التكتل الأوربي الصليبي، ولكنه يتفوق عليهم نظامًا وسلاحًا، وكان ظهور العثمانيين فجأة كفيلاً بإدخال الرعب والهول في قلوب الصليبيين، وبدأت المعركة التي تُعد من أشرس معارك التاريخ، وقاتل المسلمون يومها قتال مَنْ لا يخشى الموت، وأنزل الله على المسلمين الرحمة والسكينة وأيدهم بجند من عنده، فقذف في قلوب الذين كفروا الرعب، وانتهت المعركة بنصر مُبين للمسلمين، ذكرهم بأيام المسلمين الأولى بدر واليرموك، فانهزم معظم النصارى، ولاذوا بالفرار والهرب، وقُتل وأُسر عدد من قادتهم، فقد وقع كثير من أشراف فرنسا -منهم الكونت دي نيفر نفسه- في الأسر، فقبل السلطان بايزيد دفع الفدية، وأطلق سراح الأسرى والكونت دي نيفر، وكان قد ألزم بالقسم على أن لا يعود لمحاربته، وقال له: «إني أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين، فأنت في حلٍّ من الرجوع لمحاربتي، إذ لاشيء أحب إليَّ من محاربة جميع مسيحيي أوربا والانتصار عليهم».

أما سيجسموند ملك المجر فقد ولى هاربًا ومعه رئيس فرسان رودس، ولما بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود، وجدا هناك الأسطول النصراني فوثبا على إحدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوي على شيء.

وعلى الرغم من القضاء على القوات الصليبية، إلا أن السلطان بايزيد انزعج لكثرة قتلى المسلمين في المعركة، التي قُدرت بثلاثين ألف قتيل!! وتذكر السلطان بايزيد ما فعله الصليبيون بالحاميات الإسلامية في بلغاريا والمجر، فأمر السلطان بايزيد بقتل الأسرى كلهم ثلاثة آلاف أسير، وفي رواية أخرى عشرة آلاف، ولم يُبْقِ إلا أكابر وعلية القوم؛ للحصول على فدية ضخمة منهم.

نتائج النصر

تضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوربي بعد معركة نيكوبوليس، وتبخَّر ما كان يُحيط بها من هيبة ورهبة، لقد كان ذلك النصر المظفر له أثر على بايزيد والمجتمع الإسلامي؛ فقام بايزيد ببعث رسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامي؛ يُبشرهم بالانتصار العظيم على النصارى، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحيين؛ باعتبارهم هدايا من

المنتصر، ودليلاً ماديًا على انتصاره، واتخذ بايزيد لقب «سلطان الروم»؛ كدليل على وراثته لدولة السلاجقة، وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول، كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة؛ يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يُسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعًا شرعيًا رسميًا؛ فتزداد هيبته في العالم الإسلامي، وبالطبع وافق السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي على هذا الطلب؛ لأنه يرى بايزيد حليفه الوحيد ضد قوات تيمورلنك، التي كانت تهدد الدولة المملوكية والعثمانية.

بعد الانتصار العظيم الذي حققه العثمانيون في هذه المعركة ثَبَّتَ العثمانيون أقدامهم في البلقان؛ حيث انتشر الخوف والرعب بين الشعوب البلقانية، وخضعت البوسنة وبلغاريا للدولة العثمانية، واستمرَّ الجنود العثمانيون يتتبعون فلول النصارى في ارتدادهم، وعاقب السلطان بايزيد حكام شبه جزيرة المورة، الذين قَدَّموا مساعدة عسكرية للحلف الصليبي

وعقابًا للإمبراطور البيزنطي على موقفه المعادي طلب بايزيد منه أن يُسَلِّم القسطنطينية، وإزاء ذلك استنجد الإمبراطور مانويل بأوربا دون جدوى، والحق أن فتح القسطنطينية كان هدفًا رئيسًا في البرنامج الجهادي للسلطان بايزيد الأول؛ لذلك فقد تحرك على رأس جيوشه وضرب حصارًا محكمًا حول العاصمة البيزنطية القسطنطينية وضغط عليها ضغطًا لا هوادةَ فيه، واستمر الحصار حتى أشرفت المدينة في نهايتها على السقوط، وبينما كانت أوربا تنتظر سقوط العاصمة العتيدة بين يومٍ وآخر؛ إذ ينصرف السلطان عن فتح القسطنطينية؛ لظهور خطر تيمورلنك على الدولة العثمانية.

* * *

معركة فارنا

التاريخ	٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م	
المكان	فارنا – بلغاريا	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الخلافة العثمانية (مسلمون)	حلف صليبي مكون من المجر وألمانيا وبولونيا وصقلية، ونابولي (مسيحيون)
القادة	مراد الثاني	هونياد
القوى والحشود	٤٠ ألف مقاتل	ما بين ٥٠ إلى ٦٠ ألف مقاتل
الخسائر	غير معروفة	١٥ ألف قتيل

معركة فارنا هي معركة وقعت في (٢٨ رجب ٨٤٨هـ/ ١٠ نوفمبر ١٤٤٤م) بالقرب من مدينة فارنا البلغارية بين الدولة العثمانية بقيادة مراد الثاني، وبين حلف صليبي؛ حيث انتصر فيه المسلمون، وقُتل فيه ملك المجر.

قبل المعركة

قضى مراد الثاني عدَّة سنوات يُوَجِّه ضربات موجعة لحركات التمرد في بلاد البلقان، ويعمل على توطيد أركان الحكم العثماني بها، وأجبر ملك الصرب «جورج رنكوفيتش» على دفع جزية سنوية، وأن يُقَدِّم فرقة من جنوده لمساعدة الدولة العثمانية وقت الحرب، ويُزَوِّجه ابنته «مارا»، ويقطع علاقاته مع ملك المجر، كما نجح السلطان مراد الثاني في فتح مدينة سلافيك اليونانية بعد أن حاصرها خمسة عشر يومًا.

كما اشتبك السلطان مراد الثاني مع المجر بسبب ضلوعها في تحريض الصرب على الثورة على الدولة العثمانية، فتحرك إليها في سنة (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)، وأحدث بها خسائر فادحة، وعاد منها بسبعين ألف أسير على ما يقال.

وفي السنة التالية خرج جورج برنكوفتش أمير الصرب على طاعة الدولة العثمانية، فخرج

السلطان مراد في قواته وحاصر مدينة بلجراد عاصمة الصرب لمدة ستة أشهر؛ لكنه لم ينجح في فتحها لبسالة المدافعين عنها، ثم اتجه إلى ترانسلفانيا بالنمسا وأغار عليها، وكان من شأن ذلك أن أعلن البابا أوجينيوس الرابع في سنة (٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م) قيام حملة صليبية ضد الدولة العثمانية، وسرعان ما تَكَوَّن من وراء دعوة البابا حلف من المجر وبولندا والصرب، وبلاد الأفلاق (رومانيا)، وجنود البندقية، وقاد هذا الحلف القائد المجري «يوحنا هونياد»، وكان كاثوليكيًّا متعصبًا؛ هدفه في الحياة إخراج العثمانيين من البلقان ومن أوربا.

وقد نجح هذا القائد المجري في إلحاق هزيمة ساحقة بالعثمانيين سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) بعد أن قَتل منهم عشرين ألفًا بما فيهم قائد الجيش، وألزم مَنْ نجا منهم بالتقهقر إلى خلف نهر الدانوب، ولما بلغ السلطان خبر هذه الهزيمة أرسل جيشًا من ثمانين ألف جندي تحت قيادة شهاب الدين باشا، للأخذ بالثأر، وإعادة الاعتبار للدولة العثمانية، لكنه لقي هزيمة هو الآخر من هونياد المجري في معركة هائلة بالقرب من بلجراد.

وتوالت الهزائم بالسلطان؛ هذا ما جعله يعقد معاهدة للصلح لمدة عشر سنوات مع المجر في (٢٦ ربيع الأول ٨٤٨هـ/ ١٣ يوليو ١٤٤٤م) بمقتضاها تنازل السلطان عن مدن الصرب، واعترف بجورج برانكوفتش أميرًا عليها، وتنازل عن الأفلاق للمجر، وبعد عودة السلطان إلى بلاده فجع بموت ابنه «علاء الدين» أكبر أولاده، فحزن عليه وسئم الحياة فتنازل عن الحكم لابنه محمد، الذي عُرف فيما بعد بمحمد الفاتح، وكان في الرابعة عشر من عمره، وتوجَّه مراد الثاني إلى «مغنيسيا» في آسيا الصغرى ليقضي بقية حياته في عزلة وطمأنينة، ويتفرغ للعبادة والتأمل.

المجر تنقض معاهدة الصلح

أنعش تخلي السلطان مراد الثاني عن الحكم آمال الأوربيين في الانقضاض على الدولة العثمانية، ولم يكن مثل السلطان الصغير محمد الثاني أهلاً لأن يتحمل أعباء مواجهة الحلف الصليبي، وبالفعل نقض ملك المجر المعاهدة بتحريض من مندوب البابا، الذي أقنعه بأنه في حِل من القسم الذي تعهَّد به، وكان ملك المجر قد أقسم بالإنجيل وأقسم مراد الثاني بالقرآن على عدم مخالفتهما شروط معاهدة الصلح، ما داما على قيد الحياة.

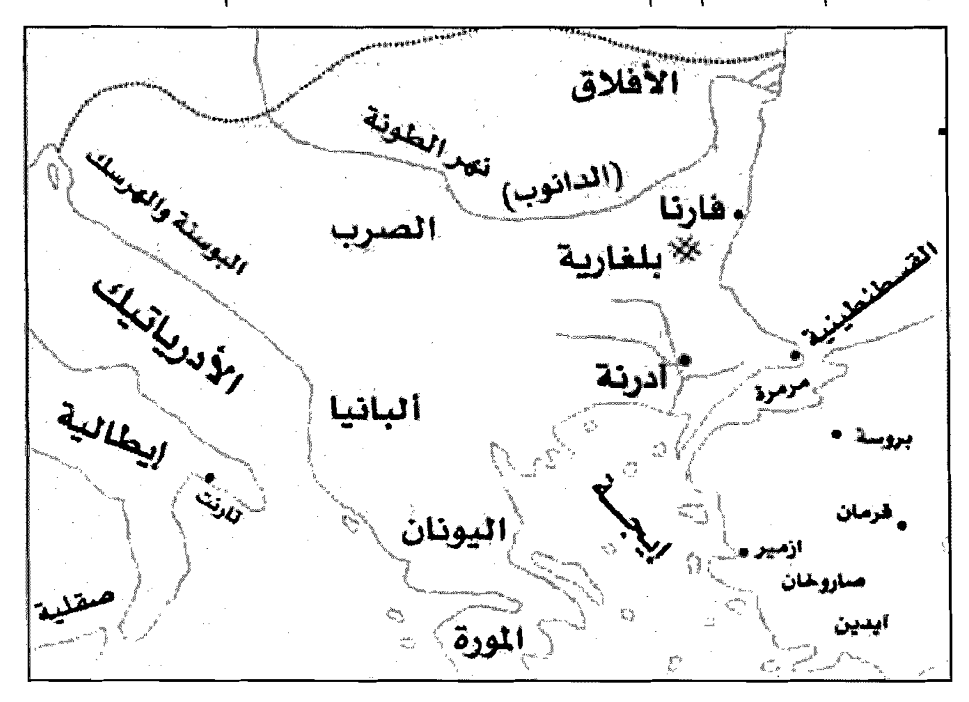
وعلى أنقاض المعاهدة قام حلف صليبي تَكَوَّن من المجر وبولونيا وألمانيا وفرنسا

والبندقية والدولة البيزنطية، وحشدوا جيشًا ضخمًا بقيادة يانوس هونياد والملك المجري لاديسلاس الثالث، والذي اختير قائدًا شرفيًّا للجيش الصليبي.

مراد الثاني يعود إلى السلطنة

تحركت هذه الحشود الضخمة نحو الدولة العثمانية، ونزلت إلى ساحل البحر الأسود، واقتربت من فارنا البلغارية الواقعة على ساحل البحر، وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التحركات كان القلق والفزع يسيطر على كبار القادة في «أدرنة» عاصمة الدولة العثمانية، ولم يكن السلطان الصغير قادرًا على تبديد هذه المخاوف والسيطرة على الموقف، وانتزاع النصر من أعداء الدولة؛ من أجل ذلك اجتمع مجلس شورى السلطنة في أدرنة، واتخذ قرارًا أبلغه إلى السلطان محمد الثاني؛ نصه: «**لا يمكننا مقاومة العدو، إلا إذا اعتلى والدك السلطان مكانك.. أرسلوا إلى والدكم ليجابه العدو، وتمتعوا براحتكم، تعود السلطنة إليكم بعد إتمام هذه المهمة**».

وعلى الفور أرسل محمد الثاني في دعوة أبيه مراد الثاني الموجود في مغنيسيا، غير أن السلطان مراد أراد أن يبعث الثقة في نفس ولده، فبعث إليه قائلاً: «**إن الدفاع عن دولته من واجبات السلطان**». فردَّ عليه ابنه بالعبارات التالية: «**إن كنا نحن السلطان فإننا نأمرك: تعالوا على رأس جيشكم، وإن كنتم أنتم السلطان فتعالوا ودافعوا عن دولتكم**».



اللقاء المرتقب في فارنا

واستطاع مراد أن يتفق مع الأسطول الجنوي لينقل أربعين ألفًا من الجيش العثماني من آسيا إلى أوربا تحت سمع الأسطول الصليبي وبصره في مقابل دينار لكل جندي.

وأسرع السلطان مراد في السير، فوصل فارنا في اليوم نفسه الذي وصل فيه الصليبيون، وفي اليوم التالى نشبت معركة هائلة، وقد وضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤه على رأس رمح؛ ليُشهدهم ويُشهد السماء على غدر العدو، وفي الوقت نفسه ليزيد من حماس جنده.

وبدأت المعركة بهجوم من هونياد قائد الجيش الصليبي على ميمنة الجيش العثماني وجناحه الأيسر، وترك السلطان مراد العدو يتوغل إلى عمق صفوف جيشه، ثم أعطى أمره بالهجوم الكاسح، فنجحت قواته في تطويق العدو، وتمكن السلطان المسلم من قتل الملك المجري النصراني، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على ظهر جواده، فأسرع بعض المجاهدين وجزُّوا رأسه، ورفعوه على رمح مهللين مكبرين وفرحين، وصاح أحد المجاهدين في العدو: «**أيها الكفار هذا رأس ملككم**».

وكان لذلك المنظر أثر شديد على جموع النصارى، فاستحوذ عليهم الفزع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية، بددت شملهم وهزموهم شرَّ هزيمة، وولى النصارى مدبرين يدفع بعضهم بعضًا، ولم يطارد السلطان مراد عدوه واكتفى بهذا الحد من النصر، وإنه لنصر عظيم. فهرب القائد العام هونياد وخَلف وراءه حوالي ١٥ ألف جثة لمقاتليه في أرض المعركة، وتم هذا النصر في (٢٨ رجب ٨٤٨هـ/ ١٠ نوفمبر ١٤٤٤م).

نتيجة المعركة

فرح المسلمون بهذا النصر، ولم يقتصر الاحتفال به على الدولة العثمانية وحدها، بل امتدَّ إلى العالم الإسلامي، وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين، كما كانت هذه المعركة مُقدمة مهمَّة مهَّدت لفتح القسطنطينية بعد تسع سنوات.

* * *

فتح القسطنطينية

انتظر المسلمون أكثر من ثمانية قرون حتى تحققت البشارة النبوية بفتح القسطنطينية، وكان حلمًا غاليًا وأملاً عزيزًا راود القادة والفاتحين، لم يخب جذوتَه مرُّ الأيام وكرُّ السنين، وظلَّ هدفًا مشبوبًا يُثير في النفوس رغبة عارمة في تحقيقه حتى يكون صاحب الفتح هو محل ثناء النبي ﷺ في قوله: «**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ**»(١).

وضع القسطنطينية

تُعَدُّ القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أُسست في عام (٣٣٠م) على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، وكان لها موقع عالمي فريد؛ حتى قيل عنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

وتحتلُّ القسطنطينية موقعًا منيعًا، حبته الطبيعة بأبدع ما تحبو به المدن العظيمة، تحدُّها من الشرق مياه البوسفور، ويحدُّها من الغرب والجنوب بحر مرمرة، ويمتدُّ على طول كل منها سور واحد، أما الجانب الغربي فهو الذي يتصل بالقارة الأوربية، ويحميه سوران طولهما أربعة أميال، يمتدَّان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبي، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا مدعمًا بأبراج يبلغ ارتفاعها ستين قدمًا، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدمًا.

أما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين قدمًا، ومحصن -أيضًا- بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول، وبين السورين فضاء يبلغ عرضه ما بين خمسين وستين قدمًا، وكانت مياه القرن الذهبي -الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي- يُغلق بسلسلة حديدية هائلة، يمتد طرفاها عند مدخله بين سور غلطة وسور القسطنطينية، ويذكر المؤرخون العثمانيون أن عدد المدافعين عن المدينة المحاصرة بلغ أربعين ألف مقاتل.

---

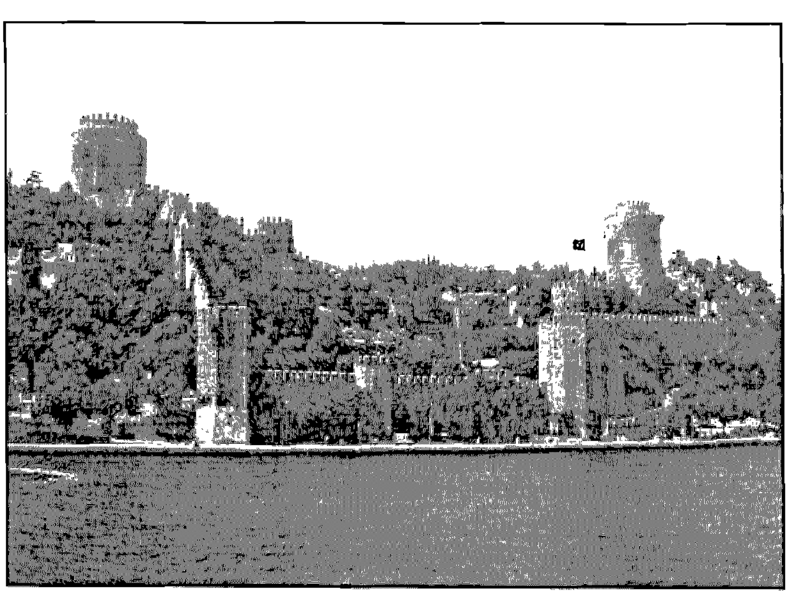
(١) رواه أحمد في مسنده (١٨٩٧٧)، والحاكم في المستدرك (٨٣٠٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والطبراني: المعجم الكبير (١٢١٧)، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦/ ٢٢٩.

إعداد جيش الفتح

أخذ السلطان محمد الثاني، بعد وفاة والده، يستعدُّ لتتميم فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية؛ حتى تكون جميع أملاكه متصلة، لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق، فبذل في بداية الأمر جهودًا عظيمة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية، حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون جندي، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة، التي تؤهلهم للغزو الكبير المنتظر، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادًا معنويًّا قويًّا، وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء النبي محمد ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية، وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بالحديث النبوي: «**لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ**». مما أعطاهم معرفة هذا الحديث قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائمهم.

قلعة روملي حصار

أراد السلطان قبل أن يتعرض لفتح القسطنطينية أن يُحصِّن مضيق البوسفور؛ حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون، وذلك بأن يُقيم قلعة على شاطئ المضيق في أضيق نقطة من الجانب الأوربي منه مقابل القلعة التي أُسِّسَتْ في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، ولَمَّا بلغ إمبراطور الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيرًا يعرض عليه دفع الجزية التي يُقَرِّرها، فرفض الفاتح طلبه



قلعة روملي حصار

وأصرَّ على البناء؛ لما يعلمه من الأهمية العسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ مترًا، وأطلق عليها اسم «قلعة روملي حصار» وأصبحت القلعتان متقابلتين، ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠ مترًا، تتحكمان في عبور السفن من شرقي البوسفور إلى غربه، وتستطيع نيران مدافعهما منع أية سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها؛ مثل مملكة طرابزون، وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة، كما فرض السلطان رسومًا على كل سفينة تمرُّ في مجال المدافع العثمانية المنصوبة في القلعة، وكان أن رفضت إحدى سفن البندقية أن تتوقَّف بعد أن أعطى العثمانيون لها عددًا من الإشارات، فتمَّ إغراقها بطلقة مدفعية واحدة فقط.

صناعة المدافع وبناء الأسطول

اعتنى السلطان عناية خاصَّة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية؛ ومن أهمها المدافع، التي أخذت اهتمامًا خاصًّا منه؛ حيث أحضر مهندسًا مجريًّا يدعى «أوربان»، كان بارعًا في صناعة المدافع، فأحسن استقباله، ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، تمكن هذا المهندس من تصميم وتصنيع العديد من المدافع الضخمة، كان على رأسها «المدفع السلطاني» المشهور، والذي ذُكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان، وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

ويُضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني؛ حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة، وقد ذُكر أن السفن التي أُعدَّت لهذا الأمر بلغت مائة وثمانين سفينة، وقال آخرون: إنها بلغت أكثر من أربعمائة سفينة.

عقد معاهدات

عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين؛ ليتفرَّغ لعدوٍّ واحد، فعقد معاهدة مع إمارة غلطة المجاورة للقسطنطينية من الشرق، ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي، كما عقد معاهدات مع جنوة والبندقية، وهما من الإمارات الأوربية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية؛

حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن المدينة.

موقف الإمبراطور البيزنطي

في هذه الأثناء التي كان السلطان يُعِدُّ العُدَّة فيها للفتح، استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته ليثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليُؤَثِّروا على قراره، ولكن السلطان كان عازمًا على تنفيذ مخططه، ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدَّة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه، عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوربية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية، وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه، ويُظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية؛ حيث خطب في كنيسة آيا صوفيا، ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين؛ مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: «**إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية**».

التحرك إلى القسطنطينية

سعى السلطان في إيجاد سبب لفتح باب الحرب، ولم يلبث أن وجد هذا السبب بتعدي الجنود العثمانيين على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن أنفسهم، فقتل البعض من الفريقين، عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية؛ لكي تكون صالحة لجرِّ المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية في مدة شهرين، حيث تمت حمايتها من الجيش، كما وصلت الجيوش العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس(٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ/ ٦ أبريل ١٤٥٣م)، فجمع الجند، وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي؛ أي ربع مليون، فخطب فيهم خطبة قوية؛ حثَّهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذَكَّرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذَكَرَ لهم الأحاديث النبوية التي

تُبَشِّر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عزٍّ للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

وبهذا ضرب السلطان الحصار على المدينة بجنوده من ناحية البر، وبأسطوله من ناحية البحر، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية مدفعية، وضع بها المدافع الكبيرة التي صنعها «أوربان»، والتي قيل: إنها كانت تقذف كرات من الحجارة الكبيرة إلى مسافة ميل. وفي أثناء الحصار اكتُشف قبر «أبي أيوب الأنصاري»، الذي استشهد حين حاصر القسطنطينية في سنة (٥٢هـ) في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي.

المقاومة البيزنطية

وفي هذا الوقت كان البيزنطيون قد قاموا بسدٍّ مداخل ميناء القسطنطينية بسلاسل حديدية غليظة، حالت بين السفن العثمانية والوصول إلى القرن الذهبي، بل ودمروا كل سفينة حاولت الدنو والاقتراب، إلا أن الأسطول العثماني نجح على الرغم من ذلك في الاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمرة.

استنجد الإمبراطور قسطنطين آخر ملوك الروم بأوربا، فلبَّى طلبه أهالي جنوة، وأرسلوا له إمدادات مكونة من خمس سفن، وكان يقودها القائد الجنوي «جوستنياني»، يُرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوربية متعدِّدة، فأتى هذا القائد بمراكبه، وأراد الدخول إلى ميناء القسطنطينية، فاعترضته السفن العثمانية، ونشبت بينهما معركة هائلة في (١١ ربيع الآخر ٨٥٧هـ/ ٢١ أبريل ١٤٥٣م)، انتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحاصرون السلاسل الحديدية، ثم أعادوها بعد مرور السفن الأوربية كما كانت، حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلاسل الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوربية والبيزنطية، ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية، فارتفعت بهذا الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

نقل الأسطول عبر البر واكتمال الحصار

أخذ السلطان يُفكِّر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار برًّا وبحرًا، فخطر بباله فكرة غريبة، وهو أن ينقل المراكب على البر؛ ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعها، وتمّ هذا الأمر المستغرب بأن مُهِّدت الأرض وسُوِّيت في ساعات قليلة، وأُتِيَ بألواح من الخشب

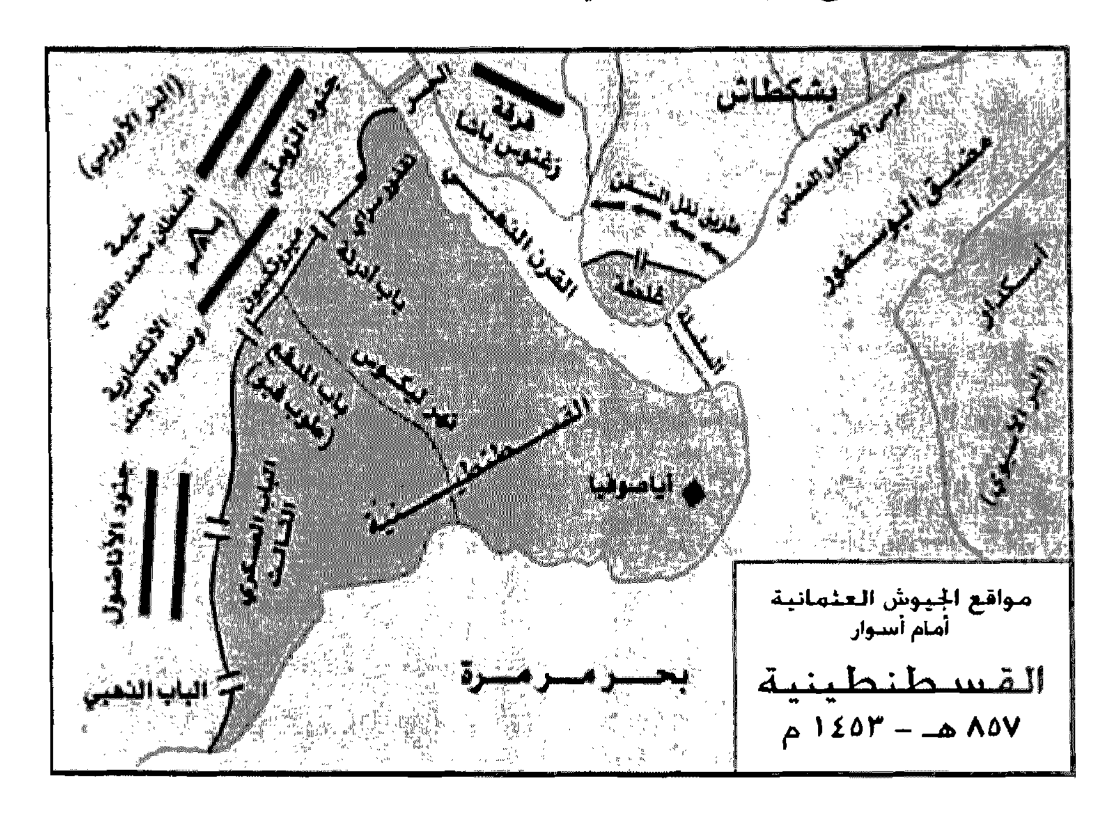
دُهنت بالزيت والشحم، ثم وُضعت على الطريق المُمهَّد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرُّها، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من البيزنطيين.

استيقظ أهل المدينة صباح يوم ٢٢ أبريل وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تُسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يَعُدْ هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، ولقد عَبَّر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل، فقال: «**ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يُحَوِّل الأرض إلى بحار، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر**». أيقن المحاصرون عند هذا أنه لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم؛ بل ازدادوا إقدامًا وصمموا على الدفاع عن مدينتهم حتى الممات، وفي (١٥ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ ٢٤ مايو ١٤٥٣م)، أرسل السلطان محمد إلى الإمبراطور قسطنطين رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه، وكلِّ مَنْ يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاءون بأمان، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرَّضوا لأي أذى، وأعطاهم الخيار بالبقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصرَّ آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فردَّ الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: «**إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية، أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته، فإما أن يحفظ عرشه أو يُدفن تحت أسوارها**». فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال: «**حسنًا عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر**».

فتح القسطنطينية

وفي فجر يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ/ ٢٩ مايو ١٤٥٣م)، كان السلطان العثماني قد أعدَّ أهبته الأخيرة، ووزَّع قواته وحشد زهاء ١٠٠ ألف مقاتل أمام الباب الذهبي، وحشد في الميسرة ٥٠ ألفًا، ورابط السلطان في القلب مع الجند الإنكشارية، واحتشدت في الميناء ٧٠ سفينة وبدأ الهجوم برًّا وبحرًا، واشتد لهيب المعركة وقذائف المدافع يشق دويها عنان

السماء ويُثير الفزع في النفوس، وتكبيرات الجند ترجُّ المكان فيُسمع صداها من أميال بعيدة، والمدافعون عن المدينة يبذلون كل ما يملكون دفاعًا عن المدينة، وما هي إلا ساعة حتى امتلأ الخندق الكبير الذي يقع أمام السور الخارجي بآلاف القتلى.



وفي أثناء هذا الهجوم المحموم جُرح جستنيان في ذراعه وفخذه، وسالت دماؤه بغزارة فانسحب للعلاج رغم توسلات الإمبراطور له بالبقاء؛ لشجاعته ومهارته الفائقة في الدفاع عن المدينة، وضاعف العثمانيون جهدهم، واندفعوا بسلالمهم نحو الأسوار غير مبالين بالموت، الذي يحصدهم حصدًا، حتى وثب جماعة من الإنكشارية إلى أعلى السور، وتبعهم المقاتلون وسهام العدو تنفذ إليهم، ولكن ذلك كان دون جدوى؛ فقد استطاع العثمانيون أن يتدفَّقُوا نحو المدينة، ونجح الأسطول العثماني في رفع السلاسل الحديدية، التي وُضعت في مدخل الخليج، وتدفَّق العثمانيون إلى المدينة التي سادها الذعر، وفرَّ المدافعون عنها من كل ناحية، وما هي إلا ثلاث ساعات من بدء الهجوم حتى كانت المدينة العتيدة تحت أقدام الفاتحين، ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر، فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره،

فأصدر أمره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً.

محمد الفاتح في المدينة

لما دخل محمد الفاتح المدينة ظافرًا ترجَّل عن فرسه، وسجد لله شكرًا على هذا الظفر والنجاح، ثم توجَّه إلى كنيسة آيا صوفيا؛ حيث احتشد فيها الشعب البيزنطي ورهبانه، وعندما اقترب من أبوابها، خاف المسيحيون داخلها خوفًا عظيمًا، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له، فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم، والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة، فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بأن يؤذن في الكنيسة بالصلاة إعلانًا بجعلها مسجدًا، وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية، واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في النظر بالقضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى، ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع، ثم قام بجمع رجال الدين المسيحيين؛ لينتخبوا بطريركًا لهم، فاختاروا «جورجيوس كورتيسيوس سكولاريوس»، وأعطاهم نصف الكنائس الموجودة في المدينة، أما النصف الآخر فجعله جوامع للمسلمين، وبتمام فتح المدينة، نقل السلطان محمد مركز العاصمة إليها، وسُمِّيت «إسلامبول»؛ أي: «تخت الإسلام» أو «مدينة الإسلام»، وسُمِّيَ السلطان محمد بعد هذا الفتح بالسلطان محمد الفاتح.

* * *

معركة موهاكس

التاريخ	٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م	
المكان	موهاج، بارانيا - جنوب بودابست - المجر	
النتيجة	انتصار حاسم للعثمانيين	
المتحاربون	الخلافة العثمانية (مسلمون)	مملكة المجر (مسيحيون)
القادة	سليمان القانوني	الملك فيلاد يسلاف الثاني جاجليو
القوى والحشود	١٠٠ ألف مقاتل	٢٠٠ ألف مقاتل
الخسائر	١٥٠ شهيدًا، وبضعة آلاف من الجرحى	غرق معظم الجنود في مستنقعات وادي موهاكس

هي معركة وقعت سنة (٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م) بين الخلافة العثمانية بقيادة سليمان القانوني، وبين مملكة المجر بقيادة فيلاد يسلاف الثاني جاجليو، وانتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا؛ مما أدَّى إلى ضم المجر إلى الدولة العثمانية.

أسباب المعركة

كان ملك المجر فيلاد يسلاف الثاني جاجليو قد عزم على نقض أي تعهدات كانت قد أُعطيت من قِبل أسلافه لسلاطين الدولة العثمانية، وذهب إلى حدِّ قتل مبعوث السلطان سليمان إليه، وكان المبعوث يُطالب بالجزية السنوية المفروضة على المجر، ولهذا ردَّ سليمان بغزوة كبيرة ضد المجر.

التحرك للمعركة

سار السلطان سليمان من إستانبول في (١١ رجب ٩٣٢هـ/ ٢٣ أبريل ١٥٢٦م) على رأس جيشه، الذي كان مُؤَلَّفًا من نحو مائة ألف جندي، وثلاثمائة مدفع وثمانمائة سفينة، حتى بلغ بلجراد، ثم تمكَّن من عبور نهر الطونة بسهولة ويسر؛ بفضل الجسور الكبيرة التي تمَّ

تشييدها، وبعد أن افتتح الجيش العثماني عدة قلاع حربية على نهر الطونة وصل إلى «وادي موهاكس» بعد ١٢٨ يومًا من خروج الحملة، قاطعًا ألف كيلو متر من السير، وهذا الوادي يقع الآن جنوبي بلاد المجر على مسافة ١٨٥كم شمال غربي بلجراد، و١٧٠كم جنوبي بودابست، وكان في انتظاره الجيش المجري البالغ نحو مائتي ألف جندي، من بينهم ٣٨ ألفًا من الوحدات المساعدة التي جاءت من ألمانيا، ويقود هذه الجموع الجرارة الملك «فيلاد يسلاف الثاني جاجليو».

اللقاء المرتقب

وفي صباح يوم اللقاء (٢١ ذي القعدة ٩٣٢هـ/ ٢٩ أغسطس ١٥٢٦م) دخل السلطان سليمان بين صفوف الجند بعد صلاة الفجر، وخطب فيهم خطبة حماسية بليغة، وحثَّهم على الصبر والثبات، ثم دخل بين صفوف فيلق الصاعقة، وألقى فيهم كلمة حماسية استنهضت الهمم، وشحذت العزائم، وكان مما قاله لهم: «**إن روح رسول الله ﷺ تنظر إليكم**». فلم يتمالك الجند دموعهم التي انهمرت تأثُّرًا مما قاله السلطان.

وفي وقت العصر هجم المجريون على الجيش العثماني، الذي اصطف على ثلاثة صفوف، وكان السلطان ومعه مدافعه الجبارة وجنوده من الإنكشاريين في الصف الثالث، فلما هجم فرسان المجر وكانوا مشهورين بالبسالة والإقدام، أمر السلطان صفوفه الأولى بالتقهقر حتى يندفع المجريون إلى الداخل، حتى إذا وصلوا قريبًا من المدافع، أمر السلطان بإطلاق نيرانها عليهم، فحصدتهم حصدًا، واستمرَّت الحرب ساعة ونصف الساعة في نهايتها أصبح الجيش المجري في ذمة التاريخ، بعد أن غرق معظم جنوده في مستنقعات وادي موهاكس، ومعهم الملك فيلاد يسلاف الثاني جاجليو وسبعة من الأساقفة، وجميع القادة الكبار، ووقع في الأسر خمسة وعشرون ألفًا، في حين كانت خسائر العثمانيين مائة وخمسين شهيدًا، وبضعة آلاف من الجرحى.

نتائج المعركة

كانت معركة موهاكس من المعارك النادرة في التاريخ، حيث هُزم أحد أطرافها على هذا النحو من مصادمَة واحدة، وفي وقت قليل لا يتجاوز ساعتين، وترتب عليها ضياع استقلال المجر بعد ضياع جيشها على هذه الصورة في هزيمة مروعة، وبعد اللقاء بيومين في (٢٣ ذي

القعدة ٩٣٢هـ/ ٣١ أغسطس ١٥٢٦م) قام الجيش العثماني بعمل استعراض أمام السلطان سليمان، وقام بأداء التحية له وتهنئته، وقام القادة بدءًا من الصدر الأعظم بتقبيل يد السلطان.

ثم تحرك الجيش نحو الشمال بمحاذاة ساحل الطونة الغربي، حتى بلغ بودابست عاصمة المجر، فدخلها في (٣ ذي الحجة ٩٣٢هـ/ ١٠ سبتمبر ١٥٢٦م)، وشاءت الأقدار أن يستقبل في هذه المدينة تهاني عيد الأضحى في سراي الملك، وكان قد احتفل بعيد الفطر في بلجراد في أثناء حملته الظافرة.

مكث السلطان في المدينة ثلاثة عشر يومًا يُنَظِّم شئونها، وعَيَّن جان «زابولي» أمير ترانسلفانيا ملكًا على المجر، التي أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وعاد السلطان إلى عاصمة بلاده، بعد أن دخلت المجر في سلطان الدولة العثمانية.

***

معركة ليبانتو

التاريخ	٩٧٩هـ/ ١٥٧١م	
المكان	خليج كورنث بالقرب من باتراس بالبحر الأدرياتيكي	
النتيجة	انتصار التحالف الصليبي	
المتحاربون	الخلافة العثمانية (مسلمون)	تحالف أوربي صليبي (مسيحيون)
القادة	علي باشا	دون جون النمساوي
القوى والحشود	حوالي ٤٠٠ سفينة	٢٩٥ سفينة
الخسائر	حوالي ٢٠ ألف شهيد وأسير، و١٤٢ سفينة بين غارقة وجانحة، وأسر الصليبيون ٦٠ سفينة عثمانية	حوالي ٨ آلاف قتيل، و٢٠ ألف جريح، وأُصيبت غالبية السفن المسيحية

معركة ليبانتو هي معركة بحرية وقعت في (جمادى الأولى ٩٧٩هـ/ أكتوبر ١٥٧١م) بين العثمانيين وبين التحالف الأوربي، وقد انتهت بهزيمة العثمانيين، وقد كانت هذه الهزيمة بداية عصر الضعف للدولة العثمانية.

ما قبل المعركة

كانت الدولة العثمانية عند وفاة السلطان سليمان القانوني قد بلغت أقصى اتساعها، وخاضت الحروب في ميادين الشرق والغرب، وحققت لها هيبة كبيرة في العالم، وبقدر هذه الهيبة الكبيرة كان لها أعداؤها الأقوياء، الذين ينتظرون أي بادرة ضعف حتى ينالوا منها.

وعندما جلس سليم الثاني على العرش خلفًا لوالده سليمان القانوني في (٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م)، ظهر بعض التمرُّد في الدولة؛ فقامت حركة تمرُّد في اليمن سنة (٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م) استطاعت حصر العثمانيين في الشريط الساحلي، ولم يستطع العثمانيون إعادة سيطرتهم على اليمن إلاَّ بعد عامين.

وظهرت في تلك الفترة في أروقة الدولة العثمانية كثير من المشاريع الكبيرة، التي

استهلكت الكثير من الوقت من الدولة، دون أن توضع موضع التنفيذ، أو ربما تعرَّضت للفشل؛ حيث فكرت الدولة في فتح قناة السويس بين البحر الأبيض والبحر الأحمر؛ لإعادة حركة التجارة العالمية من رأس الرجاء الصالح، الذي سيطرت عليه البرتغال إلى طريق التجارة القديم عبر ولاية مصر.

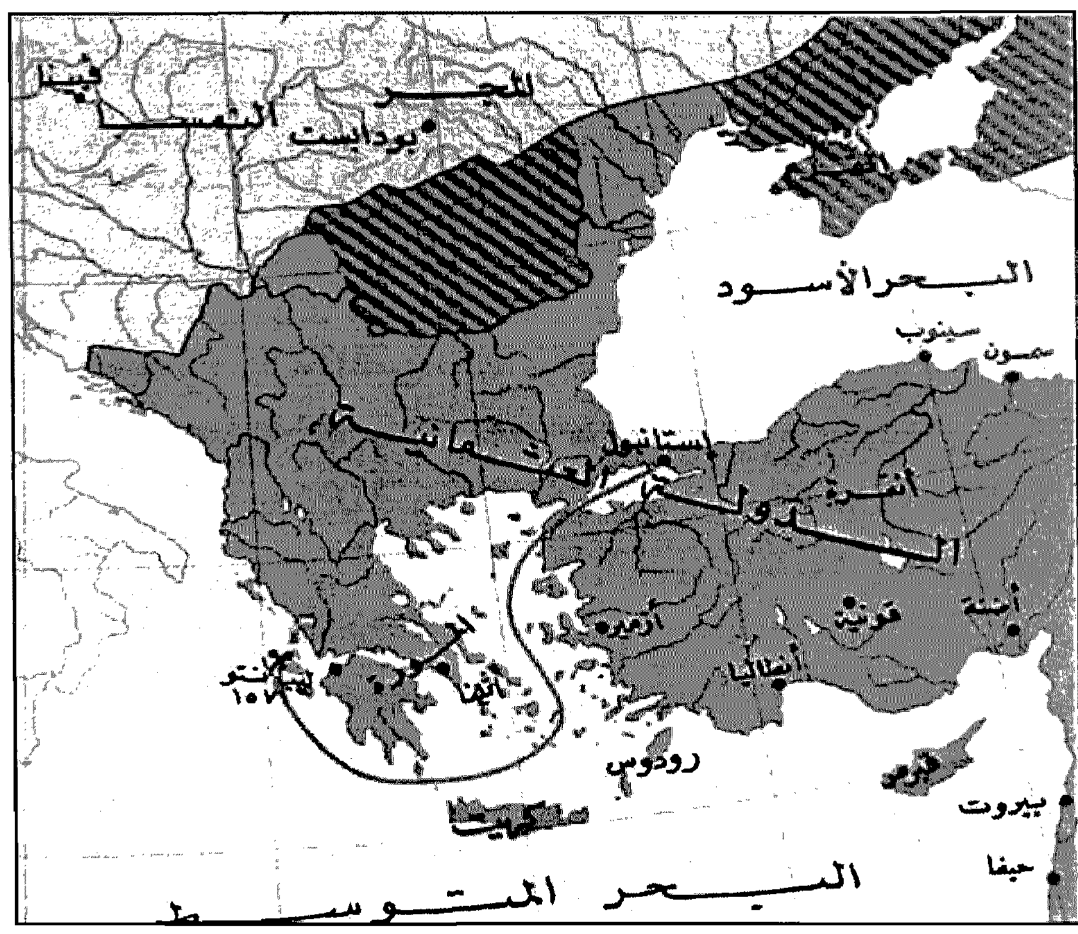
كما شرعت الدولة سنة (٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م) في فتح قناة بين نهري الدون والفولجا، وتأمين المرور بين البحر الأسود وبحر الخزر؛ حيث إن هذه القناة ستربط تركيا بمنطقة تركستان، وتحول دون تهديد الروس والإيرانيين لتركستان؛ لذا قامت الدولة العثمانية بحملة عسكرية على إمارة «أسترخان»، لكن فتح هذه القناة المهمة لم يؤخذ مأخذ الجدِّ؛ نظرًا لوجود مصالح لحكام الأقاليم تتعارض مع شقِّ مثل هذه القناة، وأكَّد ذلك خان القرم بقوله: «عندما تبدأ الجنود العثمانية القدوم إلى الأراضي القبجاقية وشيروان (منطقة أوكرانيا وشمال أذربيجان حاليًا) فسوف لا تبقى هناك قيمة للتتر، ويحتمل أن تذهب القرم (أوكرانيا) من أيدينا».

كان العثمانيون رغم المشاريع الكبيرة التي أعلنوا عنها في تلك الفترة يُرَكِّزون اهتمامهم على فتح جزيرة قبرص، التي كانت عقبة كبيرة في طريق التجارة المنتعشة بين مصر وإستانبول، والتي يُسيطر عليها البنادقة، ويمارسون من خلالها بعض أعمال القرصنة البحرية؛ لذا شرع العثمانيون في فتحها، رغم إدراكهم أن فتح هذه الجزيرة سوف يؤدي إلى قيام تحالف مسيحي قوي ضدهم.

التحالف المسيحي

كانت قبرص تمثِّل أهمية خاصة للعالم المسيحي في صراعه مع الدولة العثمانية، وعندما علمت أوربا بنوايا العثمانيين تجاه قبرص؛ تحرَّك البابا بيوس الخامس وعقد معاهدة اتفاق ضد الدولة العثمانية في (غرة المحرم ٩٧٩هـ/ ٢٥ مايو ١٥٧١م) مع ملك إسبانيا والبندقية وبعض الدويلات المسيحية، وكان هذا الاتفاق المسيحي هو الاتفاق الثالث عشر الذي تعقده أوربا ضد الدولة العثمانية منذ تأسيسها.

ونص الكتاب الذي أرسله البابا بيوس إلى ملك إسبانيا على: «**أنه لا توجد في العالم المسيحي أية دولة مسيحية يمكنها أن تقف بمفردها في مواجهة الدولة العثمانية؛ ولذا فالواجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لكسر الغرور التركي**». وهكذا بدأ يتشكل الائتلاف المسيحي لحرب الدولة العثمانية.



واستطاعت أجهزة المخابرات العثمانية في البندقية وروما أن ترصد هذا الاتفاق، وهو في طور التكوين، وأبلغت به إستانبول، وتحرك الأسطول العثماني للبحث عن الأسطول الصليبي وإبادته، وتحرك الوزير العثماني برتو باشا قائد الأسطول لتنفيذ تلك المهمة.

كان التحالف المسيحي القوي الذي تُغَذِّيه مشاعر الكراهية للدولة العثمانية يتمتع بأسطول على قدر كبير من القوة والخبرة في القتال البحري والكثافة في عدد السفن، ووجود عدد من كبار قادة البحر، فكان الأسطول الصليبي يضم ٢٩٥ سفينة، و٣٠ ألف جندي، و١٦ ألف جداف، و٢٠٨ سفن حربية، وكان القائد العام للأسطول هو دون جون، وهو ابن غير شرعي للإمبراطور الإسباني كارلوس الثاني، وهو من كبار قادة البحر.

أما الأسطول العثماني في البحر المتوسط والبالغ حوالي ٤٠٠ سفينة؛ فقد توزَّعت سفنه عند حلول فصل الخريف على عدد من القواعد، وبقيت حوالي ١٨٤ سفينة تحت قيادة برتو

باشا ومؤذن باشا، وذهبت هذه السفن إلى ميناء «إينبختي» أو ليبانتو وقد كان ميناء عثماني في اليونان على خليجي باتراس-كورنثوس.

وعندما حل فصل الشتاء على السفن التي يقودها برتو باشا، بدأ الضباط في التسرُّب لقضاء الشتاء، بعدما رأوا السفن العثمانية ألقت مراسيها في «إينبختي»؛ ظنًّا منهم أنه لن يوجد قتال في هذا الموسم، ولم تظهر من برتو أو مؤذن قدرة على ضبط الأسطول، إضافة إلى أنه كان يوجد عدد من السفن في حاجة إلى إصلاح، كما أن جدافة الأسطول العثماني كانوا من المسيحيين.

وكانت النقطة المهمة في الأمر أن القائدين برتو باشا ومؤذن علي باشا لم يكونا من القادة البحريين، ولكنهما من قادة الجيش البري، وتوليا مهمة قيادة الأسطول منذ فترة وجيزة، وكان يوجد بعض القادة البحريين في الأسطول العثماني؛ مثل: حسن باشا الذي يبلغ من العمر ٧١ عامًا، وأولوج باشا ويبلغ من العمر ٦٤ عامًا، لكن لم تكن لهما السيطرة على القرار.

الخطأ القاتل

عندما اقترب الأسطول الصليبي من ميناء إينبختي، الذي يرسو فيه الأسطول العثماني، اجتمع برتو باشا مع كبار قادة البحر لبحث الموقف، وانفضَّ هذا الاجتماع دون أن يتوصل القادة إلى خطة لمواجهة المعركة القادمة، التي لا يفصل بينها وبينهم إلا وقت قصير.

وكانت المؤشرات تؤكد أن هناك مَيْلًا لما يطرحه برتو باشا ومؤذن باشا لمواجهة الموقف المتأزم، على اعتبار أنهما المسئولين أمام الدولة العثمانية.

وكان رأي القادة البحريين في الأسطول هو عدم الدخول في هذه المعركة غير المتكافئة، إلا بعد أن تقصف مدافع القلاع العثمانية سفن العدو وتُتلفها، وهو ما يُعطي فرصة كبيرة لسفن الأسطول العثماني لتتبع ومطاردة الأسطول الصليبي، أو بمعنى آخر إنهاك الأسطول الصليبي قبل بدء المعركة، ثم الانقضاض عليه بعد ذلك، ولكن برتو باشا ومؤذن باشا أعلنا أنهما تسلَّما أمرًا بالهجوم على الأسطول الصليبي.

ولما رأى قادة البحر في الأسطول العثماني ذلك نصحوهما بأن يخرجا إلى القتال في البحار المفتوحة؛ لأن ذلك يُعطي الفرصة للسفن العثمانية بأن تقوم بالمناورة وأن تستخدم مدفعيتها

القوية بكفاءة عالية ضد الأسطول الصليبي.

إلا أن برتو وغيره من القادة لم يستمعوا إلى هذه النصائح من أهل الخبرة في القتال البحري، وأعلن أنه سيقاتل بالقرب من الساحل، وقال: «أي كلب هو ذلك الكافر حتى نخافه؟» ثم قال: «إنني لا أخشى على منصبي ولا على رأسي، إن الأوامر الواردة تُشير بالهجوم، لا ضير من نقص خمسة أو عشرة أشخاص من كل سفينة، ألا توجد غيرة على الإسلام؟ ألا يُصان شرف البادشاه؟!»

وكانت هذه المقولة تُعبر عن الجهل بالحقائق، ولا تعبر عن شجاعة أو حماسة دينية؛ إذ إنه من غير المعقول أن تُدار حرب بحرية على الساحل؛ ومن ثَمَّ فقد كانت النتيجة في تلك المعركة محسومة لصالح الأسطول الصليبي قبل أن تبدأ.

المعركة

كانت معركة ليبانتو في (١٧ جمادى الأولى ٩٧٩هـ/ ٧ أكتوبر ١٥٧١م)، وهي تُعَدُّ من أكبر الحروب البحرية في التاريخ في ذلك الوقت، واتسمت بالدموية والعنف الشديد، فاستشهد قائد القوة البحرية مؤذن علي باشا وابنه مع بداية المعركة كما أسر ابنه الثاني، وغرقت سفينة القيادة الخاصة بالأسطول العثماني التي فيها برتو باشا، وتمَّ سحبها إلى الشاطئ بتضحيات كبيرة.

أما القائد البحري العثماني أولوج الذي كان يقود الجناح الأيمن، فإنه لم يخسر أيًّا من سفنه البالغة ٤٢ سفينة، واستطاع أن يقضي على الأسطول المالطي بالكامل، الذي يتكون من ست سفن واغتنم رايته، وعندما رأى أن الهزيمة تقع بالأسطول العثماني، وأن تدخله لإنقاذه هو انتحار مؤكد، رأى أن من الحكمة الابتعاد عن الميدان حفاظًا على بقية الأسطول، والاستعداد لمعركة قادمة.

كانت الخسائر في تلك المعركة ضخمة للغاية لكلا الطرفين؛ فقد خسر العثمانيون ١٤٢ سفينة بين غارقة وجانحة، وأسر الصليبيون ٦٠ سفينة عثمانية، واستولوا كذلك على ١١٧ مدفعًا كبيرًا، و٢٥٦ مدفعًا صغيرًا، كما تم تخليص ٣٠ ألف جداف مسيحي كانوا في الأسر، وسقط من العثمانيين حوالي ٢٠ ألف قتيل وأسير، من بينهم ٣٤٦٠ أسيرًا، ومن بين الأسرى ٣ برتبة لواء بحري، وحاز الصليبيون راية مؤذن باشا الحريرية المطرزة بالذهب، وقد أعادها بابا روما إلى تركيا سنة (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) كتعبير عن الصداقة بين الجانبين.

وقُتل من الصليبيين حوالي ٨ آلاف وسقط ٢٠ ألف جريح، وأصيبت غالبية السفن المسيحية، وكان من بين الأسرى المسيحيين «سيروفانتوس»، الذي فقد ذراعه الأيسر، وعاش أسيرًا في الجزائر وألّف روايته المشهورة «دون كيشوت».

والواقع أن خسائر العثمانيين المعنوية كانت أشد فداحة من خسائرهم المادية؛ حيث كانت تلك المعركة الكبيرة ذات مردود سلبي في علاقة الدولة العثمانية بالأوربيين؛ فزال من نفوس الأوربيين أن الدولة العثمانية دولة لا تقهر، وهو ما شجَّع التحالفات الأوربية ضدها بعد ذلك، وظهرت المراهنات على هزيمتها.

ورغم هذا الانتصار الباهر للأوربيين في معركة ليبانتو البحرية، فإن الأوربيين لم يستطيعوا استغلال هذا الانتصار الكبير من الناحية الإستراتيجية؛ فقد استطاع العثمانيون بعد أقل من عام واحد على هذه الهزيمة بناء أسطول جديد كان أكثر قوة وعددًا من الأسطول الذي تحطم في تلك المعركة، وهو ما أثبت أن الدولة العثمانية ما زالت تحتفظ بقوتها، وأنها تستطيع في الوقت القليل تعويض الفاقد من قوتها وخسائرها؛ نظرًا لما تتمتع به الدولة من موارد وطاقات ضخمة.

هزيمة وعزيمة

ومن المفارقة أنه بينما كانت البندقية وغيرها من الدول التي شاركت في ليبانتو يشربون كئوس الانتصار، وينحتون التماثيل تخليدًا لذلك الانتصار الكبير، كان العثمانيون يعملون على قدم وساق في بناء أسطولهم الجديد؛ حتى إن السلطان العثماني نفسه خصص جزءًا من حديقته الخاصة لإنشاء مصنع لبناء ٨ سفن جديدة، واستطاع العثمانيون خلال الشتاء الذي أعقب ليبانتو أن يشيدوا ما يقرب من ١٥٣ سفينة حربية.

ولم ينسَ العثمانيون تقوية الروح المعنوية لشعبهم، وتذكيرهم بأن خسارة معركة لا تعني بحال من الأحوال خسارة الصراع؛ لذا قام أولوج علي باشا القائد البحري بالدخول إلى إستانبول بعد الهزيمة بحوالي شهرين في أسطول كبير مكون من ٨٧ سفينة، وتمت ترقيته إلى قائد القوات البحرية.

ولم يلبث أولوج علي باشا أن غادر إستانبول مع ٢٤٥ سفينة في (صفر ٩٨٠هـ/ يونيو ١٥٧٢م) للدفاع عن قبرص، بعدما علم أن الأسطول الصليبي يسعى للاستيلاء عليها،

وعندما رأى دون جون الأسطول العثماني متجهًا نحوه، أدرك أنه ليس في استطاعته مقاتلته بعدما تمكن العثمانيون من تعويض خسائرهم، أما البابا بيوس الخامس فكتب إلى الشاه الصفوي وإلى إمام اليمن يطلب منهما التحالف معه لقتال الدولة العثمانية.

ولم تنسَ الدولة العثمانية القصاص لهزيمتها في ليبانتو؛ فعقدت معاهدة مع البندقية في (٧ مارس ١٥٧٣م) نصت على سبعة بنود؛ منها: أن تُسَدِّد البندقية إلى الدولة العثمانية ٣٠٠ ألف ليرة ذهبية كغرامة حرب، وأن تعترف بالسيادة العثمانية على قبرص، وبعد أقل من عام قامت ٢٢٠ سفينة عثمانية بتدمير سواحل إيطاليا الجنوبية.

* * *

معركة وادي المخازن

التاريخ	٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م	
المكان	القصر الكبير - وادي المخازن - المغرب	
النتيجة	انتصار المسلمين	
المتحاربون	الدولة السعدية في المغرب والعثمانيون	البرتغال والإسبان وفلول المتطوعين المسيحيين الأوربيين
القادة	السلطان عبد الملك المعتصم بالله	الملك سبستيان والملك محمد المتوكل
القوى والحشود	٤٠ ألف مقاتل	من ٨٠ إلى ١٢٥ ألف مقاتل
الخسائر	قليلة	مقتل وأسر معظم الجيش

معركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة؛ هي معركة قامت بين المغرب والبرتغال في (٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/ ٤ أغسطس ١٥٧٨م)، كان دافع البرتغاليين لخوض هذه المعركة هو احتلال شواطئ شمال إفريقيا، وسحب البساط تدريجيًّا من تحت أقدام الإسلام في تلك المناطق، وإدخالها إلى حظيرة المسيحية، وإحكام السيطرة على طرق التجارة، خاصة مدخل البحر المتوسط من خلال السيطرة على مضيق جبل طارق، محاولين في ذلك استلهام تجربة حروب الاسترداد التي خاضتها إسبانيا ضد الوجود الإسلامي بها، وكي لا تُعيد الدولة السعدية بمعاونة العثمانيين الكرَّة على الأندلس، وكانت نتيجة هذه المعركة أن انتصر المغرب، وفقدت البرتغال في هذه المعركة ملكها وجيشها، والعديد من رجال دولتها.

سبب المعركة

تربع سبستيان على عرش إمبراطورية البرتغال عام (١٥٥٧م) وكان يمتدُّ نفوذ البرتغال وقتها على سواحل إفريقية وآسيوية وأميركية، فتطلع إلى استخلاص شمال إفريقيا من يد المسلمين، فاتصل بخاله ملك إسبانيا فيليب الثاني؛ يدعوه للمشاركة بحملة صليبية جديدة

على المغرب العربي؛ كي لا تُعيد الدولة السعدية بمعاونة العثمانيين الكرَّة على الأندلس.

أما حُكام المغرب الأشراف السعديون فهم من نسل محمد بن النفس الزكية من آل البيت النبوي، فبعد دولة المرابطين قامت دولة الموحدين ثم دولة بني مرين ثم دولة وطاس، ثم قامت دولة الأشراف السعديين، وكان قيامها عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) على أساس مجاهدة البرتغاليين، واستطاعت هذه الأسرة أن تُحرِّر الكثير من شواطئ المغرب المُطِلَّة على المحيط الأطلسي، والتي احتلَّها الإسبان في عدة حملات؛ حيث استطاعت دخول مراكش عام (٩٣١هـ/ ١٥٢٥م) ثم فاس في عام (٩٦١ هـ/ ١٥٥٤م)، وكان ذلك بداية قيام تلك الدولة التي استمرَّت حتى عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٣م).

وعندما توفي عبد الله الغالب السعدي حاكم الدولة السعدية تولى من بعده ابنه محمد المتوكل الحكم سنة (٩٨١هـ/ ١٥٧٤م)، وقد عُرف عنه القسوة وإتيان المنكرات، فانقلب عليه عماه عبد الملك وأحمد، واستنجدا بالعثمانيين، الذين كانوا موجودين بالجزائر، فقدَّم لهما العثمانيون المساعدات، واستطاعا الانتصار على المتوكل في معركتين عام (٩٨٣هـ/ ١٥٧٦م) واستطاع عبد الملك أن يدخل فاس عاصمة الدولة السعدية وأن يأخذ البيعة لنفسه، وأن يشرع في تأسيس جيش قوي ضم العرب والبربر وعناصر تركية وأندلسية.

ولم تُؤَدِّ خسارة المتوكل أمام عَمَّيْه عبد الملك وأحمد إلى أن يرضى بالأمر الواقع، فرحل إلى الشواطئ البرتغالية، واستنجد بالملك البرتغالي دون سبستيان؛ ليساعده في استرداد ملكه، مقابل أن يمنحه الشواطئ المغربية على المحيط الأطلسي.

التحالف الصليبي

أراد ملك البرتغال الشاب محو ما وصم به عرش البرتغال خلال فترة حكم أبيه من الضعف والتخاذل، كما أراد أن يُعلي شأنه بين ملوك أوربا، فجاءته الفرصة باستنصار المتوكل به على عميه وبني جلدته، مقابل أن يتنازل له عن جميع شواطئ المغرب.

استعان سبستيان بخاله ملك إسبانيا، فوعده أن يمدَّه بالمراكب والعساكر ما يملك به مدينة العرائش؛ لأنه يعتقد أنها تعدل سائر مراسي المغرب، ثم أمده بعشرين ألفًا من عسكر الإسبان، وكان سبستيان قد عبَّأ معه اثني عشر ألفًا من البرتغال، كما أرسل إليه الطليان ثلاثة آلاف، ومثلها من الألمان، وأرسل غيرهم عددًا كثيرًا، وبعث إليه البابا بأربعة آلاف أخرى،

وبألف وخمسمائة من الخيل، واثني عشر مدفعًا، وجمع سبستيان نحو ألف مركب؛ ليحمل هذه الجموع إلى العدوة المغربية، وقد حذَّر ملك إسبانيا ابن أخته عاقبة التوغُّل في أرض المغرب، ولكنه لم يلتفت لذلك.

واستطاعت المخابرات العثمانية في الجزائر أن ترصد هذه الاتصالات بين المتوكل والبرتغاليين، وبعث حسن باشا أمير أمراء الجزائر برسالة مهمة إلى السلطان العثماني بهذا الشأن، وكان العثمانيون في إستانبول على دراية بما يجري في أوربا؛ فقد كانت لديها معلومات عن اتصالات يُجريها بابا روما ودوق فرنسا منذ عدة أشهر؛ بهدف جمع جنود وإعداد سفن وتحميلها بمقاتلين لمساعدة البرتغال في غزوها للشاطئ المغربي، ورصدت المخابرات العثمانية الاتصالات بين ملك البرتغال سبستيان وخاله ملك إسبانيا فيليب الثاني، ولكنها لم تستطع أن تقف على حقيقة الاتفاق الذي جرى بينهما، لكن المعلومات التي رصدتها أكَّدت أن ملك إسبانيا جمع حوالي عشرة آلاف جندي؛ لمساعدة البرتغال في تأديبه ملك فاس عبد الملك السعدي.

أما الدولة السعدية فقد استطاعت سفنها أن تُلقي القبض على سفارة كان قد أرسلها المتوكل إلى البرتغال تطالبهم بالتدخل؛ لمساعدته في استرداد ملكه، مقابل منحهم الشواطئ المغربية على المحيط الأطلسي؛ لذا بدأ السعديون يأخذون أهبتهم للحرب القادمة من حيث الاستعدادات الحربية وحشد الجنود، والاتصال بالعثمانيين الموجودين في الجزائر للحصول على دعمهم في الحرب القادمة ضد البرتغاليين والإسبان.

مسيرة الجيشين إلى وادي المخازن

الجيش البرتغالي: أبحرت السفن الصليبية من ميناء لشبونة باتجاه المغرب يوم (٢٤ يونيو ١٥٧٨م/ ٩٨٦هـ)، وأقامت في لاكوس بضعة أيام، ثم توجَّهت إلى قادس، وأقامت أسبوعًا كاملاً، ثم رست بطنجة، وفيها لقي سبستيان حليفه المتوكل، ثم تابعت السفن سيرها إلى أصيلا، وأقام سبستيان بطنجة يومًا واحدًا، ثم لحق بجيشه.

الجيش المغربي: كانت الصرخة في كل أنحاء المغرب: «**أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله**». فتجمعت الجموع الشعبية، واشتاقت للنصر أو الشهادة، وكتب عبد الملك من مراكش إلى سبستيان: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثَبُتَّ إلى أن نقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن

كلب». فلما بلغه الكتاب غضب، واستشار أصحابه، فأشاروا عليه أن يتقدَّم، ويملك تطاوين والعرائش والقصر، ويجمع ما فيها من العدة، ويتقوى بما فيها من الذخائر، ولكن سبستيان تريَّث رغم إشارة رجاله، وكتب عبد الملك إلى أخيه أحمد أن يخرج بجند فاس وما حولها ويتهيَّأ للقتال، وهكذا سار أهل مراكش وجنوبي المغرب بقيادة عبد الملك، وسار أخوه أحمد بأهل فاس وما حولها، وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

قوى الطرفين

الجيش البرتغالي: ١٢٥ ألف مقاتل، وما يلزمهم من المعدات، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألفًا، وكان منهم ٢٠ ألف إسباني، ٣ آلاف ألماني، ٧ آلاف إيطالي، مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعًا، بقيادة الملك الشاب سبستيان، وكان معهم المتوكل بشرذمة تتراوح ما بين ٣ إلى ٦ آلاف على الأكثر.

الجيش المغربي: بقيادة عبد الملك المعتصم بالله، المغاربة المسلمون ٤٠ ألف مجاهد، يملكون تفوقًا في الخيل، مدافعهم أربعة وثلاثون مدفعًا فقط، لكن معنوياتهم عالية؛ لأنهم غلبوا البرتغاليين من قبل، وانتزعوا منهم ثغورًا، وهم يعلمون أن نتيجة المعركة يتوقف عليها مصير بلادهم، ولأن القوى الشعبية كانت موجودة في المعركة، وكان لها أثرها في شحذ الهمم ورفع المعنويات؛ متمثلة في الشيوخ والعلماء.

قبل المعركة

ظنَّ البرتغاليون أنهم ذاهبون إلى نزهة على الشواطئ المغربية؛ حيث أخذوا الأمر باستخفاف شديد؛ فقد كانوا واثقين من انتصارهم السهل؛ حتى إن الصلبان كانت مُعَدَّة لتعليقها على المساجد المغربية الكبيرة في فاس ومراكش، بل وُضعت تصميمات لتحويل قبلة جامع القرويين الشهير إلى مذبح كنسي، وكانت بعض النساء البرتغاليات من الطبقة الراقية يرغبن في مصاحبة الجيش لمشاهدة المعركة، وكان بعض البرتغاليين يرتدون الثياب المزركشة الباهرة وكأنهم سيحضرون سباقًا أو مهرجانًا.

أبحرت السفن البرتغالية والإسبانية من ميناء لشبونة في (١٩ ربيع الآخر ٩٨٦هـ/ ٢٤ يونيو ١٥٧٨م)، ورست على شاطئ ميناء أصيلة فاحتلته، وفوجئ سباستيان بأن عدد قوات المتوكل قليلة جدًّا.

بني السعديون خطتهم على إطالة الفترة التي تبقاها قوات البرتغاليين في الشاطئ دون التوغل في الأراضي المغربية؛ حتى يتمكَّن السعديون من تجميع قواتهم ودفعها إلى المعركة، ثم بدأ السعديون في محاولة إغراء البرتغال بترك الشواطئ والتوغُّل في الأرض المغربية الصحراوية؛ لإرهاقها وإبعادها عن مراكز تموينها على شاطئ المحيط.

نجحت خطة عبد الملك، واستطاع أن يُغري القوات البرتغالية والإسبانية بالزحف داخل المغرب؛ حتى سهل فسيح يُسمى سهل القصر الكبير، أو سهل وادي المخازن بالقرب من نهر لوكوس، وكان يوجد جسر وحيد على النهر للعبور إلى الوادي.

كانت خطة عبد الملك القتالية أن يجعل القوات البرتغالية تعبر الجسر إلى الوادي، ثم تقوم القوات المغربية بنسف هذا الجسر؛ لقطع طريق العودة على البرتغاليين؛ ومن ثَمَّ يكون النهر في ظهرهم أثناء القتال؛ بحيث لا يجد الجنود البرتغاليون غيره ليهرعوا إليه عند اشتداد القتال؛ وهو ما يعني أنهم سيغرقون به نظرًا لما يحملونه من حديد ودروع.

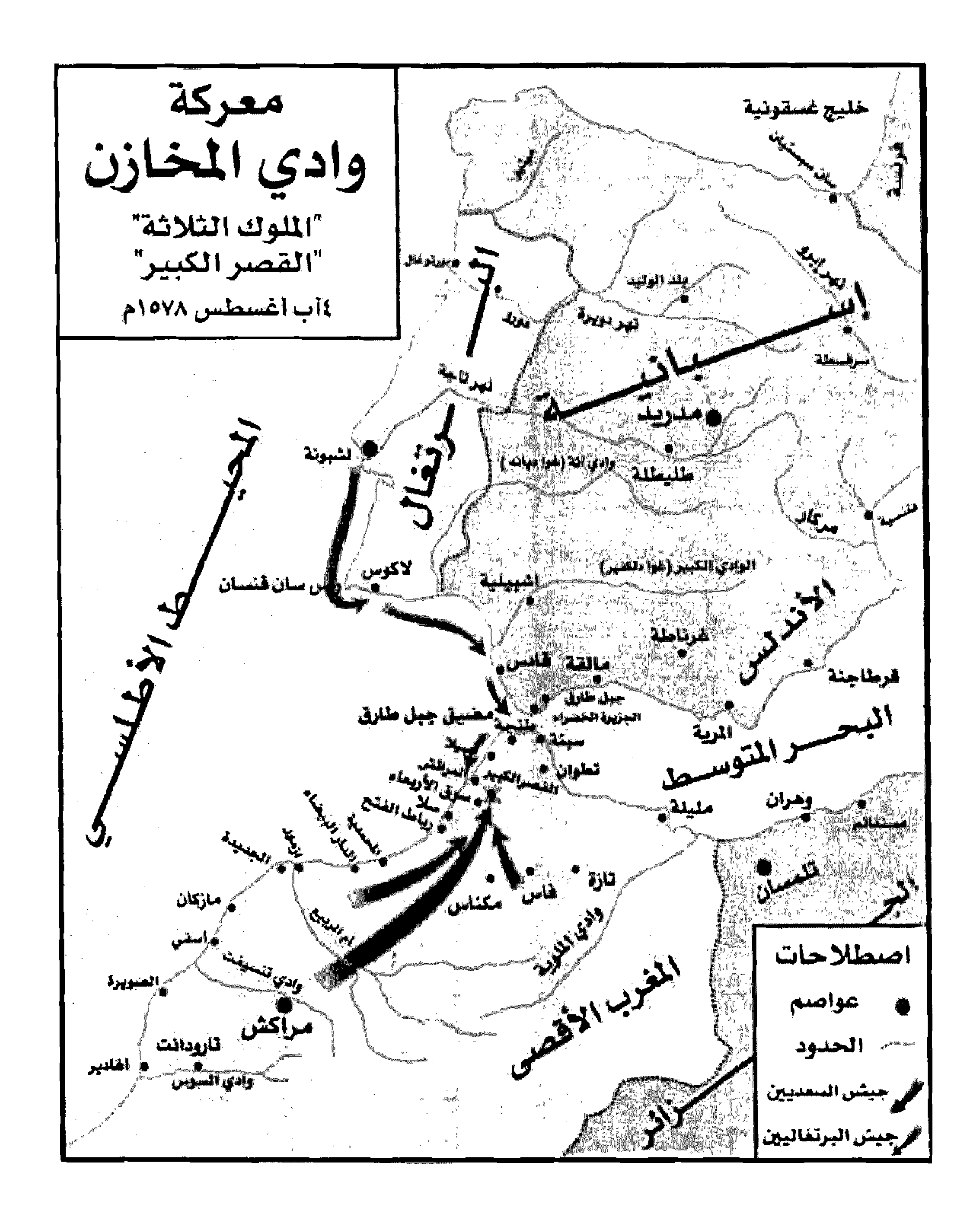
وتواجه الجيشان بالمدفعيتين، وبعدهما الرماة المشاة، وعلى المجنبتين الفرسان، ولدى الجيش المسلم قوى شعبية متطوِّعة إضافة إلى كوكبة احتياطية من الفرسان ستنقض في الوقت المناسب.

المعركة

وفي صباح الاثنين (٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/ ٤ أغسطس ١٥٧٨م) وقف السلطان عبد الملك يُحرِّض الجيش على القتال، ولم يألُ القسيسون والرهبان جهدًا في إثارة حماس الجنود الصليبيين مُذكِّرين أن البابا أحلَّ من الأوزار والخطايا أرواح مَنْ يَلْقَوْنَ حتفهم في هذه الحروب.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين؛ إيذانًا ببدء المعركة، وبرغم تدهور صحة السلطان عبد الملك -الذي رافقه المرض وهو في طريقه من مراكش إلى القصر الكبير- إلا أنه خرج بنفسه ليردَّ الهجوم الأول، ولكن المرض غالبه فغلبه فعاد إلى محفته، وما هي إلا لحظات حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، ومات وهو واضع سبابته على فمه مشيرًا أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا، وكذلك كان فلم يَطَّلِع على وفاته إلا حاجبه وأخوه أحمد المنصور، وصار حاجبه يقول للجند: «**السلطان يأمر فلانًا أن يذهب إلى موضع كذا، وفلانًا**

أن يلزم الراية، وفلانًا يتقدم، وفلانًا يتأخر». وفي رواية: إن المتوكل دس السم لعمه عبد الملك قبل اللقاء ليموت في المعركة فتقع الفتنة في معسكر المغاربة.



ومال أحمد المنصور بمقدمة الجيش على مؤخرة البرتغاليين، وأوقدت النار في بارود البرتغاليين، واتجهت موجة مهاجمة ضدَّ رماتهم -أيضًا- فلم يفق البرتغاليون لقوة الصدمة، فحاول البرتغاليون الهروب من ميدان المعركة والعودة إلى الشاطئ؛ لكنهم وجدوا أن جسر وادي المخازن قد نُسف، فألقى الجنود ومعهم سبستيان بأنفسهم في الماء، فمات هو وكثير من جنوده غرقًا، أما الباقون فقُتلوا في ميدان المعركة أو أسروا، أما البقية التي نجت وركبت البحر فقد استطاع حاكم الجزائر حسن باشا وقائده الريس سنان أن يعترض سفنهم، وأن يأسر غالبيتهم؛ حيث أُسر ٥٠٠ شخص.

وحاول المتوكل الخائن الفرار شمالاً، فوقع غريقًا في نهر وادي المخازن، ووُجدت جثته طافية على الماء، فسلخ وملئ تبنًا، وطيف به في أرجاء المغرب حتى تمزَّق وتفسَّخ.

دامت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، ولم يكن النصر فيها مصادفة، بل لمعنويات عالية، ونفوس شعرت بالمسئولية، ولخطة مدروسة مقرَّرة محكمة.

نتيجة المعركة

تنجلي نتيجة المعركة عن نصر خالد في تاريخ الإسلام، وعن موت ثلاثة ملوك: صليبي مجندل وهو سبستيان ملك أعظم إمبراطورية على الأرض آنذاك، وخائن غريق مسلوخ وهو محمد المتوكل، وشهيد بطل وهو عبد الملك المعتصم بالله فاضت روحه، وسيظلُّ التاريخ يفخر بإخلاصه وحكمته وشجاعته وفروسيته. وفقدت البرتغال في هذه الساعات ملكها وجيشها ورجال دولتها، ولم يبقَ من العائلة المالكة إلا شخص واحد، فاستغلَّ فيليب الثاني ملك إسبانيا الفرصة وضمَّ البرتغال إلى تاجه سنة (٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م)، وورث أحمد المنصور العرش السعدي في فاس، وأرسل سفارة إلى السلطان العثماني يعرض عليه فيها انضمام دولته لدولة الخلافة العثمانية.

أسباب النصر

١- آلام المسلمين من سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، ومحاكم التفتيش جراح لم تندمل بعدُ، وهي ماثلة أمامهم.

٢- الخطة المحكمة المرسومة بدقَّة، واستدراج الخصم لميدان تجول فيه الخيول وتصول،

مع قطع طرق تموينه وإمداده، ثم نسف القنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

٣- المشاركة الفعالة للقوى الشعبية بقيادة العلماء والشيوخ، المليئة بالإيمان وحب الشهادة وبالروح العالية لتحقيق النصر؛ حتى قاتل البعض بالمناجل والعصي.

٤- تفوُّق المدفعية المغربية على مدفعية الجيش البرتغالي مع مهارة في التصويب والدقة.

٥- كانت خيل المسلمين أكثر من خيل النصارى، ويُلائمها السهل الذي انتقاه السلطان للمعركة.

٦- كان سبستيان في جانب ومستشاروه وكبار رجالاته في جانب آخر.

* * *

معركة فيينا

التاريخ	١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م	
المكان	فيينا	
النتيجة	انتصار التحالف الصليبي	
المتحاربون	الخلافة العثمانية (مسلمون)	القوات البولندية والألمانية والنمساوية (مسيحيون)
القادة	الصدر الأعظم قرة مصطفى	ملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي
القوى والحشود	١٢٠ ألف مقاتل	٧٠ ألف مقاتل
الخسائر	حوالي ١٥ ألف شهيد	ما يقرب من ٤٠ ألف قتيل

معركة فيينا وقعت في (٢٠ رمضان ١٠٩٤هـ/ ١٢ سبتمبر ١٦٨٣م)، وبعد محاصرة الإمبراطورية العثمانية فيينا لمدة شهرين، كسرت المعركة أسبقية الإمبراطورية العثمانية في أوربا، حيث انتصرت القوات البولندية والألمانية والنمساوية بقيادة ملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي على الجيش العثماني بقيادة الصدر الأعظم (الوزير) قرة مصطفى قائد القوات العثمانية.

العثمانيون وفيينا

احتلال فيينا كان حلمًا طالما راود السلاطين العثمانيون؛ لما تمثِّله من أهمية إستراتيجية للسيطرة على خطوط التجارة والمواصلات في القلب الأوربي؛ فقد كان العثمانيون في كل مرة يكتفون بالعودة من أسوار فيينا غانمين الأموال، وربما أجزاءً جديدة من أوربا الشرقية أو الوسطى بموجب اتفاقات مع الإمبراطورية النمساوية.

فقد كان الحصار الأول في زمان سليمان القانوني قبلها بقرن ونصف، وذلك بعد أن توغَّل في أوربا بعدما انتصر على المجريين في معركة موهاكس الرهيبة، ودخلت جيوش القانوني عاصمة المجر بودابست في (٣ ذي الحجة ٩٣٢هـ/ ١٠ سبتمبر ١٥٢٦م)؛ لتجعل من

(مجرستان) ولاية عثمانية أخرى وتكرس السيطرة المطلقة للعثمانيين في وسط وشرق أوربا، وقد استطاع العثمانيون احتلال بودابست بجزئيها الشرقي والغربي عام (١٥٤١م).

وفي عام (١٦٨٣م) حاصر الأتراك فيينا للمرة الثانية، ولكن استطاع جراف شتارهمبرج في معركة عند جبل الكالينبرج رد الأتراك، وبعد ذلك استردُّوا بودابست من الدولة العثمانية عام (١٦٨٦م) بعد حوالي ١٤٥ عامًا من السيطرة العثمانية على بودابست.

قبل المعركة

كانت ألمانيا تنافس العثمانيين في مناطق المجر وسلوفاكيا، وكانت فكرة توجيه ضربة قوية لألمانيا لكف يدها عن التدخل في شئون المجر تُسيطر على الصدر الأعظم العثماني، فاستطاع قرة مصطفى باشا إقناع السلطان العثماني محمد الرابع والديوان الهمايوني (مجلس الوزراء) بإعلان الحرب على ألمانيا، فتحرَّك الصدر الأعظم أحمد باشا كوبريللي من أدرنة، ووصل إلى المجر على رأس جيش كبير، يبلغ نحو مائة وعشرين ألف جندي، ومزوَّد بالمدافع والذخائر المحملة على ستين ألف جمل وعشرة آلاف بغل، ودخل سلوفاكيا ضاربًا كل الاستحكامات العسكرية التي كانت في طريقه، متجهًا إلى قلعة نوهزل، وهي تقع شمال غرب بودابست، على الشرق من فيينا بنحو ١١٠ كم، ومن براتسلافيا بنحو ٨٠ كم، وقد حصَّنها الألمان، وجعلوها فائقة الاستحكام؛ لكي تُصبح أقوى قلاع أوربا، وبدأ الجيش العثماني في حصارها في (١٣ محرم ١٠٧٤هـ/ ١٧ أغسطس ١٦٦٣م).

واستمرَّ حصار العثمانيين للقلعة ٣٧ يومًا؛ مما اضطر قائد حامية القلعة إلى طلب الاستسلام، ووافق الصدر الأعظم على ذلك؛ بشرط جلاء الحامية عن القلعة بغير سلاح ولا ذخائر، وقد أحدثت هذه الحملة دويًّا هائلاً في أوربا، وأدخلت الرعب والهلع في قلوب ملوكها عامة، وبعد استسلام هذه القلعة العظيمة استسلمت حوالي ٣٠ قلعة نمساوية للجيش العثماني.

وترتب على هذا الفتح العظيم أن تَقَدَّم أحمد كوبريللي بجيوشه فاتحًا إقليمي مورافيا (في تشيكوسلوفاكيا)، وسيليزيا في وسط أوربا.

مجلس الحرب

جمع الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا مجلس الحرب في جيشه، وأعلن أنه سيستولي على فيينا، وأنه سيُملي شروطه على ألمانيا في هذه المدينة؛ لأن الاستيلاء على «يانق قلعة» المدينة التي

تُعتبر مفتاح فيينا، وتقع على بعد ٨٠كم شرقي فيينا على الضفة الغربية لنهر راب، لا يمكن أن يُخضع ألمانيا ويجعلها تكفَّ يدها عن شئون المجر.

أثار قرار قرة مصطفى باشا حيرة الوزراء وجدلهم، واعترض عليه الوزير إبراهيم باشا، الذي أكَّد أن رغبة السلطان محمد الرابع هي الاستيلاء على «يانق قلعة»، ومناوشة أوربا الوسطى بواسطة كتائب الصاعقة العثمانية، وأن الحملة على فيينا يحتمل أن تكون في العام المقبل، فأجابه قرة مصطفى باشا بأنه من الصعب أن يتجمع جيش مرة ثانية بمثل هذه الكثافة والقوة، وهذا الأمر يقتضي إنزال ضربة قوية قاضية بالألمان، وإلا فإن الحرب ستطول معهم، خاصة أن ألمانيا عقدت صلحًا مع فرنسا، وأصبحت آمنة من الجانب الغربي، وأن الإمبراطور «ليوبولد» اتفق مع الملك البولوني سوبياسكي على استعادة منطقة بادوليا، وأن البندقية لا بُدَّ أن تكون ضمن هذا الاتفاق، وبالتالي ستنضمُّ روسيا وبقية الدول الأوربية لهذا التحالف المسيحي إلى جانب ألمانيا، وهذا يقتضي كسره وتحطيم هذا التحالف الوليد في ذلك العام، وإلا فإن الحرب ستطول إلى أجل غير معلوم.

موقف أوربا

تداعت الدول الأوربية بأقصى سرعة لنجدة فيينا من السقوط، وأعلن بابا روما الحرب الصليبية على العثمانيين، وأمر ملك بولندا سوبياسكي بنقض عهده مع العثمانيين، وأمر -أيضًا- أمراء ساكسونيا وبافاريا الألمان -وهم أقرب أمراء أوربا- بالتوجُّه إلى فيينا بأقصى سرعة ممكنة، فتجمَّعت الجيوش الأوربية من بولندا وألمانيا والنمسا حتى وصل تعدادها إلى ٧٠ ألف جندي، وترك دوق لورين القيادة العامة لملك بولندا يوحنا الثالث سوبياسكي، واكتملت استعداداتهم يوم الجمعة الموافق ١١ سبتمبر، بعدما شعروا أن سقوط فيينا ليس أمامه إلا أيامًا قليلة؛ لذلك أقدم الأوربيون على عبور جسر الدونة، الذي يُسيطر عليه العثمانيون بالقوة مهما كلفهم من خسائر؛ حيث لم يكن بالإمكان إيصال الإمدادات إلى فيينا دون عبور هذا الجسر.

الخيانة

كان قرة مصطفى قد وضع قوة عثمانية كبيرة يقودها أمير القرم مراد كراي حاكم القرم عند جسر الدونة، وهو الطريق الوحيد المُؤَدِّي إلى فيينا من ناحية الغرب؛ ليمنع تقدُّم

الأوربيين، وأمر مراد كراي بنسف الجسر إذا اقتضت الضرورة.

وهنا حدث ما لم يكن في حسبان أحد لا من العثمانيين ولا من الأوربيين، إذ قام مراد كراي بخيانة عظمى للإسلام والمسلمين؛ وذلك بأنه سمح للأوربيين بالعبور من الجسر دون قتال، وذلك بسبب كراهيته وعداوته لقرة مصطفى؛ فقد كان مصطفى باشا يكره مراد كراي، ويعامله معاملة سيئة، أما مراد فكان يعتقد أن فشل مصطفى باشا في فيينا سيُسقطه من السلطة ومن منصب الصدارة، ولم يخطر ببال هذا القائد الخائن أن خسارة العثمانيين أمام فيينا ستُغَيِّر مجرى التاريخ العالمي؛ لذلك قرَّر مراد أن يظلَّ متفرجًا على عبور القوات الأوربية جسر الدونة، ليفكُّوا الحصار المفروض على فيينا، دون أن يُحَرِّك ساكنًا. يضاف إلى ذلك أن هناك وزراء وبكوات في الجيش العثماني كانوا لا يرغبون في أن يكون قرة مصطفى باشا هو فاتح فيينا، التي فشل أمامها السلطان سليمان القانوني.

المعركة الفاصلة

في يوم السبت (٢٠ رمضان ١٠٩٤هـ/ ١٢ سبتمبر ١٦٨٣م) تقابل الجيشان أمام أسوار فيينا، وكان الأوربيون فرحين لعبورهم جسر الدونة دون أن تُسكب منهم قطرة دم واحدة، وكان الجيش العثماني في حالة من الذهول لرؤيتهم الأوربيين أمامهم بعد عبور جسر الدونة، إلا أن مصطفى باشا شنَّ هجومًا مضادًّا بمعظم قواته، وأجزاء من النخبة الإنكشارية لغزو المدينة، وكان القواد الترك ينوون احتلال فيينا قبل وصول يوحنا الثالث سوبياسكي، ولكن الوقت نفد، ففي الوقت الذي أعدَّ المهندسون العسكريون تفجيرًا كبيرًا ونهائيًّا لتوفير إمكانية الوصول إلى المدينة، وبينما أنهى الأتراك على عجل عملهم فقاموا بوضع المتفجرات في نفق، وتم إغلاقه لجعل الانفجار أكثر فعالية، اكتشف النمساويين موضعه في فترة ما بعد الظهر، فدخل أحدهم النفق، وأبطل مفعول التفجير في الوقت المناسب تمامًا.

وحدثت خيانة عظمى أخرى من جانب أوغلو إبراهيم قائد ميمنة الجيش العثماني؛ إذ انسحب من القتال، وكان لهذا الانسحاب الأثر الأكبر في هزيمة العثمانيين، وقد استطاع قرة مصطفى أن ينسحب بصورة منظَّمة من أرض المعركة، وفي طريق العودة قام قرة مصطفى بإعدام كلٍّ من مراد كراي وأوغلو إبراهيم، ولكن لم يشفع ذلك له عند السلطان محمد الرابع الذي أمر بقتله.

قُتل من العثمانيين حوالي ١٥ ألف رجل في القتال، وقُتل من الأوربيين ما يقرب من ٤ آلاف قتيل، وأخذ الجيش العثماني معه أثناء الانسحاب ٨١ ألف أسير، وانتهى الحصار الذي استمرَّ ٥٩ يومًا.

نتائج المعركة

كانت هزيمة العثمانيين عند أسوار فيينا نقطة تحوُّل فاصلة في التاريخ العثماني والأوربي، فقد فَقَدَت الدولة العثمانية بهزيمتها أمام فيينا ديناميكية الهجوم والتوسع في أوربا، وكانت الهزيمة نقطة توقُّف في تاريخ الدولة العثمانية، وتحرَّكت بعد ذلك جيوش التحالف المسيحي لاقتطاع بعض الأجزاء من الأملاك العثمانية في أوربا على مرِّ القرون اللاحقة.

* * *

حملة فريزر ومعركة رشيد

خطة الحملة

كان قد مضى عامان على تولِّي محمد علي حكم مصر، وكان الإنجليز قد انتهزوا الصراع بين الوالي محمد علي والمماليك وضعف الجبهة الداخلية، فاتفقوا مع محمد بك الألفي زعيم المماليك على أن يُؤَيِّد الحملة البريطانية في مقابل أن تكفل إنجلترا للمماليك الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد، لكن الألفي مات قبل وصول هذه الحملة إلى مصر، وكانت الخطة أن يزحف المماليك إلى القاهرة ليحتلوها، والإنجليز يحتلون بأسطولهم مواني مصر، والبداية كانت ثغر رشيد، وبعد ذلك يزحفون إلى الدلتا ويحتلون القاهرة؛ لإسقاط حكم محمد علي، على أن يُعاونهم المماليك عملاؤهم في مصر ولا سيما جبهة الألفي بك.

وجَّهت إنجلترا بقيادة الجنرال فريزر أسطولها، الذي احتوي على ٢٥ سفينة تحمل ما يزيد على ٧ آلاف مقاتل إلى الإسكندرية، حيث نزلت هذه القوة غرب الإسكندرية يوم (٧ محرم ١٢٢٢هـ/ ١٧ مارس ١٨٠٧م)، واستولت على الإسكندرية يوم ٢١ مارس، بسبب خيانة حاكمها التركي آنذاك «أمين أغا»، واستسلام حاميتها.

تلقى الجنرال فريزر تقريرًا من قنصل إنجلترا في رشيد عن حالة مصر وما بها من قوات؛ مما جعله يزحف برًّا إلى رشيد لاحتلالها، واتخاذها قاعدة حربية لقواته، وكلف القائد ويكوب بهذه المهمة العسكرية.

التحرك إلى رشيد

في (١٩ مارس ١٨٠٧م) تحرَّكت حملة فريزر الإنجليزية بحملة قوامها ١٦٠٠ جندي من الإسكندرية سيرًا على الأقدام إلى مدينة رشيد بين كثبان الرمال على شاطئ البحر المتوسط وفي ظلال النخيل وبالقوارب حتى وصلت مدينة رشيد، وكان محافظ إقليم رشيد علي بك السلانكي وقواته ٧٠٠ جندي، فعزم على مقاومة عساكر الإنجليز، واستنفر الشيخ حسن كيريت الأهالي للمقاومة الشعبية، فأمر بإبعاد المراكب المصرية من أمام شاطئ النيل برشيد إلى

البَرِّ الشرقي المقابل عند الجزيرة الخضراء وبرج مغيزل بمركز مطوبس، وكان الهدف منع الأهالي من ركوبها والفرار من المدينة؛ حتى لا يجد رجال حاميته وسيلة للارتداد أو الاستسلام، أو الانسحاب كما فعلت حامية الإسكندرية من قبل، وأصبحت الحامية بين الأهالي متوارية بالمنازل داخل مدينة رشيد، والبحر من ورائهم والعدو أمامهم، ولا مناص إلا القتال والمقاومة، وأمرهم بعدم التحرك أو إطلاق النار إلا بعد صدور إشارة متفق عليها.

معركة رشيد

دخل الإنجليز رشيد ولم يجدوا أي مقاومة، فاعتقدوا أن المدينة ستستسلم كما فعلت حامية الإسكندرية، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين، وأخذوا يستريحون بعد السير في الرمال من الإسكندرية إلى رشيد، وانتشروا في شوارع المدينة والأسواق للعثور على أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها، وما كادوا يستريحون حتى انطلق نداء الآذان بأمر السلانكي من فوق مئذنة سيدي زغلول مردِّدًا: «الله أكبر، حي على الجهاد». فانهالت النيران من الأهالي وأفراد حامية رشيد من نوافذ المنازل وأسطحها، فقُتل الكثير من جنود وضباط الحملة، وهرب مَنْ بقي حيًّا، وبلغ عدد قتلى الإنجليز ١٧٠ قتيلاً، و٢٥٠ جريحًا، و١٢٠ أسيرًا لدي حامية رشيد، بعد ذلك هاجمت حملة فريزر مدينة الحماد، ولكن لقيت هزيمة كبيرة على يد المتطوعين من رشيد والحماد والبحيرة والقاهرة.

معركة رشيد
١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م

الانسحاب من مصر

أرسل فريزر إلى المماليك يطلب منهم المساعدة، ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته بعد أن

تفرقت كلمتهم، ومات زعيمهم محمد الألفي، فرأى فريزر أنه من العبث مواصلة القتال، فتحصن بالإسكندرية، وأرسل إلى محمد علي يطلب الصلح في مقابل أن يجلو عن الإسكندرية، في تلك الأثناء كان محمد علي يستعدُّ للزحف على الإسكندرية، وسار محمد علي بجيشه من معسكره في إمبابة متوجهًا إلى الرحمانية، ومنها إلى دمنهور في (١٢ أغسطس ١٨٠٧م)، وهناك التقى بالجنرال شربروك، الذي فوَّضه فريزر لإبرام الصلح بين الطرفين المصري والبريطاني، وبعد مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة دمنهور في (١٤ سبتمبر ١٨٠٧م)، التي بمقتضاها أجليت القوات البريطانية عن الإسكندرية مقابل استرداد أسراهم وجرحاهم، وتمَّ رحيلهم في (١٦ رجب ١٢٢٢هـ/ ١٩ سبتمبر ١٨٠٧م)، حيث أقلعت السفن البريطانية بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية، وضُمَّت الإسكندرية إلى محمد علي بفرمان سلطاني بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان العثماني، وكان حاكمها يُعَيَّن من قِبَلِه.

* * *

معركة نافارين

التاريخ	١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م	
المكان	خليج نافارين - اليونان	
النتيجة	انتصار بريطانيا وفرنسا وروسيا	
المتحاربون	الدولة العثمانية ومصر وتونس والجزائر (مسلمون)	بريطانيا وفرنسا وروسيا (مسيحيون)
القادة	إبراهيم باشا	إدورد كدرنكتون
القوى والحشود	٣ بارجات، ١٧ فرقاطة، ٣٠ فريقطة، ٢٨ بريجية، ٥ سكونات، ٥ أو ٦ حراقات	١٠ بارجات، ١٠ فرقاطات، ٤ بريجيات، سكونتان، زورق خفيف
الخسائر	٤١٠٩ ما بين قتيل وجريح	١٨١ قتيلاً، ٤٨٠ جريحًا؛ بإجمالي: ٦٦١

كانت معركة نافارين (٢٩ ربيع الأول ١٢٤٣هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م) من أعنف المعارك البحرية بين الأساطيل العثمانية والجزائرية والمصرية -التي كانت تُشَكِّل الدرع الواقي للأُمَّة الإسلامية- وبين الأساطيل البريطانية والفرنسية والروسية من جهة أخرى، وقعت في خليج نافارين جنوب غرب اليونان، انهزم العثمانيون هزيمة كبيرة، وقد كانت بداية الانهيار البحري للإمبراطورية العثمانية، وسقوط الجزائر سنة (١٨٣٠م) تحت الاستعمار الفرنسي، ونقطة فاصلة نحو استقلال اليونان من الحكم العثماني.

الثورة اليونانية

كانت اليونان جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وبدأت بذور الثورة اليونانية بالظهور من خلال نشاطات أخوية الصداقة؛ وهي منظمة وطنية سرية تأسست عام (١٨١٤م) في أوديسا الواقعة اليوم في أوكرانيا، وفي تلك الفترة كانت رغبة الاستقلال متفشية بين اليونانيين بجميع طبقاتهم وفئاتهم، بعد أن تمَّ شحن مشاعرهم الوطنية لفترة طويلة من الزمن؛ بفضل جهود

الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، التي كانت تعمل على تعزيز روح القومية اليونانية في نفوس أتباعها، وقد كانت الكنيسة حينها الحصن الأخير للغة اليونانية، والمسئول الإداري عن اليونانيين أمام السلطان العثماني.

ومن العوامل التي ساعدت -أيضًا- على اندلاع الثورة، النمو الاقتصادي في اليونان، والتأثر بالأفكار الثورية الغربية، التي ألهبت في نفوس اليونانيين الغيرة على قوميتهم ووطنهم.

بدأت حدَّة المعارك تتصاعد شيئًا فشيئًا، متسببة بمجازر من قبل الطرفين، ففي جزيرة شيوس قتل العثمانيون ٢٥ ألف يوناني، بينما قتل اليونانيون ١٥ ألفًا من الأربعين ألف تركي المقيمين في شبه جزيرة بيلوبونيس، وسرعان ما تدخَّل إبراهيم باشا -أيضًا- لإخماد الثورة.

رأت روسيا في الثورة اليونانية فرصة لتمزيق الدولة العثمانية، التي تناصبها العداء، ورأى ألكسندر الأول قيصر روسيا أن مساندة اليونانيين ستخدم المصالح الروسية؛ حيث ستُظهر الروس حماة للمذهب الأرثوذكسي في العالم، وهو ما سيقود إلى تأليب كثير من العناصر الأرثوذكسية داخل الدولة العثمانية، مما سيضعفها عن مواجهة روسيا في أي حرب مقبلة، خاصة أن الناطقين باللغة اليونانية ضمن الدولة العثمانية كانوا يتمركزون في المورة وكريت وقبرص، وكان هؤلاء يُشَكِّلون ما يقرب من نصف سكان تلك المناطق؛ أي أنهم يتفوقون على العنصر التركي الموجود بين ظهرانيهم؛ مما يجعل أي ثورة ذات قوة وعنفوان ودموية في الوقت ذاته.

تحرك الأسطول المصري والمعركة

قام محمد علي بدوره في القضاء على الدعوة السلفية في الجزيرة، وحان الوقت لإضعافه وتقليم أظافره؛ ولذلك دفعت الدول الأوربية السلطان محمود الثاني بالاستعانة بجيشه لإخماده فتنة التمرد في اليونان، وشجعت الدول الأوربية محمد علي على قبوله المهمة، وأوهمته بأنه سيكون أكبر زعيم في المنطقة، ويمكن أن يُؤَدِّيَ به الأمر ليكون خليفة المسلمين بعد أن يُضعف سلطان الخلافة، ووافق محمد علي باشا على عرض السلطان محمود الثاني بشرط أن يحصل على ولاية كل من كريت واليونان. وبمجرد تلقِّيه خبر القبول لهذا الشرط أمر ابنه إبراهيم باشا بتولي مسألة الحرب في اليونان، وتحرَّكت جيوش مصر بقيادة إبراهيم باشا ومستشاره سليمان باشا الفرنساوي بحرًا من الإسكندرية عام (١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م) باتجاه

كريت وشبه جزيرة المورة مركز التمرد الصليبي، وفتح نافرين عام (١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م)، ودخل أثينا عام (١٢٤١هـ/ ١٨٢٣م) رغم معاونة القائد الإنجليزي البحري اللورد كوشران الصليبيين اليونان؛ وبعد أن أجهضت القوة الإسلامية التمرُّد اليوناني الصليبي أبانت الصليبية الأوربية عن وجهها الكالح، فأعلنت بسط حمايتها على بلاد اليونان؛ بل إن روسيا كانت تُدعم التمرد اليوناني علنًا، ورأت أن الفرصة سانحة لدخول إستانبول وإعادتها إلى عهدها السابق مركزًا للصليبية الأرثوذكسية، ووقف الإنجليز إلى جانب روسيا.

اتفقت روسيا وفرنسا وإنجلترا على إجبار الدولة العثمانية إعطاء اليونان استقلالها، بمعنى فصلها عن جسد الدولة الأم (الدولة العثمانية) فرفض السلطان العثماني، فأمرت الدول الأوربية أساطيلها بالتوجه إلى سواحل اليونان، وطلبت من إبراهيم باشا التوقف عن القتال، فكان جوابه طبيعيًّا بأنه يتلقَّى الأوامر من خليفة المسلمين أو من أبيه لا من غيرهما، ومع ذلك توقَّف القتال عشرين يومًا؛ ريثما تصل إليه التعليمات.

ودخلت الجيوش الأوربية المتحالفة إلى مرفأ نافارين في (٢٩ ربيع الأول ١٢٤٣هـ/ ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م) دون أن تُرفع أعلام الحرب؛ لذا فقد كان دخولها دخول خديعة، وقامت هذه الأساطيل بمباغتة الأسطول العثماني المصري الجزائري المشترك، وغدرت به، وأطلقت عليه النيران فهزمته هزيمة نكراء، وأغرقت السفن، وهي مفاجأة لم يكن يتوقعها القادة، وبالتالي لم يعمل لها أي حساب.

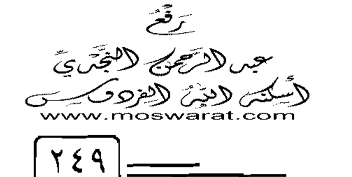
نتائج المعركة

تُعَدُّ معركة نافارين واحدة من المعارك البحرية التي غَيَّرت مجرى التاريخ، وغَيَّرت مواقع الكثير من القوى المعروفة آنذاك، وكانت خلاصتها هو الانهزام الذي وقع لأكبر الأساطيل البحرية، وهو تحطُّم الأسطول العثماني، وأصبحت القوات العثمانية في موضع الضعف والانهزام، بعد أن كانت في موقع القوة والنصر، واستقبلت الشعوب الأوربية هذه الحادثة بمظاهر الفرح والسرور، وهكذا تحقَّق مخطط الأعداء؛ فأضعفوا قوات محمد علي، وفصلوا جزءًا من ديار الإسلام عن الدولة العثمانية؛ لقد قامت فرنسا وإنجلترا بعمل مزدوج؛ حيث شجَّعُوا السلطان على إرسال جيش للقضاء على التمرُّد في بلاد اليونان، ثم قضوا على ذلك الجيش.

ولما رأى محمد علي باشا والي مصر ما حلَّ بأسطوله، أمر ولده بالانسحاب وقامت القوات الفرنسية بأخذ أماكن جيش محمد علي المنسحب، وقامت فرنسا وإنجلترا بعقد مؤتمر قَرَّرُوا فيه فصل بلاد اليونان عن الدولة العثمانية، على أن يحكمها حاكم نصراني تختاره الدول الثلاثة.

أما الجزائر التي وجَّهت غالبية قطعها الحربية لمساندة الأسطول العثماني ضد القوى البريطانية الفرنسية والروسية، فقد كانت كل الهجمات ترتكز على الأسطول الجزائري، الذي فقد معظم قطعه، وترتَّب على ذلك ضعف عسكري جزائري في البحر فاتحًا الباب أمام الهجوم المعادي، وهو ما شجَّع شارل العاشر ملك فرنسا على فرض حصار بحري، انتهى باحتلال الجزائر في (١٨٣٠م)؛ أي بعد ثلاث سنوات بعد معركة نافارين.







الخاتمة

الحمد لله الذي هدى ووفَّق وأعان ويسر.

وبعد..

إن تاريخ المعارك العربية الإسلامية يُعتبر من المفاخر الأولى والأخيرة للعرب والمسلمين؛ لأنها أثبتت عمليًّا بأن هذه الأُمَّة قادرة على الفتوح، وعلى استعادة الفتوح بالنصر على الأمم الأخرى، وأن مكانها ليس الذل والهوان، بل المجد والعز إن أعدَّت قواتها بالإيمان والسلاح والاتحاد.

ولا أزال أؤمن بأن ثمة دورًا كبيرًا ينتظر الأُمَّة المسلمة، ولا أزال أؤمن بأن حركة التاريخ التي هي من سنن الله سوف توقف هذه الأُمَّة أمام قدرها المحتوم؛ لتُؤَدِّيَ واجبها نحو البشرية التائهة. والدليل ما روي عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ؛ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ الله، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلاَّ الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**»(١). وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(٢).

ولسوف تبقى هذه الأُمَّة، ولسوف تُؤَدِّي دورها، ولسوف تكون هناك معارك حاسمة أخرى في انتظار المسلمين.. هكذا يقول لنا معلمنا العظيم «تاريخنا» ذو الأربعمائة وألف سنة أطال الله عمره!!

ولقد كبونا كثيرًا.. ثم قمنا..

ولقد حاربنا العالم كله ذات يوم.. ونجونا.. وانتصرنا.. فقط ثمة شرط واحد: أن نعرف

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود (٢٧٦٨)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل... (٢٩٢٢)، واللفظ له، وأحمد (٩٣٨٧).

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا بشريعة نبينا... (١٥٦).

من أين نبدأ، وإلى أية غاية نريد!! ودائمًا يُعَلِّمنا تاريخنا أن آخر أُمَّتِنَا لن يصلح إلا بما صلح به أولها.

أرجو أن أكون قد أبرزت في كتابي هذا كل هذه الدروس؛ كي تنفع كل عربي ومسلم، حتى تكون لهم فائدة تُعينهم على معرفة الطريق الصحيح، لبدء استعادة المجد الغائب والأراضي المحتلة في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

إن أهمية كتابة المعارك العربية الإسلامية لا تقتصر على معارك الفتح ومعارك استعادة الفتح باعتبارها صفحات مضيئة في تاريخ العرب والمسلمين المجيد، بل تشمل المعارك الدفاعية الناجحة والمعارك الدفاعية الخاسرة؛ لكي نعرف عربًا ومسلمين لماذا انتصرنا، ولماذا اندحرنا، وكيف يُمكن أن ننتصر؟ وكيف يمكن أن نتحاشى الاندحار؟

إن الدروس المستنبطة من المعارك كافة، والعِبَر التي نتعلَّمها من دراسة تلك المعارك كافة، بها أعظم الفائدة لحاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم.

وحتى تكتمل لنا الصورة عن معارك المسلمين وفتوحاتهم كان لا بُدَّ لي من أن أُبرز أهم القادة العسكريين المسلمين، الذين قدَّموا للأُمَّة الإسلامية أروع أمثلة التضحية والفداء والدفاع عن أُمَّة الإسلام، والذين جاهدوا في سبيل الله حتى ينشروا دين الإسلام في كل مكان، وهذا ما سوف أستعرضه باستفاضة في كتابي القادم إن شاء الله.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبَّل مني هذا الجهد قبولاً حسنًا، وأن يُبارك فيه، وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه؛ كي أكون رفيق النبي ﷺ والصحابة والشهداء في الفردوس الأعلى إن شاء الله.

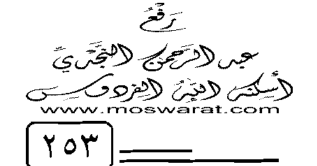
* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع

١ - دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، للدكتور عبد الحليم عويس.
٢ - عيون الأثر في المغازي والسير، لابن سيد الناس.
٣ - الدرر في اختصار المغازي والسير، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري.
٤ - السيرة النبوية، لابن هشام.
٥ - البداية والنهاية، لابن كثير.
٦ - الكامل في التاريخ، لابن الأثير.
٧ - سلسلة غزوات النبي المصطفى، لأمير بن محمد المدري.
٨ - فتوح الشام، لأبي عبد الله بن عمر الواقدي.
٩ - الأندلس من الفتح إلى السقوط، للداعية الدكتور راغب السرجاني.
١٠ - قصة الحروب الصليبية، للدكتور راغب السرجاني.
١١ - الحروب الصليبية كما رآها العرب، لأمين معلوف.
١٢ - قصَّة التتار من البدايَة إلى عَيْن جالوت، للدكتور راغب السرجاني.
١٣ - كيف دخل التتر بلاد المسلمين؟ لسليمان بن حمد العودة.
١٤ - الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي محمد محمد الصلابي.
١٥ - موسوعة الفتوحات الإسلامية، لمحمود شاكر.
١٦ - الفتوح الإسلامية عبر العصور، لعبد العزيز إبراهيم العمري.
١٧ - أطلس تاريخ الإسلام، لحسين مؤنس.
١٨ - أطلس التاريخ العربي الإسلامي، للدكتور شوقي أبو خليل.
١٩ - موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية.
٢٠ - موقع قصة الإسلام الإلكتروني.
٢١ - موقع إسلام أون لاين.
٢٢ - قسم البحوث والدراسات، الجزيرة نت.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


www.moswarat.com


الفهرس

❊ ❊ ❊



اشتر إصدارات المؤلف

عبر شركة أقلام

اتصل يصلك المنتج أينما كنت

القاهرة ت: ٠٢٢٣٩٥٢٤٦٤ محمول: ٠١١١٦٥٠٠١١١

أو عبر موقعنا الإلكتروني

www.aqlamonlin.net



٣٢٩ ش بورسعيد - السيدة زينب القاهرة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com





إلى الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم كي تقف هذه الأمة في مكانها الصحيح وكي تؤدي دورها الصحيح..

إلى الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم كي يحرروا أراضي المسلمين المحتلة..

إلى الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل رفع راية الإسلام في كل مكان..

إلى كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا..

إلى كل من قاد الجيوش وجاهد في سبيل الله كي يصل الإسلام إلينا..

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته..

إلى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين..

إلى صلاح الدين الذي وحد المسلمين وقاد الجيوش ودرب وسلح وحرر الأقصى من الصليبيين..

إلى كل من يريد تحرير بيت المقدس من اليهود..

إليهم وحدهم أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.





Designed by: Hatem El-Ashry